شَرْحُ النَّسَفِيَّةِ

في العَقِيْدَةِ الإسلامِيَّةِ

المؤلف

الأستاذ الدكتور عبد الملك عبد الرحمن السعدي

سلسبيل

للاستنساخ والخدمات الطباعية

موصل ـ شارع النجفي ـ عمارة الشبخون

الطبعة الرابعة

1430هـ - 2009 م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي نزه ربه وطلب توحيده، وعلى آله وأصحابه الذين خدموا الدين والعقيدة وبعد:

فإن متن النسفية (للإمام نجم الدين النسفي عمر بن محمد بن أحمد [1]. من المتون المقررة على طلاب الصف السادس من المعاهد الإسلامية في العراق ولما كان فهم هذا المتن عسيراً على إفهام طلاب هذه المرحلة، وشروحه لا يسعهم دراستها لضيق وقتهم وصعوبة أسلوبها وعبارتها [2].

رأيت من المناسب أن أكتب هذه الأبحاث شارحاً له بها شرحاً حديث الشكل سهل العبارة بسيط الأسلوب وافياً في التوضيح والكشف، فتوكلت على الله لاعدادها وتقديمها بين أيديهم.

فجعلت المتن المذكور في أعلى الصفحة وأعقبته بالشرح ابتداء بشرح مفردات المتن ثم بالشرح الإجمالي للمسألة، وجعلت هامشاً في ذيل الصفحة لتوضيح بعض الأمور. وقد قسمت مواضيع الكتاب إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة.

وبذلك أرجو من المولى جل شأنه أن يرزقني التوفيق والإخلاص، وأن يكتبني مع العلماء العاملين وأن ينفعني بما علمت وما أعلم أنه سميع مجيب.

المؤلف

عبد الملك عبد الرحمن السعدي

---

(1) هو عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل أبو حفص نجم الدين النسفي عالم بالتفسير والأدب والتاريخ من فقهاء الحنفية. ولد بنسف وإليها نسبته وتوفي بسمرقند قيل له مائة مصنف كان يلقب بمفتي الثقلين وهو غير النسفي (المفسر) عبد الله بن أحمد / ولد ٤٧١هـ / ١٠٧٨م.

وتوفي ٥٦٠هـ / ١١٦٥ / الأعلام للزركلي ٢٢٢/٥.

(2) أرجو أن لا يخفى على القارئ الكريم أن ما أتيت به في هذا الكتاب إنما هو مستمد مما تركه أولئك العلماء الافذاذ. وما أنا وأمثالي إلا عالة على أفكارهم ومؤلفاتهم. وليس لنا أي فضل في ذلك سوى ما وفقنا الله من عرض للموضوع بشكل أسهل وأبسط.

المقدمـــة

الأحكام الشرعية نوعان:-

أولاً: عملية وهي ما تتعلق بكيفية العمل وتسمى (فرعية) أيضاً.

كالوجوب للصلاة، والحرمة للزنى، وهكذا.

ثانياً: اعتقادية وهي ما تتعلق بالاعتقاد وتسمى (أصلية) أيضاً كاعتقادنـــا بوحدانيـــة الإله، ووجود الآخرة، وفرضية أركان الإسلام.

وقد أطلق على ما يبحث عن المسائل الأولى - علم الشرائع والأحكام، وعلى ما يبحث عن المسائل الثانية - علم التوحيد والصفات، والمقصود في بحثنا هذا هــو الثاني [١].

التعريف

التوحيد لغةً: مصدر وحّد توحيداً أي نسب إلى الوحدانية [٢].

واصطلاحاً: علم يبحث فيه عن إثبات العقائد الدينية بالأدلة اليقينية [٣].

موضوعه:

المعلوم من حيث أنه يتعلق به إثبات العقائد الدينية [٤].

واضعه:

الشيخ أبو الحسن الأشعري [٥]. والشيخ أبو منصور الماتريدي لأنهما أشهر

---

(١) انظر بذلك، شرح النسفية للتفتازاني، ص٥.

(٢) أقرب الموارد ٢/١٤٣.

(٣) الحصون المحمدية، ص٧.

(٤) نثر اللآلي، ص٦.

(٥) أبو الحسن الأشعري والماتريدي واضعا علم الكلام الخاص بعقيدة السنة والجماعة لأن أول من وضع على الكلام واصل بن عطاء من المعتزلة.

من دون في هذا العلم وأقام الأدلة والبراهين على المخالفين [١].

استمداده:

من الأدلة النقلية والعقلية.

مسائله:

قضاياه الباحثة عما يجب، وما يستحيل، وما يجوز في حق الله والرسل وفي إثبات المغيبات [٢].

غايته:

خمسة أمور:

أولها: الرقي من التقليد إلى ذروة الإيقان.

وثانيها: إرشاد المسترشدين بإيضاح الحق المبين، وإلزام المعاندين بإقامة البراهين.

وثالثاً: حفظ قواعد الدين عن أن تستزلها شبه المبطلين.

ورابعاً: بناء العلوم الشرعية عليه؛ لأنه أساسها ومنه أخذها واقتباسها.

وخامسها: صحة النية والاعتقاد للفوز بدار الخلود [٣].

- أما الأول: فهو علي بن إسماعيل بن إسحاق ابن الحسن من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري. مؤسس مذهب الأشاعرة. كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين ولد في البصرة وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم؛ ثم رجع وجاهر بخلافهم توفي في بغداد، قيل بلغت مصنفاته ثلاثمائة كتاب ولد سنة ٢٦٠هـ / ٨٧٤م، توفي ٣٢٤هـ / ٩٣٦م، الاعلام ٥/٦٩.

وأما الثاني: فهو محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي من أئمة علماء الكلام نسبته إلى ماتريد (محله بسمر قند) من كتبه التوحيد خ... وشرح الفقه الأكبر المنسوب للإمام أبي حنيفه (ط) مات بسمر قند سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤م.

(١) نثر اللآلي، ص٦.

(٢) نثر اللآلي، ص٦.

(٣) نثر اللآلي، ص٦.

براهينه:

الحجج القطعية المؤيد أكثرها بالأدلة السمعية [1].

مكانته بين العلوم:

هو من أشرفها لأنه أصل العلوم الدينية ومتعلق بذات الله تعالى وذات رسله عليهم الصلاة والسلام [2].

حكمه الشرعي:

الوجوب العيني والكفائي:

فالعيني: هو معرفة أدلته إجمالاً وذلك على كل مسلم ومسلمة. كأن يعتقد بوجود الإله لوجود هذه المخلوقات، ويعتقد بوجود الملائكة؛ لأن الله أخبر عنهم.

والكفائي: هو معرفة أدلته التفصيلية كأن يعرف وجود الخالق بحدوث العالم بتغييره. وتغيره بمشاهدة ذلك من حركة إلى سكون وهكذا بقية الصفات، والمغيبات.

أسماؤه:

١- علم التوحيد – سمي بذلك لأن أشهر مباحثه توحيد الله تعالى الذي هو أساس الدين [3].

٢- علم الكلام – سمي بذلك؛ لأن عنوان مباحثه كان قولهم (الكلام في كذا وكذا) أو لأن مسألة الكلام كانت أشهر مباحثه حيث أدت هذه المسألة إلى نزاع عظيم بين المسلمين وقتل عليها العدد الكبير من العلماء. وعذب الكثير، منهم الإمام أحمد رحمه الله [4].

---

(١) شرح النسفية للتفتازاني، ص٥.

(٢) شرح النسفية للتفتازاني، ص٥.

(٣) الحصون المحمدية، ص٨.

(٤) هو الإمام الشهير أبو عبد الله أحمد بن حنبل ينتهي نسبه إلى عدنان إليه ينسب المذهب الحنبلي. توفي في بغداد سنة ٢٤١هـ ودفن في مقبرة باب حرب
طبقات الحنابلة ١/٤ ووفيات الأعيان ٤٧/١.

أو لأنه أول ما يجب من العلوم التي تعلم، ولا تعلم إلا بالكلام.

أو لأنه يورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات وإلزام الخصوم [(١)].

٣- علم العقائد - سمي بذلك لأنه يبحث في الأمور التي يجب على الإنسان الاعتقاد بها وعدم الشك فيها.

٤-علم أصول الدين - سمي بذلك لأن الدين مشتمل على أصول وفروع. فالأصول المعتقدات ويسمى أصول الدين.

والفروع - الأفعال العملية والأخلاقية ويسمى الأول علم الفقه والثاني علم التصوف.

الأسباب الموجبة لوضعه:

لم يدرس السلف الصالح هذا العلم ولم يدونوه ولم يحتاجوا إليه، وذلك (لصفاء عقيدتهم ببركة صحبة النبي ﷺ وقرب العهد بزمانه ولقلة الوقائع والاختلافات وتمكنهم من مراجعة الثقات) [(٢)].

إلى أن انتشر الإسلام واختلط بالمسلمين (الموالي) من غير العرب ونقلت الفلسفة الإغريقية والمنطق اليوناني إلى المجتمع الإسلامي في عهد (أبي جعفر المنصور [(٣)].

ثم في عهد (هارون الرشيد) [(١)]. ثم تمت في عهد (المأمون) [(٢)]. حيث عني بترجمة كثير من هذه العلوم إلى العربية.

---

(١) شرح النسفية، ص٧.

(٢) شرح النسفية، ص٧.

(٣) أبو جعفر المنصور هو عبد الله بن محمد بن علي بن العباس. ثاني خلفاء بني العباس وأول من عني بالعلوم من ملوك العرب كان عارفاً بالفقه والأدب مقدماً في الفلسفة والفلك محباً للعلماء، ولد في الحميمة (قرب معان) سنة ٩٥هـ / ٧١٤م ولي الخلافة سنة ١٣٦هـ وهو باني مدينة بغداد وجعلها دار ملكه بدلاً من الهاشمية، وكان جدياً بعيداً عن اللهو والعبث توفي في مكة محرما بالحج ودفن في الحجون سنة ١٥٨هـ / ٧٧٥م / الأعلام ٢٥٩/٤.

فظهرت جماعة تدعو إلى البدع في الاعتقاد وأرخت عنان الأهواء للبحث في إظهار معتقدات غير منسجمة مع قواعد الإسلام ونصوص الكتاب والسنة كالقول بالتشبيه، والتجسيم للإله، والقول بقدم العالم ونفي حشر الأجساد وما إلى ذلك. متأثرين بما أملته عليهم الفلسفة الطائشة فانبرى للرد جماعة من المعتزلة وأسسوا قواعد الرد والمناظرة في ضوء تلك الأسس التي بنى عليها خصومهم أدلتهم، إلا أنهم وأن كانوا أصحاب الفضل في هذا الشأن فإنه لم تخل أسسهم ومبادئهم عن بعض هفوات خالفوا فيها ما عليه جماعة المسلمين وجمهورهم. كقولهم (أن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً ولا كافراً) – المنزلة بين المنزلتين.

وقولهم: فعل الاصلح واجب على الله تعالى، والقول بخلق القرآن وغير ذلك مما سيأتي، وعلى رأس هذه الفرقة (واصل بن عطاء) [٣].

---

(١) والرشيد هو هارون أبو جعفر بن المهدي محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس استخلف في عهد ابيه عند موت اخيه الهادي ليلة السبت لا أربعة عشر مضت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة وكان من أميز الخلفاء وأجل ملوك الدنيا وكان كثير الغزو والحج، ولد بالري سنة ١٤٨.
كان أبيض طويلاً جميلاً مليحاً فصيحاً، له نظر في العلم والأدب، وكان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة إلى أن مات لا يتركها إلا لعلة. ويتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم / تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص٢٨٣ فما بعدها.

(٢) المأمون هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور أبو العباس وسابع الخلفاء من بني العباس في العراق وأحد أعاظم الملوك في سيرته وعلمه وسعة ملكته، نفذ أمره من افريقية إلى أقصى خراسان وما وراء النهر والسند، ولي الخلافة سنة ١٩٨هـ فتمم ما بدأ به جده المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة، ولد عام ١٧٠هـ / ٨٧٦م، وتوفي ٢١٨هـ / ٨٣٣م / الأعلام ٢٨٧/٤.

(٣) هو واصل بن عطاء الغزال أبو حذيفة من موالي بني ضبة أو بني مخزوم رأس المعتزلة ومن أئمة البلغاء والمتكلمين سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري. ومنهم طائفة تنسب إليه تسمى (الواصلية) وهو الذي نشر مذهب الاعتزال في الأفاق. كان يلثغ بالراء فيجعلها غيناً فتجنب الراء في خطابه وضرب به المثل في ذلك، ولد سنة ٨٠هـ / ٧٠٠م، وتوفي ١٣١هـ / ٧٤٨م، الأعلام ١٢١/٩.

أحد تلاميذة التابعي الجليل (الحسن البصري رحمه الله تعالى) [1]. فقد كان واصل يحضر حلقة درس البصري لتلقي العلوم. ولما وصل بهم البحث إلى مسألة مرتكب الكبيرة خالف أستاذه فيها وعقد مجلساً آخر.

فقال الحسن البصري: اعتزل واصل مجلسنا فسمو (بالمعتزلة) وكان من إتباع واصل هذا (الأستاذ أبو علي الجبائي) من كبار أئمة الاعتزال [2].

وكان الشيخ أبو الحسن الأشعري – واضع هذا العلم – أحد تلاميذة الجبائي. إلا أنه ترك مذهبه بعد ما حاجه في المثل الذي ضربه لهم في مسألة فعل الاصلح وأفحمه واستقل هو وإتباعه ومنهم الشيخ أبو منصور الماتريدي بإبطال رأي المعتزلة وإثبات ما وردت به السنة ومشى عليه الجماعة – لذا سموا (أهل السنة والجماعة). كما ظهرت آراء الخوارج في قولهم إنّ مرتكب الكبيرة كافر.

---

(1) هو الحسن بن يسار البصري أبو سعيد تابعي كان إمام أهل البصرة وهو أحد العلماء الفقهاء والفصحاء الشجعان النساك، ولد بالمدينة عام ٢١هـ / ٦٤٢م، توفي ١١٠هـ / ٧٢٨م، الأعلام ٢/٢٤٢.

(2) هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي من أئمة المعتزلة ورئيس علماء الكلام في عصره وإليه نسبت الطائفة الجبائية. له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب نسبته إلى جبى (من قرى البصرة) اشتهر في البصرة ودفن بجبى. له تفسير حافل مطول رد به على الأشعري، ولد سنة ٢٣٥هـ / ٨٤٩م، وتوفي ٣٠٣هـ / ٩١٦م، الأعلام ٧/١٣٦.

الفصل الأول

في حقائق الأشياء وطرق معرفتها

ويتضمن:

١- الرد على المنكرين لها.

٢- أسباب العلم بها.

ص: قَالَ أهْلُ الحقِّ: حقائِقُ الأشياءِ ثابتةٌ والعلمُ بها مُتَحَقِقٌ خلافاً (للسُوفِسطَائيَّة).

ش: المفردات

قال: فعل ماضٍ.

أهل: فاعل و(قال) تحتاج إلى مقول بمثابة المفعول به والمقول هنا هو (حقائق الأشياء ثابتة) وبقية المسائل المذكورة في هذا الكتاب.

الحق: لغة مأخوذة من حق الأمر حقاً وجب وثبت [1].

واصطلاحاً: هو الحكم المطابق للواقع – أي الخارج ونفس الأمر.

ويطلق على:

١– القول – فيقال قول حق.

٢– والعقائد – عقيدة حقة.

٣– والأديان – دين حق.

٤– والمذاهب – مذهب حق [2]. ويوصف الله تعالى بالحق وكذا القرآن الكريم، ويقابله الباطل.

أما الصدق – فهو أيضاً مطابقة الحكم للواقع إلا أنه شاع في الأقوال خاصة يقال قول صدق ويقابله الكذب [3].

---

(١) أقرب الموارد ٢١٤/١.

(٢) شرح التفتازاني، ص١٠.

(٣) يراجع شرح النسفية للتفتازاني، ص١٣.

الفرق بين الحق والصدق

أنه إن لوحظت المطابقة من الواقع إلى الحكم سمي (حقاً). ثابت متحقق

وإن لوحظت من الحكم إلى الواقع سمي (صدقاً). يصدق عليه مصاديق

حقائق – جمع مفرده حقيقة والحقيقة [1]. ما به قوام الشيء واقعياً – كالحيوان الناطق به قوام الإنسان، أو اعتبارياً – كالقول المفرد به قوام الكلمة.

الأشياء – جمع مفرده شيء.

والشيء معناه الموجود قال تعالى:﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ أي موجوداً.

ثابتة – أي موجودة.

والعلم بها – أي بحقائق الأشياء.

متحقق – أي ثابت في الخارج لا سبيل لإنكاره.

السوفسطائية – نسبة إلى سوفسطاء وهو اسم بمعنى الحكمة المموهة والعلم المزخرف لأن (سوفا) معناه العلم والحكمة و(اسطا) معناه المزخرف والغلط[2].

الشرح الإجمالي:

أنكرت السوفسطائية وجود حقائق الأشياء وقالوا: إن ما يرى من الأشياء لا حقيقة لها في الخارج والواقع.

يهدفون بذلك إلى نفي الإله والآخرة والأحكام الشرعية.

وقد انقسموا في مذهبهم هذا إلى ثلاث فرق.

---

(١) الفرق بين الحقيقة والماهية.
الحقيقة ما به تحقق الشيء في إفراده في الخارج. فقط كالحيوان الناطق للإنسان. والماهية أعم من الحقيقة حيث تطلق أيضاً على ما لم تحقق في الخارج كماهية العنقاء أ هـ، شرح رمضان، ص٢٧.

(٢) شرح النسفية للتفتازاني، ص٨.

الفرقة الأولى:

تقول – إن حقائق الأشياء أوهام وخيالات باطلة فالجدار الذي نراه مركباً من الحجر والجص مثلاً لا وجود لأجزائه المركب منها واقعياً بل هي أوهام وقعت في خيال الرائي حيث تخيل أن لهذا الشيء هذه الأجزاء وليس لها حقيقة في الواقع.

وكذا حرارة النار، وبرودة الثلج، ووجود الأرض والسماء وهكذا. وهم (العنادية) سمو بذلك لعنادهم وعدم اعترافهم بالواقع المشاهد.

الفرقة الثانية:

تقول – إن حقائق الأشياء لا واقع لها وإنما هي تابعة للاعتقادات فكل راءٍ يرى حقيقة للشيء بموجب اعتقاده، فإذا نظرت إلى الجدار ووجدته مركباً من الحجر والجص مثلاً فإنما هو بحسب اعتقادك أنت إذ قد يراه راء آخر من أجزاء أخرى غير ما تعتقده وهم (العِنْديَّة) سمو بذلك لأنهم يقولون عندي كذا وعندك كذا.

الفرقة الثالثة:

تنكر العلم بثبوت حقيقة الشيء أو لا ثبوتها. ويقولون: نحن نشك في هذه الحقيقة ونشك أيضاً في أنفسنا هل نحن شاكون أو لا. وهم (اللاأدرِيَّة) سمو بذلك لقولهم لا أدري.

أدلة السوفسطائية

استدلوا على ذلك بما يأتي:

١- أن حقائق الأشياء إما أن تكون ضرورية أو نظرية، فالضرورية أما حسيات تدرك بالحواس الخمس وإما بديهيات[1]، فالحسيات قد يعتريها الخطأ كأن ترى حبة العنب الموجودة في القارورة الزجاجية المملوءة بالماء أكبر منها حين تخرج منها. والأحول يرى الواحد اثنين.

---

(١) نسبة إلى البديهية وهي أول كل شيء وما يفاجأ منه. والبديهي ما لا يحتاج في الحكم عليه إلى غير إدراك الطرفين – المسند والمسند إليه.

والشيء المستطيل إذا أدير بسرعة يرى كأنه مستدير، وصاحب الحمى يجد الحلاوة مرة في فمه.

والبديهيات قد تكون غير ثابتة حيث تختلف فيها الآراء والأفكار فيحتاج إلى أدلة دقيقة فمثلاً الصدق النافع يدعي المعتزلة أن العقل حكم بحسنه، والكذب الضار يدعون أن العقل حكم بقبحه، بالوقت الذي يقول الأشاعرة إن الحسن والقبيح لا يدركهما العقل بل يدركان بالشرع والوحي[١].

أما النظريات

فهي مبنية على الضروريات، وحيث قد ثبت فساد الضروريات يثبت فساد النظريات لأن المبني على الفاسد فاسد.

ويجاب عن ذلك:

بأن غلط الحس في البعض لأسباب أو لموانع لا ينافي القطع بوجودها في الواقع فيما إذا انتفت تلك الأسباب والموانع، وبذلك نرى حبة العنب بعد إخراجها من الماء تتمثل بحجم واحد لا يختلف فيه اثنان أو نظرتان.

وإذا زال الحول من الأحول يرى الواحد واحداً لا اثنين.

وإذا زالت الحمى يتذوق صاحبها الحلاوة دائماً. فغلط الحس لعارض لا يدل على عدم وجود واقع للمحسوس، ومع ذلك فإن دليلهم هذا اعتراف بواقع محسوس فإن إدراك المحموم الحرارة والأحول الواحد اثنين اعتراف بإثبات حقيقة الحرارة والاثنين لشيء من الأشياء وذلك مناف لادعائهم[٢].

---

(١) إلا أن الأشاعرة لا ينكرون نصيب العقل في إدراك الأمور البديهية كنفع الصدق وضرر الكذب وغير ذلك ويعتقدون أن مجيء الشرع يكون مؤيداً لما ثبت عقلاً، وأصل الخلاف يدور حول الأمور النظرية عموماً، وكذلك حول ترتب الثواب والعقاب.

(٢) إن هذا الاعتراف إنما ينصب على العنادية واللاأدرية منهم لا على العندية كما لا يخفى.

وأما المثال الذي ذكرتموه في البديهيات فإن كون الصدق نافعاً هو البديهي ولم تختلف فيه الآراء إذ الكل يعترفون بهذه الحقيقة، ولكن خلافهم في هل عرف نفعة بالعقل أو بالشرع؟ وهذا أمر نظري وليس خلافاً في إثبات الحقيقة المشار إليها.

استدلالنا على ثبوت حقائق الأشياء، لنا دليلان:

أحدهما ضروري: هو أننا نثبت وجود حقائق الأشياء بطريق المعاينة والمشاهدة ومن رأى غير ذلك فعليه البيان والتوضيح.

وثانيهما نظري: وهو أن حقائق الأشياء إما أن تكون ثابتة أو منفية فإن كانت ثابتة فهو غرضنا.

وإن كانت منفية فحكمنا عليها بالنفي حقيقة؛ لأن نفي الشيء عن الشيء نوع من الحكم، وما دمنا قد أثبتنا قولكم بحقيقة من الحقائق فلا يسعكم نفيها على وجه الإطلاق. لأن الاعتراف بحقيقة اعتراف بأصل وجود جنسها.

والحق أن المناظرة معهم عبث وإضاعة للوقت وبالأخص اللاأدرية بل الطريق أن يعذبوا بالنار ليحسوا بإحراقها لأن الإحراق حقيقة من الحقائق. فإما أن يعترفوا أو يموتوا[1].

---

(1) يلاحظ جميع ذلك في شرح التفتازاني، ص١٤ – ١٦.

ص: وأسبابُ العِلْمِ للخَلْقِ ثلاثةٌ: الحواسُ السليْمَةُ، والخَبَرُ الصادِقُ، والعَقْلُ

ش: المفردات

الأسباب: جمع مفرده سبب والسبب لغةً ما يتوصل به إلى أمر من الأمور[1].
واصطلاحاً ما يكون طريقاً إلى الحكم من غير تأثير، والمؤثر هو العلة [2].

العلم: هو صفة توجب تميزا لمحلها – وهو الموصوف بها – لا يحتمل النقض[3].
كالعلم بأن النار حارة، وأن الله موجود، وأن الواحد نصف الاثنين.

الخلق: مصدر بمعنى المفعول – أي المخلوق – والمراد هنا من لديه قابلية العلم وهم الملائكة، والأنس، والجن [4].

الخلق: قيد يخرج به علم الخالق فإنه لذاته لا بسبب من الأسباب.

الحواس: جمع مفرده حاسة وهي القوة الحاسة [5].

السليمة: من العيوب المخلة في إحساسها كالعمى للعين والصمم للأذن مثلاً.

الخبر الصادق: هو ماله نسبة خارجية وقد طابقها كالسماء فوقنا، ومكة موجودة والملائكة عباد الرحمن، والمتكلم من وراء جدار حي.

العقل: هو قوة للنفس بها تستعد للعلوم والإدراكات [6].

الشرح الإجمالي:

بعد أن اتضح لنا أن حقائق الأشياء ثابتة وأن العلم بها متحقق وأقمنا الأدلة على ذلك وناقشنا أدلة المنكرين لوجودها وهم السوفسطائية الذين بنوا أفكارهم على

---

(١) المصباح، ٣٥٧/١.
(٢) ملا رمضان، ص٣٥.
(٣) ملا رمضان، ص٣٥.
(٤) شرح النسفية للتفتازاني، ص١٩.
(٥) شرح النسفية للتفتازاني، ص١٩.
(٦) شرح النسفية للتفتازاني، ص١٩.

طعنهم في الحس وبداهة العقل – أصبح من اللازم أن نبين الوسائل التي يحصل بها العلم للمخلوق لأنه بالعلم يتوصل إلى معرفة حقــائق الأشــياء، فتبــين – بطريــق الاستقراء – أنها ثلاثة؛ وذلك لأن السبب إن كان خارجاً عــن الــشيء المــدرك[1]. فالخبر الصادق، وإن كان آلة للمدرك فالحواس، وإن كان واسطة العلم هي المــدرك. فالعقل[2].

---

(1) المدرك – بكسر الراء – ما به تصدير الشيء.

(2) انظر هذا الضابط في شرح النسفية، ص٩١.

ص: فالحواسُ خَمْسٌ، السَمْعُ، والبَصَرُ، والشَمُّ، والذَوْقُ، واللَمسُ وبكُلِ حاسَـةٍ مِنْهـا يُوقَفُ على ما وُضِعَتْ هِيَ لَهُ.

ش: السبب الأول للعلم – الحواس الخمس الظاهرة

١- السمع:

هي قوة مودعة في العصب المفروش في مـؤخرة الـصماخ تـدرك بهـا الأصوات بواسطة دخول الهواء المتكيف بكيفية الصوت إلى الـصماخ وموضـعها: الأذن، وفاقدها يسمى (أصم).

٢- البصر:

هي القوة المودعة في العصبتين المجوفتين اللتين تتلاقيان فـي الـدماغ ثـم تفترقان فتؤديان إلى العينين تدرك بها الأضواء، والألوان، والأشـكال، والمقـادير، والحركات، والحسن، والقبح. وموضعها: العينان، وفاقدها يسمى (أعمى).

٣- الشم:

هي قوة مودعة في الزائدتين الناتئتين في مقدم الـدماغ الـشبيهتين بحلمتـي الثديين، تدرك بها الروائح بطريق وصول الهواء المتكيف بكيفية ذي الرائحـة إلـى الخيشوم وموضعها: الأنف، وفاقدها يسمى (أخشم).

٤- الذوق:

هي قوة منبثة (منتشرة) في العصب المفروش على جرم اللسان تـدرك بهـا الطعوم المخالطة للرطوبة اللعابية التي في الفم بالمطعوم ووصـولها إلـى العـصب وموضعها: اللسان.

٥- اللمس:

هي قوة في جميع البدن تدرك بها الحرارة، والبرودة، والرطوبة واليبوسة، والنعومة، والخشونة عند التماس والاتصال، وموضعها: الجسم كله.

وبهذا تبين أن العين موضع البصر وليست هي البصر، والأذن هي موضع السمع وليست هي السمع وهكذا.

ويقابل الحواس الظاهرة الحواس الباطنة والتي هي: الحس المشترك، الواهمة، المخيلة، والمتصرفة، والخازنة فقد أثبتها الحكماء (الفلاسفة) بدلائل غير سالمة من الإيرادات. لذا لم تثبت لدى المتكلمين.

هناك أسباب أخرى لحصول العلم

حيث قد يحصل عن طريق الحدس، والتجربة، ولا تذكر اكتفاء بالعقل؛ لأن مرجع جميع ذلك إليه حيث يحصل العلم بالشيء بالعقل نفسه بمجرد التفات أو انضمام حدس أو تجربة.

وجعلت الحواس الظاهرة سبباً للعلم – دون الباطنة لأنهم وجدوا الادراكات تحصل عقب استعمال الحواس الظاهرة.

ويشترك في ذلك أصحاب العقول كالإنسان، وغيره كبقية الحيوانات لأجل ذلك جعلوا الحواس وسيلة وسبباً مستقلاً للعلم.

وبكل حاسة منها: أي من هذه الخمسة

يوقف: أي يطلع يقال وقف فلان على المسألة أطلع عليها.

المعنى: جرت سنة الله تعالى على أنه خلق حاسة البصر ليطلع بها على الألوان مثلاً، وخلق حاسة السمع ليطلع بها على الأصوات.

وحاسة الذوق ليطلع بها على المطعومات، ولا يمكن أن يطلع على الألوان بحاسة السمع، وعلى الأصوات بحاسة البصر وهكذا.

إلا من باب خرق العادات وذلك جائز ولله خرق العادات فعند ذلك يمكـــن أن تدرك الألوان بالسمع وليس ذلك إلا بمحض قدرة الله تعالى.

ص: والخبرُ الصادِقُ على نوعين:

أحدُهُما – الخبر المتواتر وَهُوَ الثابتُ على ألْسنَةِ قَوْمٍ لاَ يُتَصَوَّرُ تَواطُـؤهُم علـى الكَذبِ، وَهُوَ مُوجبٌ للعِلْمِ الضَروري كالعِلمِ بالملوكِ الخاليَةِ في الأزْمِنَـةِ الماضيَـةِ والبلدانِ النائيَةِ.

ش: المفردات

متواتر: اسم فاعل من تواتر ومعناه لغةً تتابع [1]. سمي الخبر به لأنـه يقـع علـى التعاقب والتوالي.

القوم: هم الجماعة من الرجال ويراد به هنا الذكور والإناث تغليباً.

لا يتصور: أي لا يجوز العقل بل يحيل ذلك.

تواطؤهم: أي توافقهم.

موجب: بكسر الجيم أي مسبب – بكسر الباء الأولى.

العلم الضروري – الذي يحصل لدى الإنسان بدون نظر واستدلال.

الملوك الخالية: كفرعون، وهارون الرشيد ونحو ذلك.

البلدان النائية: أي البعيدة كلندن، وواشنطن، وموسكو لمن لم يرها.

الشرح الإجمالي:

الخبر الصادق سبب من الأسباب التي يحصل بها العلم ويتحقق هذا السبب في نوعين من أنواع الأخبار:

أحدهما: عن طريق الخبر المتواتر وهو ما نقله جماعة من الناس بحيث يبلغ عددهم مبلغاً لا يجوز العقل اتفاقهم واجتماعهم على أن يكذبوا خبرا، وينقلـوه إلـى المخبَر – بفتح الباء.

---

(1) القاموس، ١٥٧/٢.

وينبغي لهذا الخبر توافر الشروط الآتية فيه:

١- أن يكون المخبرون بحيث لا يتصور صدور الكذب عنهم.

٢- أن يكون المخبرون عالمين بما اخبروا علماً مستنداً إلى الحس لا إلى غيره.

٣- أن يكون المخبر به ممكناً مشاهداً ولو بالتجربة والحدس. فلو اجتمع العالم واخبروا باجتماع الليل والنهار مثلاً لا يحصل اليقين لاستحالته.

٤- أن يكون هذا العدد الذي يحصل به اليقين من المخبرين كاملاً من أول السند إلى آخره فلو وصل إلى من دونهم انقطع تواتره[1].

إذا توافر ما تقدم يحصل لدى المخبَر علم ضروري – أي بديهي بدون حاجة إلى استدلال.

ويحصل هذا العلم ولو اخبر به أفرادهم كل على انفراد لأن إخبار كل فرد بمفرده وإن كان ظنياً إلا أنه حينما ينظم خبر كل فرد إلى الآخر يفيد اليقين. إذ تحصل القوة بالاجتماع بما لا يمكن حصولها بالانفراد كالحبل من الشعر تحصل به قوة لا تحصل في كل شعرة على انفرادها.

---

(١) هذه الشروط تعتبر كلها في الخبر المنقول عن الرسول فقط. ولا يشترط كلها في كل خبر ينقل.

ص: والثاني خَبَرُ الرسُول المؤيدِ بالمعجِزَةِ وَهُوَ يُوْجِبُ العِلْمَ الاستدْلاليَّ، والعِلْمُ الثابِتُ به يضاهي العِلْمَ الثابتَ بالضرُورَةِ في التيَقنِ والثبَاتِ.

ش: شرح المفردات

الرسول: رجل أوحى الله إليه بشرع وأرسله إلى الخلق ليبلغهم الأحكام.

النبي: رجل أوحى الله إليه بشرع أُمِر تبليغه أو لم يؤمر، وهو أعم من الرسول لأن كل رسول نبي كسيدنا محمد وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وما إلى ذلك، وليس كل نبي رسولا، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾ فالعطف يقتضي المغايرة (فبينهما عموم وخصوص مطلق).

المؤيد: أي المقوى والمثبتة رسالته.

المعجزة: هي أمر حقيقي خارق للعادة يظهر على يد من أدعى الرسالة من الله تعالى، مقرونة بالتحدي، مقصودة له.

مثل ناقة سيدنا صالح، وعصى سيدنا موسى، ومعجزات النبي محمد ﷺ الكثيرة كانشقاق القمر، واسماع صوت الجماد وغير ذلك، وأبرزها إعجاز القرآن الكريم.

أما الخارق الحاصل على يد من أدعى النبوة كذباً كمسيلمة الكذاب فليس بمعجزة؛ لأنه ليس مقصوداً له فإنه لما بصق في البئر المالحة فغارت كان مقصوده أن تكون عذبة ولم يقصد غورها وهكذا. وسنوضح الفرق بين المعجزة والخوارق الأخرى لدى كلامنا على الكرامة.

الاستدلالي: نسبة إلى الاستدلال وهو النظر في الدليل الموصل إلى النتيجة التي هي المطلوب الخبري.

يضاهي: يشابه وهي أداة تشبيه.

في التيقن: عدم احتمال النقيض.

والثبات: عدم احتمال الزوال بالتشكيك.

الشرح الإجمالي:

النوع الثاني من نوعي الأخبار:

خبر من أدعى الرسالة وأيد بالمعجزات الدالة على إكرامه وتصديقه من قبل مرسله والتي هي بمثابة قول المرسل (صدق عبدي في كل ما يبلغ عني) لأن خرق العادة من قبل الرسول لا يكون إلا تصديقاً له؛ لأن الخرق يكون مقارناً للتحدي فلو كان المدعي كاذباً على الله لما نفذ طلبه المقصود ولما أعانه وأمده به.

وعند وجود المعجزة فالخبر المسموع من الرسول لا يكفي لإفادة العلم الضروري بل لا بد للتوصل إلى إخباره من دليل يقيني مستند إلى صدق الرسول المقطوع به بواسطة المعجزة.

إذن فخبر الرسول يسبب يقيناً جازماً بواسطة الاستدلال. وعند ذلك يكون العلم الحاصل به مشابهاً للعلم الحاصل بالضرورة عن طريق الحواس السابقة.

ووجه الشبه بينهما عدم حصول النقض والشك لدى العالم به.

مثال ذلك: إذا قال الرسول ﷺ : (الصلاة فرض على كل مسلم ومسلمة).

فنقول للوصول إلى العلم بهذه القضية: الصلاة أمر بها الرسول المؤيد بالمعجزة أمراً حتمياً وكل ما أمر به الرسول أمراً حتمياً فهو فرض نتوصل إلى (الصلاة فرض) وهو المطلوب.

فعند ذلك يحصل لدينا علم بفرضية الصلاة كما يحصل العلم لدينا بحرارة النار وضياء الشمس.

ص: وأمَّا العقلُ؛ فهُوَ سَبَبٌ للعلْمِ أيضاً، وما ثَبتَ منه بالبداهة فهُوَ ضَرُوريٌّ؛ كـالعِلْمِ بأنَّ كُلَّ الشَيْءِ أعظمُ منْ جُزْئه، وما ثَبتَ بالاستدْلالِ فهُوَ اكتِسابي.

ش: المفردات

العقل[1]. مصدر عقل يعقل. هو نور روحاني به تدرك النفوس العلـوم الـضرورية والنظرية، وهو مأخوذ من عقال البعير لما فيه من معنى الربط لأنه يربط الإنسان عن فعل النقائص[2].

البداهة: هو ما يحصل لدى الإنسان بأدنى تنبيه من غير احتياج إلى تفكير.

الضروري له معنيان:

١- (ضروري) ما يحدثه الله في الإنسان من غير كسبه واختيـاره كعلـم الإنـسان بوجود نفسه.

---

(١) وله أسماء أخرى منها:

النهية – لأنه ينهي صاحبه عن القبيح.

اللب – لأنه خلاصة الإنسان.

الحجر – لأنه يحجر صاحبه عن فعل القبيح.

الكيس – انعطافه وعدم الحمق.

الحصاة – مأخوذة من الثقل والرزانة.

الأرب – وهو الدهاء.

وله أسماء أخرى باعتبارات متغايرة، فيسمى عقلاً باعتباره يدرك المنافع والمضار والغموم والمسار وغير ذلك.

ويسمى نفسا – باعتبار تسيير البدن والتصرف.

ويسمى روحاً – باعتبار أنه حي ويظهر منه أثر الحياة.

أقرب الموارد، ٨١٢/٢.

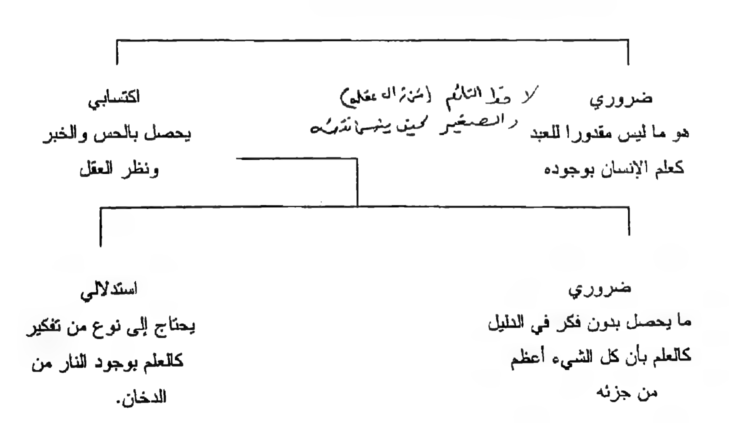
(٢) تبين أن تمثيل المصنف بهذا المثال للضروري المقابل للاكتسابي فيه تسامح لأنه قسم مـن الاكتـسابي لا قسيمه.

٢- (ضروري) ما يحصل بأول النظر من غير تفكير كالعلم بأن كل الشيء أعظم من جزئه، فإنه يحصل العلم به بعد تصور الكل والجزء والأعظم.

الاستدلالي: منسوب إلى الاستدلال: وهو ما يحتاج فيه إلى نوع تفكير كالعلم بوجود النار عند رؤية الدخان.

الاكتسابي: منسوب إلى الكسب وهو ما يحدثه الله تعالى بالإنسان بواسطة كسبه ومباشرته أسبابه من الحواس والخبر الصادق، ونظر العقل (فالاكتسابي) أعم من الاستدلالي؛ لأن الاكتساب كما يكون بالنظر والتفكير يكون أيضاً بواسطة الحواس والخبر الصادق ويقابله الضروري بالمعنى الأول.

وإليك توضيح القسمة على الشكل التالي:



الشرح الإجمالي:

نظر العقل سبب من أسباب حصول العلم عند جمهور المسلمين وقالت السُمَّنِيةُ [1]. لا يكون العقل سبباً في جميع النظريات وقالت الفلاسفة [2]. لا يكون العقل سبباً للعلم في الإلهيات.

وقالت طائفة: أن النظر لا يفيد معرفة الله بلا معلم مرشد.

والدليل على ذلك أن كثرة الاختلافات وتناقص الآراء دليل على عدم حصول العلم به.

والجواب عن ذلك:

أن ما يحصل من اختلاف وتناقض في الآراء مبني على فساد النظر وهذا لا ينافي حصول العلم بالعقل إن كان النظر صحيحاً [3]. أما الاحتياج إلى المعلم لمعرفة الله فإن كان ادعاؤكم امتناع حصول العلم، بدون معلم فلا نسلم ذلك، وأن قالوا: يحصل مع العسر فمسلم فيه [4].

ثم إن احتجاجكم هذا وهو – أن نظر العقل في الإلهيات ليس مفيداً لكثرة الاختلاف – هو استدلال بنظر العقل وهذا دليل أنكم تثبتون ما تريدون نفيه.

وعلى هذا فإن العقل يكون سبباً من أسباب العلم فيما يدركه بداهة وبدون تفكير يسمى (ضرورياً) كما مثل، وما يحتاج في إدراكه إلى نظر وفكر يسمى (اكتساباً) وقد يكون هذا الاكتساب بواسطة الحواس: كتقليب الحدقة، وفتح الأجفان للنظر، وإصغاء الأذن للاستماع، وقد يكون بواسطة نظر العقل: كالاستدلال على حياة من خلف الجدار بكلامه.

---

(1) هم قوم من عبدة الأصنام قائلون بالتناسخ وهو انتقال الروح من بدن إلى بدن آخر.

(2) هو ارسطو حيث قال لا يقين في مباحث الألوهية.

(3) شرح النسفية، ص٣٢.

(4) شرح رمضان، ص٥٨.

والإلْهامُ لَيْسَ مِنْ أسْبابِ الْمَعْرِفَةِ بصِحَّةِ الشَيْءِ عِنْد أهْل الحقِّ

ش: شرح المفردات

الإلهام: إلقاء معنى في القلب بطريق الفيض – أي بدون كسب ونظر ويكون بواسطة الملك، ويقابله الوسواس وهو ما يحصل بواسطة النفس [1]. والشيطان[2].

المعرفة: المراد بها هنا العلم حيث لا فرق بينهما عند أهل السنة والجماعة، والفلاسفة فرقوا بينهما فقالوا:

العلم: إدراك المركب.

والمعرفة: إدراك البسيط ولذلك يقال عرفت الله ولا يقال علمت الله

الشرح الإجمالي:

إن الإلهام الذي يلقيه الملك في النفس لا يكون سبباً من أسباب العلم لعامة الخلق ولا يصلح للإلزام على الغير [3]. ولا يكون إلا في الخير قال تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ وقد يحصل الإلهام لبعض الخلق خاصة ويحصل به العلم بالنسبة له لا لغيره.

وممن حصل لهم الإلهام سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ ، إذ يروي أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قوله: (أنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم ناس مُحَدَّثُون (أي ملهمون) وأنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب)[4].

---

(1) قال تعالى: ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ .

(2) وقال: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ ، شرح رمضان، ص٦٤.

(3) وذلك لاحتمال كونه من الشيطان فيشتبه الإلهام بالوسواس.

(4) البخاري: ١٤٩/٤٠، مسلم، ١٤٥/٧.

وهو أنواع:

منه ما يحصل بالقذف في القلب بلا مباشرة كما كان لأم موسى عليه الصلاة والسلام بقذف موسى في التابوت.

وقد يكون في المنام كما كان لإبراهيم عليه الصلاة والسلام لذبح ولده وقد يكون بواسطة الملك - قال الغزالي: (العلم الحاصل بلا دليل يكون أما بمشاهدة الملك على حقيقته فيسمى (وحيا) وهو خاص بالأنبياء، وأما بلا مشاهدة الملك فيسمى (إلهاماً) ويكون للأنبياء وللأولياء وهو العلم اللدنّي كما وقع لسيدنا الخضر مع موسى عليه السلام، وكما قال سيدنا علي - كرم الله وجهه - لو وضعت لي وسادة وجلست عليها لحكمت لأهل التوراة بتوراتهم ولأهل الإنجيل بإنجيلهم ولأهل القرآن بقرآنهم، وهذه مرتبة لا تحصل بمجرد التعلم الإنساني[1].

بقي هنا شيء آخر هو أن خبر الواحد وتقليد المجتهد قد يفيدان الظن والاعتقاد الجازم فهل هما سببان من أسباب العلم؟

الجواب:

أنهما ليسا من أسباب العلم لأن العلم الحاصل بهما قابل للزوال والمراد بالعلم هنا ما لا يقبل الزوال[2].

---

(١) القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي، ص١١٧.

(٢) شرح النسفية، ص٣٤.

الفصل الثاني

الإلهيات

ويتضمن:

١- حدوث العالم.

٢- وجود الله تعالى.

٣- صفاته تعالى وتنزيهه عن الحوادث.

٤- مبحث الكلام.

٥- جواز رؤية الله تعالى.

٦- أفعال العباد بين الجبر والاختيار.

٧- القضاء والقدر.

٨- عدم تكليف الله خلقه بالمحال.

٩- خلق الله المسببات عند الأسباب لا بها.

١٠- الأجل واحد.

١١- الحرام رزق الله.

١٢- لا يجب عليه تعالى فعل الأصلح.

ص: والعَالَمُ بجميعِ أجْزَائِه مُحْدَثٌ؛ إذْ هُوَ أعْيانَ وأعْرَاض. فالأَعْيانُ مالهُ قِيامٌ بذاتــه وهُوَ إمّا مركَبُ وهو الجِسْمُ، أوْ غَيْرُ مُركّبِ كالجَوْهَرِ وَهُوْ الجُزْء الّــذِي لاَ يَتَجَــزّأُ. والعَرَضُ: ما لا يقُوْمُ بذاتهِ ويَحْدُثُ في الأجْسامِ والجَــواهِرِ – كـــالألْوانِ والأكْــوانِ والطُعُوْمِ والرَوَائحِ.

حدوث العالم

ش: المفردات

العالم: بفتح اللام: لغةً لكل ما يعلم به الشيء مشتق من العلم كالخاتم اسم لما يختم به.

العالم: ما سوى الله من الموجودات كعالم الإنسان، وعالم النبات، وعــالم الحيــوان، وغيرها، ويسمى بذلك لكونه علامة على وجود صانعه.

جميع أجزائه: من السموات وما فيها والأرض وما عليها وكذا بقية الأفلاك.

محدث: اسم مفعول من أحدث أي مخرج من العدم إلى الوجود.

إذ: معناها التعليل.

الأعيان: العين ماله تحيز بنفسه غير تابع لتحيز[١]. شيء آخر.

الأعراض: العرض ما تحيزه تابع لتحيز محله وموضعه أي انتقاله تابع لانتقال العين القائم بها.

الجسم: هو ما تركب من جزئين فصاعدا على رأي، أو ثلاثة فــصاعدا علــى رأي آخر.

الجوهر: هو ما لا يقبل الانقسام لا فعلاً ولا وهماً ولا فرضاً.

الألوان: أصول الألوان البياض، والسواد، والحمرة، والخضرة، والــصفرة، وبقيــة الألوان تحصل نتيجة تركيب لونين أو أكثر مما تقدم.

---

(١) التحيز أخذ قدر من الفراغ الموهوم.

الأكوان: الاجتماع أو الافتراق، والحركة، والسكون.

والطعوم: وأصولها تسعة المرارة، والحرافة، والملوحة، والحموضة، والقبض، والحلاوة، والعفوصة، والدسومة، والتفاهة، وتركب منها بقية الطعوم.

الروائح: أنواعها كثيرة وليس لها أسماء، إلا أنها توصف فيقال: رائحة طيبة، ورائحة كريهة، أو تضاف فيقال: رائحة الورد، ورائحة المسك.

الشرح الإجمالي:

خلافنا في هذه المسألة مع الفلاسفة:

نحن نقول بحدوث العالم، وحشر الأجسام، وننكر دوام حركة الأفلاك ونقول بجواز الخرق والالتآم على السموات.

والفلاسفة: يقولون بقدم العالم، وعدم حشر الأجسام، ويثبتون كثيراً من أصول الهندسة [١]. ليبنوا عليها دوام حركة الأفلاك لأن حركتها قديمة عندهم [٢]. حيث إن قوام حركتها مبني على ثبوت استدارتها فلا يكون لها مبدأ ولا نهاية ويمنعون الخرق والالتآم على السموات.

وإثبات حدوث العالم يتوقف على إثبات حدوث الأعيان والأعراض المتركب منها.

وإثبات حدوث الأعيان يستوجب البحث عن إثبات الجوهر، وعن تركيب الجسم ونذكر ذلك في مبحثين.

---

(١) لأن كثيرا من أصولها مبني على ثبوت الكم المتصل المتوقف على ثبوت الهيولي.

(٢) من أصول الهندسة أيضاً أن كل خط يمكن تتصنيفه فلو تركب من الأجزاء لزم تتصيف الجزء في الخط المؤلف من الأجزاء الوتر.

ونحن نقول أن كل خط يتجزأ ولا يلزم منه أن كل خط يتصنف.

المبحث الأول

فـــي إثبـــات الجوهـــر الفـــرد

١- أثبت الفلاسفة الهيولي [١].

وهي لفظ يوناني معناه الأصل والمادة. وأثبتوا لها القدم أي قـالوا: إن مـادة الأجسام قديمة مع الله تعالى إلا أن قدم الله متقدم عليها تقدم العلة على المعلول، حيث قالوا: (إنها أصل العالم وهي قديمة والعالم صورتها وخلوها عن الصورة غير ممكن كما لا يمكن انفكاك الصورة عنها فهي قديمة بزعمهم وبحسب الأعـراض الحادثـة يكون التغير فيها) [٢].

دليل قدمها عندهم:

قالوا: (لو لم تكن الهيولي قديمة لكانت حادثة، فتحتاج إلى مادة لأن كل حادث مسبوق بمادة عندهم فيلزم التسلسل وهو محال. فثبت قدم مادة الأجسام التـي يتـألف منها العالم والمتألف من القديم قديم).

٢- وأثبت أهل الحق وجود الجوهر الفرد.

وهو الجزء الذي لا يتجزأ ليمكنهم إثبات مبدأ للعالم تتـألف منـه الأجـسام المتألف منها العالم - أي أنه بالإمكان تجزئ هذه الأجسام حتى تنتهي إلى جـزء لا يقبل الانقسام فينقطع التسلسل فينقطع المحذور منه.

وهذا الجزء حادث حيث ثبت تحيزه، وكل متحيز حادث، والحادث مستند إلى محدث وفاعل بالاختيار.

---

(١) تلاحظ أقسامها في شرح رمضان.

(٢) نثر اللآلي، ص٢٧٤ - ٢٧٥.

واستدلوا على إثبات الجوهر الفرد بما يأتي:

١- لو وضعت كرة حقيقية على سطح حقيقي لم تماسه إلا بجزء غير منقسم إذ لو ماسته بجزئين لكان فيها خط فلم تكن كرة حقيقية على سطح حقيقي.

٢- لا بد لكل عين أن تنقسم إلى جزء يكون نهاية إذ لو بقي ينقسم لا إلى نهاية – كما تدعون – لم تكن الخردلة أصغر من الجبل؛ لأن كلا منهما منقسم إلى ما لا نهاية، والعظم والصغر إنما هو بكثرة الأجزاء وقلتها وذلك لا يتصور إلا في المتناهي.

وإذا ثبت وجود الجوهر الفرد ينتفي ما أثبتوا من وجود الهيولي والصورة وبانتفائهما ينهدم ما قرروه وهو:

١- قولهم بقدم مادة الكون لأنهم بنوا منع حدوثه على دليل التسلسل وبوجود هذا الجوهر ينقطع التسلسل.

٢- قولهم بعدم حشر الأجساد؛ لأن الجسم إذا كان قديماً فإنه لا يفنى؛ فالميت بعد موته باقٍ عندهم إلا أن صورته تغيرت بحسب الأعراض الحادثة. وبإثبات الجوهر يثبت قبول التجزؤ الموصل إلى الفناء.

٣- قولهم بامتناع الخرق والالتآم للسموات لأنهما يستلزمان كون العالم متناهياً وقابلاً للتجزيء وحيث قد ثبت التجزؤ فلا مانع من خرق والتآم السماوات.

وجميع ما قالوه أمور تهدف إلى نفي الفائدة من وجود الوعد والوعيد وإتيان الأنبياء لعدم فناء العالم، ويؤدي أيضاً إلى تكذيب الرسل والأنبياء.

المبحث الثاني

في تحديد الجسم

اختلف في تركيبه

فذهبت الأشاعرة إلى أنه ما تركب من جوهرين.

وقالت الفلاسفة: هو ما له إبعاد ثلاثة طول، وعرض، وعمق؛ ذلك لأن الأصل هو الجزء الذي لا يتجزأ وأطلقوا عليه لفظ (النقطة) فإذا تركبت معها أخرى حدث طول فيسمى (خطاً) [1]. فإذا تركب معه من الجانب الآخر خط آخر سمي (سطحاً) [2]. ثم إذا تركب معه من أسفله أو أعلاه مثل ذلك حصل عمق فيسمى (جسماً) [3].

ومن هذا يفهم أن الجسم ينتهي إلى السطح والسطح ينتهي إلى الخط، والخط ينتهي إلى الجوهر.

وهذا التركيب يدل على حدوث الجسم ومع ذلك فإنه متحيز، والمتحيز حادث. وبعد هذا نقول:

تبين لنا أن الأعيان إما مركبة وهي الأجسام، وإما غير مركبة كالجوهر[4]. وكل منهما متحيز. وكل متحيز حادث لملازمة الأعراض له؛ لأنها تابعة لتحيزه والأعراض حادثة بدليل مشاهدة تغيرها كالحركة بعد السكون، والضوء بعد الظلمة والسواد بعد البياض وهكذا. وملازم الحادث حادث.

---

(١) بهذا الشكل ______

(٢) بهذا الشكل =====

(٣) بهذا الشكل

(٤) قلنا كالجوهر ولم نقل الجوهر لأن غير المركب لا ينحصر بالجوهر بل يشمل النفوس المجردة، والعقول، وهذا على رأي الفلاسفة، أما المتكلمون فإنهم لا يقولون بالنفوس المجردة، ويعتبرون غير المركب هو الجوهر فقط.

وإذا ثبت حدوث الأعيان والأعراض المؤلف منها العالم ثبت أنه حادث؛ لأن ما أُلِّفَ من الحادث فهو حادث.

وجميع ما تقدم هو الدليل العقلي على حدوث العالم.

أما النقلي[1].

فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[2].

فابتداء الشيء يدل على حدوثه.

ومن السنة: قوله ﷺ: (كَانَ الله ولمْ يكنْ شيء غَيْرهُ وكانَ عرشُهُ على الماء وكَتبَ في الذكرِ كُلَّ شيءٍ. وخلقَ السَموات والأرضَ) [3].

---

(١) الدليل النقلي يقوم حجة على من يؤمن بالكتاب والسنة ولا يقوم حجة على منكرهما فنذكر الأدلة النقلية ليستفيد منها المؤمن بها فقط.

(٢) سورة الروم: آية ٢٧.

(٣) رواه البخاري، ١٢٩/٤ والمراد بالذكر هنا اللوح المحفوظ.

ص: والمُحدِثُ لِلعَالَمِ هُوَ اللهُ تَعَالى

وجود الله تعالى

ش: المفردات

المحدث: اسم فاعل من أحدث أي موجد له من العدم إلى الوجود.

الله: الذات الواجبة الوجود عن ذاته ولا يحتاج إلى شيء آخر لإيجاده.

الشرح الإجمالي:

لما ثبت لدينا أن العالم حادث، فلا بد له من محدث، ويجب أن يكون هذا المحدث موجوداً وأن يكون وجوده واجباً لا ممكناً، وهذا يقتضي منا أن ندلل على شيئين:

١- وجود المحدث للعالم.

٢- وجوب وجوده لا جوازه.

برهان وجوده تعالى:

الأدلة العقلية [١]. نذكر منها أربعة:

١- ثبت أن هذا العالم حادث وممكن، والممكن يستوي وجوده وعدمه بدون رجحان لأحدهما على الآخر ككفتي الميزان، ونحن نراه قد وجد فعلاً، فلا بد من مرجح لوجوده على عدمه، وإلا لزم؛ إما ترجيحه بدون مرجح، أو ترجحه هو لنفسه.

أما الأول – فمحال؛ لأن التساوي والترجيح بدون مرجح ضدان والضدان لا يجتمعان. وأما الثاني – فباطل أيضاً لأنه يلزم كون الموجِد للمرجَح – بفتح الجيم – هو نفسه ولا بد للموجِد – بكسر الجيم – من أن يسبق الموجَد – بفتحها – فيلزم تقدم

(١) استدل إعرابي جاهلي على وجود الخالق بقوله: (البعرة تدل على البعير والأثر على المسير. فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج إلا يدلان على السميع البصير).

٩الشيء على نفسه وهو باطل، وكذا يلزم منه توقف الشيء على نفسه فيلزم الدور الباطل.

٢- برهان التسلسل:

لا بد أن تنتهي هذه الممكنات إلى نهاية، وإلا يلزم التسلسل الباطل – وهذا ما يسمى (برهان التسلسل).

وذلك لأنه لو تسلسلت سلسلة الوجود لا إلى نهاية لاحتاجت إلى علة مستقلة غير محتاجة إلى علة قبلها لإيجادها، وتلك العلة المستقلة لا بد أن تكون غير الممكنات حيث لا يجوز أن تكون نفس الممكنات فلو كانت نفسها أو بعضها لزم تقدم الشيء على نفسه أو بعضه وهو محال.

٣- برهان التطبيق:

وهو برهان يثبت وجود نهاية أولية لهذه الممكنات أي تنتهي إلى نهاية ليست منه.

وكيفية ذلك: أن تأخذ جملة متسلسلة من الممكنات غير متناهية وتمسك عليها من المعلول الأخير الذي ليس علة لغيره، ثم نأخذ جملة أخرى متسلسلة من الممكنات وهي أيضاً من قبل المعلول الأخير مخالفة للأولى بواحدة من الحلقات [(١)].

ثم بعد ذلك نسحب السلسلة الناقصة فنساويها بالمعلول الأول وبعد هذا يلزم أحد أمرين.

---

(١) بهذا الشكل

المعلول الأخير الذي لم يكن عله لغيره

الجملة الأول من الممكنات

لا إلى نهاية ....

لا إلى نهاية ....

الجملة الثانية من الممكنات

إما أن تقابل كل حلقة من السلسلة الثانية حلقة من الأولى أو لا تقابل، فإذا قابلت يلزم أن تكون السلسلة الناقصة بقدر السلسلة الزائدة لأن المفروض في كلتيهما عدم التناهي من الطرف الثاني ومساواة الناقص بالزائد محال.

إذن لا بد من التناهي حتى يتبين نقصان السلسلة الناقصة في آخرها لدى نهاية السلسلتين.

وإن لم تتقابل لزم أن يوجد في الأولى ما لا يوجد بازائها في الثانية لكونها ناقصة وعند ذلك يلزم أن تنقطع الثانية عن الأولى وتتناهى.

وبتناهيها يلزم تناهي الأولى أيضاً؛ لأنا فرضنا أنها لا تزيد على الثانية إلا بقدر متناه وهي الحلقة الواحدة والزائد على المتناهي بقدر متناه أيضاً، إذن لا بد من أن تتناهى الممكنات إلى موجد لها ليس ممكناً مثلها وإلا يلزم التسلسل أو الدور المحالان.

٤- إتقان الكون ونظامه

إن وجود هذا الكون بهذا النظام الرتيب وهذا التوازن المحكم إذ لو وجد صدفةً أو تلقائياً أو طبيعةً لما انتظم بهذا الشكل ولاختل توازنه وحركته، ولو كان سيره طبيعةً لامكن أن نشاهد سفينة أو سيارة تسير بدون موجه وقائد وبشكل متزن ورتيب كما يسير الكون من أول وجوده إلى الآن وهذا لم يحصل، فلا بد من وجود مسير أو موجه.

ثانياً: الدليل النقلي

أ- من الكتاب:

وردت آيات كثيرة تدل على وجود الله تعالى منها قوله تعـالى: ﴿ إِنَّ فِـي خَلْـقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ ﴾ (1).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ الله ﴾(2).

ب- من السنة: وردت أحاديث منها:

قوله ﷺ في حديث جبريل حينما سأل النبي ﷺ بقوله: مـا الإيمـان؟ قـال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث وتؤمن بالقدر كله) رواه مسلم (3).

ومنها ما رواه أنس ﷺ قال: جاءِ رَجلٌ مِنْ أهلِ البَاديةِ فقال: يا محمـدُ أتانـا رَسُولُكَ فزَعمَ لنَا أنكَ تَزْعُمُ أنَّ الله أَرْسَلَكَ قال: فَمَنْ خَلَقَ السَّماءَ؟

قال: الله قال: فمنْ خلقَ الأرضَ؟ قالَ: الله، قالَ فمنْ نَصبَ هذهِ الجبَال وجعل فيها ما جعل؟ قال: الله رواه مسلم أهـ (4).

الطبيعيون أو الوجوديون:

ينكر هؤلاء وجود الخالق جل شأنه ويدعون أن الأشياء أوجـدتها الطبيعـة لأنهم لا يؤمنون إلا بما تدركه الحواس من الماديات.

ويمكن محاجتهم بما يأتي:

---

(1) سورة آل عمران: آية ١٩٠.

(2) سورة لقمان: آية ٢٥.

(3) مسلم على شرح النووي، ١١/١٦٥.

(4) المرجع السابق نفسه، ١١/١٧٠.

بالصفات الآتية:

١- إن الطبيعة لا بد أن تكون موصوفة لإيجاد هذه الكائنات

أ. أن تكون قادرة إذ الطبيعة إذا كانت عاجزة لا يسعها أن توجد الحوادث التي لا شك أن من بينها ما يتمتع بالقوة إذ؛ يمتنع على العاجز أن يوجد قادراً.

ب. أن تكون عالمة: إذ لا يمكن للجاهل أن يوجد عالماً لو يوجد شيئاً يجهله.

ج. أن تكون حية إذ الميت لا يمكنه أن يخلق الأحياء، وهكذا بقية الصفات التي يجب حصولها في الخالق.

فإذا اعترفوا بأن الطبيعة موصوفة بهذه الصفات فنقول هي الإلــه ونـسميه (الله) لا الطبيعة.

٢- أن ادعاءهم بأنهم لا يؤمنون إلا بالماديات المشاهدة أو المحسوسة غير مسلم فيه؛ إذ لو كان ذلك صحيحاً لما آمنوا بجاذبية الأرض وبوجود قوة وشحنة كهربائيـة على أسلاك الكهرباء، ولما آمنوا ببعض الجراثيم التي يخبرهم بها الطبيب وهم لا يرونها ولم تدرك بالمجهر؛ وكذا وجود العقل مع كل إنسان؛ إذ أن هذه الأمــور مما يؤمنون بوجودها إيماناً تاماً وهي من غير المحسوسات، وهناك الكثير مــن الموجودات نؤمن بوجودها وهي غير محسوسة بل المحسوس آثارها فيجــب أن يكون الإيمان بوجود الله من هذا القبيل.

٣- لو كان الأمر كما قالوا بالإيمان بالماديات فقط لما ساغ لأحدهم أن يتألم من السب والشتم أكثر من ضربة السوط إذ الأول معنوي والثاني مـــادي، فـــالمفروض أن يتألموا من ضربة السوط فقط لا من السب واللعن ما داموا يعترفــون بالماديــات فقط.

ثم إنهم يؤمنون أن مُوجِدَ الكائنات الطبيعةُ، والطبيعة شيء معنوي ليس مادياً يدرك بالحواس فكما يؤمنون بوجودها وهي غير محسوسة ينبغي أن يؤمنوا بوجــود الخالق ولو لم يدرك بالحواس.

برهان كون وجوده واجباً لا جائزاً

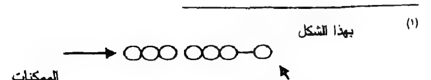
الله موجود، والموجود إما أن يكون وجوده واجباً أو جائزاً فلو لم يكن وجود الله واجباً لكان جائزاً. ولو كان جائزاً لكان من جملة هذا العالم الذي ثبت لنا جواز وجوده.

وإذا كان من جملة العالم لا يصح أن يكون محدثاً له لأنه هو المبدئ – بكسر الدال – له، والمبدِئ لا بد أن يكون قبل المبدَأ – بفتح الدال – وعلى هذا لا يصح أن يكون المبدِئ نفس المُبدَأ لأنه يلزم وجود الشيء قبل نفسه، وأن يكون الشيء علة لنفسه وهما محالان.

وكذا لا يصح أن يكون بعضه لأن بعض الشيء لا يتقدم على كله؛ لأن البعض المتقدم أصبح علة للكل الذي من جملته هذا البعض وعندئذ يلزم كون الشيء علة لنفسه[1]. وبالتالي فلا بد أن يكون موجد العالم واجبَ الوجود لا جائزه.

---

(١) بهذا الشكل



فالحلقة الكبيرة نفرضها الموجد للممكنات وهي متقدمة على كل الحلقات الباقية فإن كانت الكبيرة هي الموجدة للممكنات – وهي نفس الممكنات – يلزم باعتبارها موجودة أن تتقدم على الموجود الذي هو نفسها. وإن قلنا بعض الممكنات أيضاً يلزم أن تتقدم هذا البعض على نفسه لأنه يعد مع المجموع.

الوحدانية

ش: المفردات

الواحد: غير المتعدد اسم فاعل مشتق من الوحدانية والواحد أصل تنتهي إليه المتعددات.

الشرح الإجمالي:

لا بد من أن يكون محدث العالم واحداً في ذاته وفي صفاته، وفي أفعاله.

١- وحدانية الذات:

أي أن محدث العالم ليس مركباً من اجزاء أو أعضاء؛ لأنها من خواص الحوادث.

٢- وحدانية الصفات:

أي أن محدث العالم ليس له قدرتان فأكثر، ولا إرادتان فأكثر، أو علمان فأكثر. وليس لأحد صفة كصفاته أو قدرة كقدرته، أو إرادة كإرادته وهكذا.

٣- وحدانية الأفعال:

أي ليس معه آله آخر في إحداث العالم ولم يكن له ولد ولا زوجة خلافاً للثانوية القائلين بوجود آلهين[1]. أحدهما خالق الخير وهو (يزدان) والثاني خالق الشر وهو (أهرمن) بمعنى إبليس.

وقيل الأول النور. والثاني الظلمة[2].

---

(١) حاشية الباجوري على السنوسية، ص١٨.

(٢) شرح رمضان، ص٩٣، وقد ذكر الدليل التالي على تعدد الآلهة: بأن الفاعل الواحد يمتنع أن يكون خيراً وشراً بالذات، لأن ذاته إن اقتضى الخير ينبغي أن لا يكون شريراً وإن اقتضى الشر ينبغي أن لا يكون

وخلافاً لبعض النصارى القائلين بأنه ثالث ثلاثة معبراً عنها بالاقانيم الثلاثة وهي:

ذات، وعلم، وحياة. و بعضهم يقول: إنه أب – وهو الله سبحانه، وابن وهو عيسى، وأم وهي مريم.

وخلافاً (للطبيعيين) القائلين بأنه زحل، والمشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر[1].

أدلة الوحدانية

١- من المعقول

الدليل المشهور والذي يسميه علماء الكلام برهان التمانع أي التخالف والتنازع.

وهو أن محدث العالم إله واحد؛ إذ لو كانا ألهين لما وجد شيء من الممكنات. وتوضيحه:

أنه لو أمكن وجود ألهين لما وجد شيء من العالم؛ لأنهما إما أن يتفقا على فعل الممكن أو يختلفا، فمثلاً إيجاد (خالد).

إن اتفقا على إيجاده. فإما أن يوجداه معاً فيلزم اجتماع مؤثرين على شيء واحد، واشتراكهما في إيجاده دليل على عدم إمكان قيام أحدهما بإيجاده مستقلاً فهما عاجزان ولا يصلح أن يكون العاجز إلها.

خيراً. ولأن الخير إن قدر على دفع الشرير ولم يفعل لم يكن خيراً لأن الرضى بالشر شر. وإن لم يقدر عجز والعاجز منحط عن درجة الالوهية ويمكن أن يجاب عنه:

بأن يقال لا نسلم أن الفاعل الواحد إذا فعل خيراً وشراً يلزم أن يكون خيراً وشراً بالذات، لأن الشر بالنسبة إلينا، أما بالنسبة إلى الله تعالى فكله خير ومصلحة.

(١) نثر اللآلي، ص١٢.

وإما أن يوجداه مرتباً بأن يوجده أحدهما ثم يوجدَه الآخر فعند ذلك يلزم تحصيل الحاصل، وإما أن يوجد أحدهما البعض والآخر البعض الآخر فيلزم عجزهما حينئذ. لأنه لما تعلقت قدرة أحدهما بالبعض سد على الآخر طريق تعلق قدرته فلا يقدر على مخالفته وهذا عجز.

وهذا الفرض يصلح أن يتصور على كل واحد منهما فيلزم من ذلك كونهما عاجزين.

وإن اختلفا في وجوده، وعدمه بأن أراد أحدهما إيجاده، والآخر عدمه، فإما أن تقع الإرادتان – وهذا محال – لأنه يلزم اجتماع الضدين، وإما أن ينفذ أحدهما إرادته دون الآخر فيلزم عجز من لم تنفذ إرادته وعجز من نفذت أيضاً لأنه مماثل له. ومماثل العاجز عاجز.

ثم إن هذه الكائنات لا بد أن تنتهي إلى واحد فقط إذ أن أصل المعدودات الواحد لا المتعدد.

٢- من المنقول:

أ- من الكتاب:

قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ۝ الله الصَّمَدُ ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ الله مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (٤).

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٢٢.

(٢) سورة الأنبياء: آية ١٠٨.

(٣) سورة الأخلاص: آية١ و ٢.

(٤) سورة المؤمنون: آية٩١.

ب- من السنة:

كان الكثير من كلام النبي ﷺ يدل على ثبوت الوحدانية منها ما روى مسلم عن جابر في حجة النبي ﷺ فقال: (فَأَهَلَّ بالتَوْحِيدِ... لَبَيكَ اللّهُمَّ لَبَّيك، لبَّيْكَ لاَ شَـريكَ لَكَ لَبَّيْكَ....الخ).

ويذكر في نفس الحديث أنه حينما رقى على الصفا واستقبل البيت فوحدَّ الله وكبّر وقال: (لا إلهَ إلاّ اللهَ وحدهُ لا شريكَ لهُ، لهُ المُلكُ، ولهُ الحمدُ، وهَو علـى كـلّ شيءٍ قديرٌ، لا إلهَ إلاّ اللهَ وحدهُ، صَدَقَ وعدَهُ، وَأنجزَ وعدهُ، ونـصرَ عبـدهُ، وهـزمَ الأحزابَ وحدهُ) [1].

---

(1) مسلم على النووي، ٨١/١٧٤ - ١٧٧.

ص: القَدِيْمُ

قِدَمُ اللهِ تعالى

ش: المفردات

القديم: ضد الحادث وهو الذي لم يسبق بالعدم اسم فاعل مشتق من القدم.

الشرح الإجمالي:

أي إن محدث العالم قديم لا أول له ولا بداية فليس كالحوادث.

والدليل على ذلك:

الواقع أن أدلة وجود المحدث للعالم تكفي لإثبات قدمه، ما دمنا أنا قد أثبتنا فيها أن العالم لا بد أن ينتهي إلى موجد مخالف له ليس هو ولا جزؤه. حيث لا ثالث بين الحادث والقديم، ومع ذلك فإنّا نسوق أدلة أخرى تثبت هذه الصفة له تعالى.

أ- **العقلي**

أن الأمر يدور بين كونه قديماً أو حادثاً ولا ثالث فإن لم نقل بأنه قديم يلزم كونه حادثاً.

والحادث يحتاج إلى محدث. وهذا المحدث يحتاج إلى محدث وهو يحتاج إلى محدث وهكذا.

فإما أن يتسلسل[1]. إلى غير نهاية كالآتي:

حادث – يحتاج إلى محدث – يحتاج إلى محدث وهكذا إلى غير نهاية، والتسلسل إلى غير نهاية محال عند جميع العقلاء.

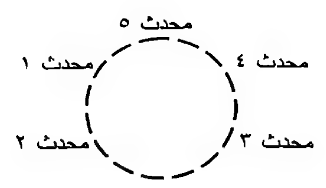
وأما أن يدور[2].

---

(١) التسلسل ترتب أمور وتعاقبها في جانب الأزل لا نهاية لها / الحصون الحميدية، ص١٦.

(٢) الدور توقف شيء على شيء يوقف عليه / حاشية الباجوري على السنوسية، ص٣٥.

وذلك على الشكل التالي:



وذلك بأن يستمر وجود المحدثين حتى تنتهي إلى أن آخر محدث رقم (٥) قد أحدثه الحادث الأول فيكون الأول حادثاً ومحدثاً بوقت واحد فيكون وجوده متوقفاً على نفسه.

٢- من النقل

أ- من الكتاب: قوله تعالى: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [١].

ب- من السنة: قوله ﷺ (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء) [٢].

---

[١] سورة الحديد: آية٣.

[٢] مسلم، ٧٨/٨ - ٧٩.

ص: الحيُّ، القَادرُ، العَليمُ، السَميعُ، البَصيرُ، الشَائي، المُرِيدُ.

الصفات المعنوية

ش: المفردات

الحيُّ: المتصف بالحياة، وضدها الموت.

وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى لولاها لما صح اتصافه ببقية الصفات.

القادر: المتصف بالقدرة – وهي القوة، وضدها العجز.

وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يوجد فيها الحوادث ويعدمها. وتعليقها بالممكنات فقط [1].

العليم: المتصف بالعلم وهو الإحاطة بالمعلوم، وضده الجهل وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ينكشف له بها جميع الأشياء من الواجبات، والجائزات، والمستحيلات، وهي تتعلق بهذه الثلاثة [2].

السميع: أي المتصف بالسمع، وضده الصمم.

وهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ليست بواسطة صماخ وأذن. تنكشف بها المسموعات.

البصير: أي المتصف بالبصر، وضده العمى.

وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ليست بواسطة مقلة ولا حدقة. تنكشف بها المبصرات ويتعلق السمع والبصر بالموجودات [3].

الشائي المريد: لفظان مترادفان – أي المتصف بالإرادة، وضدها الإكراه والغفلة.

---

(١) إذ لو تعلقت بالواجب لامكن إعدامه – وهو محال – ولو تعلقت بالمستحيل لامكن إيجاده وهو محال أيضاً.

(٢) لأن الله تعالى يعلم الواجب وهو نفسه وصفاته. ويعلم بالمستحيل كعدم وجود شريك له كما يعلم بالممكنات.

(٣) فالله تعالى لا يرى المعدوم. ويرى الموجود واجباً أو ممكناً ولا يرى المستحيل لأنه غير موجود.

وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يخصص بها كل جائز ببعض ما يجوز عليه، وتعلقها بالممكنات كالقدرة.

الشرح الإجمالي:

إن خالق العالم بهذا النظام المحكم الرتيب وبهذا الشكل البديع والعمل المتقن لا بد له أن يتصف بهذه الصفات.

والدليل على ثبوتها له

أولاً: بصورة عامة

لو لم تثبت له هذه الصفات لثبتت له اضدادها. وهي الموت، والعجز، والجهل، والصم، والعمى، والإكراه، وإذا ثبتت هذه الأضداد يلزم إما عدم وجود هذا الكون المشاهد، أو وجوده مع حصول الخلل بنظامه وحركة أفلاكه وتوازنه.

والواقع على خلاف هذين الفرضين

ثم إن الإله يجب أن يتصف بصفات الكمال – وهذه الأضداد صفات نقصان – فلو اتصف بها لزم اتصافه بالنقصان وذلك محال.

ثانياً: أدلتها بصورة خاصة

١- الحياة

أ- عقلاً

أنه لو كان ميتاً لما صح اتصافه بصفاته السابقة والتي قام الدليل على وجوب اتصافه بها. فالميت لا قدرة له ولا ارادة، ولا علم، ولا غيرها، ثم إنه من المحال أن يكون ميتاً ويخلق مخلوقاً حيا.

ب- نقلاً

من الكتاب قوله تعالى: ﴿ اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [١].

---

[١] سورة البقرة: آية ٢٥٥.

ومن السنة:

ما رواه زيد بن ثابت قال: شكوت إلى رسول الله ﷺ أرقا أصابني فقال: (قل اللهم غارت النجوم وهدأت العيون وأنت حي قيوم لا تأخذك سنة ولا نوم يـا حـي أهدئ ليلي وأنم عيني) [1].

٢- دليل القدرة

أ- عقلاً

إيجاده سبحانه لهذا العالم وما أحتوى عليه من الأنواع ذات العظمة والغرابـة من عالم الحيوان، وعالم النبات، وعالم المعادن ذات الأصناف. والتي تعجز العقول. وتغرق في عجائبها الأفهام، فمن المستحيل أن يكون الموجد والخالق لها فاقداً للقدرة؛ لأن العاجز لا يستطيع أن يقوم بنفسه فكيف يقوم به غيـره ولا يتـصور أن نـرى مخلوقات ذات قدرة أوجدها خالق خال منها.

ب- نقلاً

من الكتاب قوله تعالى:﴿ أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعاً ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3].

ومن السنة:

من دعوات النبي ﷺ : (اللهم إني أسألك من خير ما سالك منه نبيـك محمـد ونعوذ بك من شر ما استعاذك منه نبيك محمد ﷺ وأنت المستعان وعليك الـبلاغ ولا حول ولا قوة إلا بالله) [4]. رواه الترمذي وقال حديث حسن.

---

(١) الأذكار للنووي، ص١٢٤.

(٢) سورة البقرة: آية ١٦٥.

(٣) سورة الملك: آية ١.

(٤) انظر رياض الصالحين، ص٥٢٩.

٣- دليل العلم

أ- عقلاً

دليله هو نفس دليل القدرة حيث لا يمكن أن يوجد هذا الكون من لا معرفة له بتكوينه وترتيبه أو دقة صنعته؛ لأن الجاهل بالشيء يستحيل عليه خلقه فالذي يجهل النجارة لا يستطيع أن يعمل الكرسي مثلاً والذي يجهل الحدادة لا يستطيع أن يعمل الفأس مثلاً.

ب- نقلاً

من الكتاب قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [١].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾ [٢].

وقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [٣].

ومن السنة:

ما رواه أبو بكر الصديق ﷺ قال: يا رسول الله مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: (قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه) [٤]. رواه ابو داود الترمذي.

٤- دليل السمع والبصر:

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٥٥.

(٢) سورة الأنعام: آية ٥٩.

(٣) سورة الأنعام: آية ٣.

(٤) انظر رياض الصالحين، ص٥١٨.

أ- **عقلاً**

لو لم يتصف بهما لزم اتصافه بضدهما وهما الصم والعمى. وهما نقص في حق الخالق إذ لا يتصور أن الأصم أو الأعمى يوجد هذا الكون المشتمل على أنواع من الأصوات والمبصرات.

وليس من المعقول أن يوجد نوعاً من المخلوقات سميعاً وهو فاقد للسمع أو بصيراً وهو فاقد للبصر.

ب- **نقلاً**

من الكتاب قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [١].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ﴾ [٢].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [٣].

وقوله تعالى: ﴿ يأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ﴾ [٤].

فاستنكار سيدنا إبراهيم على أبيه عبادة ما لا يسمع ولا يبصر دليل على وجوب اتصاف المعبود بهما.

ومن السنة:

قوله ﷺ : (ما منْ عبدٍ يقولُ في صباحِ كلّ يوم ومساءِ كلّ ليلةٍ بسم الله الذي لا يضرُ مع أسمه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ وهو السميعُ العليمُ ثلاث مرات إلا لمْ يُضَرُ شيءٌ) [٥]. رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

---

(١) سورة الشورى: آية ١١.

(٢) سورة الزخرف: آية ٨٠.

(٣) سورة طه: آية ٤٦.

(٤) سورة مريم: آية ٤٢.

(٥) رياض الصالحين، ص٥١٦.

٥- دليل الإرادة

أ- عقلاً

لو لم تجب له الإرادة لما كان هذا العالم حادثاً لأنه إن لم يوجد بالإرادة يكون وجوده بطريق العلية والضرورة بدون اختيار.

وإذا كان كذلك لزم كونه قديماً. لأنه يصبح معلولاً لعلة وهي الله ومعلول القديم قديم لأنه تابع لعلته لا يتأخر عنها. وقد ثبت أن العالم حادث وجد بعد أن لم يكن موجوداً والله تعالى موجود قبل الكون ثم وجد الكون بإرادته واختياره.

ب- نقلاً

من الكتاب:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ الله بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[3]. وهكذا.

ومن السنة:

قوله ﷺ : (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ويلهمه رشده)[4]. فكلام النبي ﷺ يدل على أن لله إرادة لأنه قال: من يرد الله به خيرا...

---

(١) سورة الأسراء: آية ١٦.

(٢) سورة الحج: آية ١٤.

(٣) سورة البقرة: آية ١٨٥.

(٤) السراج المنير على الجامع الصغير، ٣/ ٣٥٤.

ص: لَيْسَ بعَرَضٍ، ولا جِسْمٍ، ولا جَوْهَرٍ، ولا مُصَوَّرٍ، ولا مَحْدُودٍ، ولا مَعْـدُودٍ، ولا مُتَبَعِّضٍ، ولا مُتَجَزِّي، ولا مُتَرَكِبٍ، ولا مُتَنَاهٍ، ولا يُوصَفُ بالماهِيَّةِ ولا بالكَيْفِيَّةِ.

المخالفة للحوادث

ش: المفردات

تقدم معنى العرض والجسم والجوهر فلا نعيده هنا.

ولا مصور: أي ليس بذي صورة وشكل كصورة الإنسان أو غيره من المخلوقات.

ولا محدود: أي ليس بذي حد ونهاية.

ولا معدود: أي ليس محلاً للكميات المتصلة، كالمساحات الأرضـيـة، ولا الكميـات المنفصلة كالأشياء المتفرقة المعدودة.

ولا متبعض: أي لا ينحل إلى أقسام أو ابعاض.

ولا متجزء: أي لا ينحل إلى الأجزاء التي ركب منها[1].

ولا متركب: أي من الأجزاء كالجسم.

ولا متناه: أي ليس له أطراف ونهاية. كالمساحات والأعداد.

ولا يوصف بالماهية: أي لا يقال عليه (ما هو) لأن معناه من أي الأجناس هو؟ ومن أي شيء تركبت ذاته.

ولا بالكيفية: أي لا يقال لونه كذا وطعمه كذا، وحرارته كذا وبرودته كـذا... إلـى آخره.

الشرح الإجمالي:

بعد أن عرفت فيما مضى معنى الجسم والجوهر والعرض. وعرفت معنـى الحادث والقديم وبعد أن ثبت أن الأعراض حادثة وكل ما تحل به فهو حادث، وثبـت

---

(1) الفرق بين المتبعض والمتجزء هو إذا لوحظ أنه انحل إلى الأجزاء التي تركب منها سـمي متجـزاً، وإن لوحظ تركيبه منها سمي متبعضاً، ١٠هـ / ١٠٧ رمضان.

أن الله قديم وجب أن ينفى عنه تعالى كل ما هو من لـوازم الحـوادث فهـو لـيس بعرض؛ لأن العرض لا يقوم بذاته بل يحتاج إلى محل يقوم به فلو كان الله عرضـاً لاحتاج إلى مكان يقوم به وبالتالي يكون ممكناً متغيراً – لأن العرض لا يبقى – ولو كان عرضاً لاحتاج إلى غيره. وقد ثبت أن وجوده تعالى واجب وأنه مـستغن عـن غيره.

وليس هو (جوهراً)؛ لأن الجوهر وإن كان مفرداً إلا أنه متحيز والتحيز مـن خصائص الممكنات، والله تعالى ليس ممكناً، ثم إنه جزء للجسم والجسم حادث فجزء الحادث حادث.

وهكذا بقية الأوصاف فإنها من لوازم الحوادث وخصائصه فهي لا تخلو مـن أن تدل إما على الاحتياج وإما على التجدد والتحديد بحدود الأجسام.

ص: ولا يَتَمَكّنُ في مَكان

ش: المفردات

التمكين: نفوذ بعد في بعد آخر – أي امتداد جسم في بعد محدد.

التحيز: مجرد أخذ قدر من الفراغ الموهوم حصل الامتداد أم لا.

الشرح الإجمالي:

أن محدث العالم قديم ويستحيل عليه عقلاً أن يكون حادثاً مثله فلا يتصف بأي صفة يوصف بها الحادث، ومن جملة ما يتصف به الحادث تمكنه في مكان من الأمكنة، أو تحيزه بقدر من الفراغ، أو يكون في جهة من الجهات. والله تعالى منزه عن ذلك لأنها أمارات للحدوث والإمكان.

الخلاف مع (الكرامية) [1].

ذهبت الكرامية والمشبهة إلى أن الله تعالى مستقر على العرش متمكن منه متصل به كاتصال الأمير الجالس على السرير. زاعمين أنه (جسم) متصف بالصورة.

وزعم بعضهم أنه تعالى على العرش غير متمكن منه ولا متصل به وأن له جهة وهي (الفوقية).

---

(1) فرقة منسوبة إلى زعيمها المعروف (محمد بن كرام السجستاني) – مكانها بخراسان – لهم عقائد زائفة تخالف ما عليه أهل السنة والجماعة منها تجسيم المعبود وجعل له نهاية وحدود، ومنها اعتقادهم أن معبودهم محل للحوادث ومنهم من يحيل انعدام أجسام العالم.

ومنها أن الله لو اقتصر على إرسال واحد من أول زمان التكليف إلى يوم القيامة ودام شرعه لم يكن حليماً وغير ذلك من العقائد الباطلة.

انظر الفرق بين الفرق، ص٢١٥.

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [1]. بمعنى استقر وتمكن.

ويجاب عن هذا بما يأتي:

١- ثبت لدينا أن الله تعالى قديم، وأن العالم حادث. وأن العرش جزء من هذا العالم فلو استقر على العرش كان (حالاً) في الحادث، والحالّ في الحادث حادث مثله والله تعالى قديم.

٢- كان الله تعالى موجوداً قبل العرش فلو كان الله مستقراً عليه لكان محتاجاً إليه. والعرش إما أن يكون قديماً مثله فيلزم تعدد القدماء (وهو باطل).

وإما أن يكون حادثاً والمحتاج إلى الحادث حادث مثله، ثم إن وجوده محتاج إلى الله تعالى فلو كان الله محتاجاً إليه لزم الدور وتوقف الشيء على نفسه وهو محال.

٣- أن الباري متعر عن المكان في الأزل قبل حدوث العرش وغيره من الأمكنة فلو تمكن الله تعالى عليه بعد حدوثه لزم تغير الباري من التعري إلى التمكن منه. والتغير من صفات الحدوث والإمكان، والباري منزه عنها.

٤- أنه لو كان متمكناً في المكان فإما أن يساوي المكان أو ينقص عنه وعلى كلا الفرضين يلزم أن يكون (متناهياً) وهو باطل لأنه من خواص المقادير والأعداد الملازمين للأجسام.

وإما أن يكون أزيد من المكان. فيلزم تجزئته؛ لأنه يكون جزء منه في المكان، وجزء خارجه وهو محال عليه تعالى [2].

أما استدلالهم بالآية فلا يقوم حجة لهم لما يأتي:

إذ قد ورد الاستواء لخمسة معان في اللغة العربية وهي:

---

(١) سورة طه: آية ٥.

(٢) انظر شرح رمضان، ص١٠٨.

١- بمعنى استقر وتمكن. مثل قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾[1]. أي اسـتقرت وتمكنت عليه.

٢- بمعنى انتهى. مثل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾[2]. وهذا لا شاهد فيه فـي هذا الموضع.

٣- بمعنى التمام. مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ﴾[3]. أي تم عقله وكمل.

٤- بمعنى الاستيلاء والغلبة. مثل:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق[4].

٥- بمعنى ملك. مثل: (استوى فلان على العرش) بمعنى ملك وإن لم يقعد عليه البتة وهو رأي الزمخشري[5].

وما دام اللفظ يحتمل الأوجه السابقة فلا يصح الاحتجاج به وتخصيصه بمعنى خاص منها (لأن الدليل إذا تطرقه الاحتمال بطل به الاستدلال).

رأي علماء المسلمين في الآيات والأحاديث الدالة على التجسيم

وردت آيات وأحاديث قد يفهم منها ثبوت الاستقرار لله تعالى في المكان. مثل آية الاستواء السابقة. ومثل قوله تعالى: ﴿ أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾[6].

---

(١) سورة هود: آية ٤٤.
(٢) سورة فصلت: آية ١١.
(٣) سورة القصص: آية ١٤.
(٤) شرح رمضان، ص١٠٨.
(٥) تفسير الرازي، ١٥٥/٢٦.
(٦) سورة الملك: آية ١٦.

ومثل الآيات الدالة على ثبوت اليد، والعين، ومثل الأحاديث الدالة على القبضة والإصبع والوجه واليمين لله تعالى أو الدالة على نزوله تعالى إلى السماء. أو على القرب والبعد له تعالى [١].

وهي كلها لا يمكن حملها على ظواهرها – كما فسرها المجسمة – إذ يلزم من ذلك ثبوت الجسم له تعالى وقد ثبت أنه محال. ولهذا فقد ذهب علماء المسلمين فيها مذهبين:

---

[١] مثل: ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾ .
ومثل قوله ﷺ في بعض الأحاديث: (ينزل ربكم إلى السماء الدنيا) وما إلى ذلك.
ومثل قوله تعالى: " من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، ومن أتاني مشيا أتيت إليه هرولة ".

المذهب الأول

مذهـــب التفويــض

وهو مذهب (السلف)[1].

حيث قالوا: إن ما جاء في الكتاب والسنة من هذا القبيل نؤمن به أنه كلام الله وكلام رسوله ولا نخوض في تفسيره فأمسكوا عن التأويل وقالوا: الله أعلم بما يعني بذلك مع اعتقادهم بنفي التشبيه والتجسيم.

ولذلك أجاب الإمام مالك بن أنس حينما سُئلَ عن معنـــى الاســتواء فقــال: (الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب)[2].

المذهب الثاني

مذهب التأويل

وهو مذهب (الخلف).

بعد أن اتسعت رقعة الإسلام ودخل فيه كثير من الشعوب المتأثرين بــالآراء الفلسفية. والعقائد الفارسية التي تؤمن بحلول الإله وتجسده دعى ذلك إلى إثارة هــذه الشبهات بالنسبة لله تعالى. مستندين في ذلك إلى ما يؤيدهم من اللغة العربيــة ومــن ظواهر النصوص الدالة على ذلك.

اضطر الخلف إلى تأويل الألفاظ الواردة والدالة علــى التجــسيم والحلــول وحملها على معانيها المجازية وبحسب لياقتها مع مقام الباري جل شأنه ما دامت اللغة

---

(1) ومنهم الإمام أبو حنيفة والإمام مالك والإمام أحمد والإمام الشافعي ومحمد بن الحسن وســعيد بــن معــاذ المروزي وعبد الله بن المبارك وأبو معاذ خالد بن سليمان صاحب سفيان الثوري وإســحاق بــن راهويــه ومحمد بن إسماعيل البخاري والترمذي وأبو داود السجستاني، من تفسير الآلوسي، ١٦/١٥٦.

(2) الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي، ص٢٦.

تحتمل ذلك؛ لأن الكتاب والسنة يشتملان على المعاني المجازية كما يشتملان على المعاني الحقيقية [1].

فأولوا الاستواء في الآية السابقة بالاستيلاء والاقتدار [2]. لأنهم قالوا لا يمكن حمله على المعنى الأول – وهو الاستقرار والتمكن – لما تقدم ذكره في الرد على المجسمة والمشبهة.

ولا يمكن حمله على المعنى الثاني لأنه فيه قد عدي (بالى) والآية التي نحن بصددها عدي (بعلى) الدالة على الفوقية.

ولا على المعنى الثالث، لخلوه من (على)؛ ولأن الله تعالى لا يلحقه التمام باستوائه على العرش لأنه كامل.

ولا على رأي الزمخشري.

لأن هذا يفتح باب التأويلات الباطنية. ثم إن تأويله بمعنى الملك والسلطان يتنافى مع قوله تعالى: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [3].

لأنه يصبح المعنى ويحمل ملكه وسلطانه ثمانية والواقع خلاف ذلك [4].

إذن... فلا بد من حمله على معنى الاستيلاء والاقتدار بخاصة وإن سياق الكلام يدل على ذلك لأنه سيق للمدح، والمدح يكون بالشيء الخاص بالممدوح فإذا قلت (الرَّحْمنُ على العَرْشِ اسْتَوَى) بمعنى استولى وغلب ناسب المدح. أما إذا كان بمعنى استقر فأنه لا يحصل فيه الامتداح لاشتراك الوضيع والرفيع فيه [5].

---

(1) وقد جاء في القرآن الكثير من المجاز مثل قوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ وقوله: ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ ومثل: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ومثل: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ ومثل: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾ وهكذا.

(2) تفسير الألوسي، ١٦/١٥٥.

(3) سورة الحاقة: آية ١٧.

(4) نثر اللآلي، ص٤١.

(5) رمضان، ص١٠٨.

وقالوا: العين تطلق على الباصرة حقيقة وتستعمل في الرعاية والعناية مجازاً [1].

وقالو: اليد تطلق على ذات الذراع والأصابع حقيقية وتستعمل في القوة والملك مجازاً.

وقالوا: النزول يطلق على النزول الجسمي وتستعمل في نزول الأمر أو الملَك مجازاً.

ويستعمل بمعنى التواضع والتلطف فيقال (نزل فلان) أي تواضع. وعلى هذا الأساس أولوا قوله تعالى:﴿ يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[2]. بقوته وسيطرته وقوله: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾[3]. بحفظنا ورعايتنا، وهكذا.

أما القول بأن السلف لم يأولوا ونسب إليهم أنهم قالوا: إن الله استوى على العرش استواء يليق به. ولا يراد به الاستيلاء.

وقالوا أن المراد بالعين، واليد، يد تليق به وعين تليق به، وهكذا فإني أرى أن هذا القول فيه نوع من التأويل، والسلف لم يأولوا بذلك مطلقاً.

ونسبة القول المتقدم إليهم قول بإثبات اليد والعين له تعالى إلا أنهم قالوا يد وعين مخالفة للحوادث.

وكذا قولهم بالاستواء استقرار يليق به، والحق أن السلف سلموا وآمنوا بالآيات والأحاديث الدالة على ذلك ولم يخوضوا في أي تفسير أو تأويل لها.

والمتجهون إلى مذهب السلف يردون على الخلف المؤولين بما يأتي:

---

(١) يقال جعلت عين فلان على كذا أي رعايته. ويده على هذه الدار إذا ملكها أو حق له التصرف به ويسمى صاحب اليد، وإذا وضعت شيئاً عند أعمى تقول له: عينك عليه أبي رعايتان.

(٢) سورة الفتح: آية ١٠.

(٣) سورة القمر: آية ١٤.

١- قالوا لو كان المراد – بيد الله – قوته لكان لله قوى متعددة في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ [١]. وفي قوله: ﴿ أن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [٢]. فلو كان المراد بذلك القوة لصار المراد بنيناها بقوانا وخلقتك بقدرتي والله تعالى ليس له إلا قدرة واحدة.

ويجاب عن ذلك:

أن تثنية الشيء وجمعه قد لا يراد به تعدد الأفراد بل ليكون فيه نوع من المبالغة في القوة لأن ما تفعله اليدان أو الأيدي أقوى وامتن مما تفعله اليد الواحدة. وعلى هذا الأساس صار المجاز أبلغ من الحقيقة.

٢- قالوا: إن لله يدا وعينا وفماً واستقراراً ليست مماثلة للمخلوقات كما له قدرة وإرادة وعلم ليست كعلم وإرادة المخلوقات فهي صفات لله تعالى، فالاشتراك في الاسم لا يلزم معه الاشتراك في الحقيقة والكيفية.

ويمكن الإجابة عن ذلك

أن القدرة والعلم وبقية الصفات أمور معنوية لا تشير إلى معنى جسمي فلا مانع من إطلاق لفظهما على الخالق كما تطلق على الخلق لأنه لا يتبادر إلى الذهن ثبوت الجسم لدى إطلاقها عليه تعالى.

بخلاف وصفه باليد والعين ونحوهما مما يشير إلى الجسمية والعضوية فإنها حينما تطلق يتبادر إلى الذهن ثبوت الجسمية له تعالى فلا بد من صرفها عن الحقيقة إلى المجاز.

وادعاء أنها صفات مخالف للمفهوم اللغوي إذ هذه أسماء للذوات وليست أسماء صفات؛ إذ الصفة ما دل على حدث مع ذات كاسم الفاعل والمفعول ونحوهما.

---

(١) سورة الذاريات: آية ٤٧.

(٢) سورة ص:/ آية ٧٥.

وسميت هذه الصفات الخبرية لأن العقل لا يثبتها له تعالى ولكن اثبتها الخبر من آية أو حديث.

والأشعري حينما أولها لم ينكرها بل أولها من الذوات إلى الصفات.

منشأ الخلاف بين السلف والخلف:

نشأ الخلاف بين السلف والخلف في الآيات المتشابهة من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [١].

فمذهب السلف استند على أن الوقف عند قوله تعالى (إلا الله) وجعلو (والراسخون) استئناف جملة جديدة فأعربوها مبتدأ وجملة يقولون خبراً.

ومذهب الخلف اعتبر الوقف عند قوله (والراسخون) وجعلوا جملة يقولون حال من ضمير الجماعة في (الراسخون).

الرأي المختار:

الذي أرجحه وأرى الأخذ به هو ما يأتي:

١- أن رأي السلف هو الأسلم للعقيدة ما دام بإمكان الشخص التسليم بالنصوص الدال على المحلية والجسمية وما دام ذهنه لم ينصرف إلى التجسيم والتشبيه. ولا يتكلف التأويل شريطة أن لا يخوض في تفسير أو تأويل شيء منها ولا الأخذ بظاهرها.

٢- أما في معرض الدفاع عن حدوث الله ونفي الجسمية عنه ودفع الشبهة الموجه على العقيدة أو في حالة حصول من لا يؤمن بالنص بدون الخوض في معرف معناه فالذي أراه الأخذ بما أول به الخلف ما دامت اللغة العربية محتملة لذلك [٢].

---

(١) سورة آل عمران: آية ٧.

(٢) وإني أعجب ممن يوجه الملامة على الخلف في حين أنه يقر ما اتجه إليه الكتاب المعاصرون من تفسير الآيات القرآنية تفسيراً علمياً منسجماً مع النظريات العلمية التي يقولها المفكرون المعاصرون. وهم محقو بذلك لأن اعداء الإسلام حاولوا بكل جهدهم الطعن فيه وادعوا قصوره عن معالجة مشاكل الحياة واستيفا لمتطلباتها. فاضطروا لتفسير الآيات بهذا الاتجاه ما دام أن اللفظ يسمح فيه ولم يخالف قاعدة من القواع العامة للإسلام.

وهذه الأسباب هي التي دعت الخلف إلى التأويل مع اعتقادهم أن التفويض أسلم.

لذلك قيل: (طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أحكم).

ص: ولا يَجْري عليه زمانٌ، ولا يُشْبِهُهُ شيءٌ

ش: المفردات

ولا يجري: أي لا يتعين وجوده بزمان ولا يتغير بتغيره.

الزمان: متجدد يقدر به متجدد آخر. مثل حركة عقارب الساعة تقدر بها الثواني والدقائق والساعات.

ومثل طلوع الشمس يقدر به النهار، وغروبها يقدر به الليل.

ومثل اليوم والليلة يقدر بها الشهر، ومثل الشهر يقدر به السنة.

ومثل السنة يقدر بها العمر [1].

ولا يشبهه شيء: أي لا يماثله ولا يسد مسده شيء من الموجودات.

الشرح الإجمالي:

عرفنا معنى الزمان وعرفنا أنه متجدد يعرف به متجدد آخر. وقد ثبت لدينا أن الله تعالى ليس متجدداً بل هو قديم. والقديم لا يجوز أن يقارن الحادث. لأن مقارن الحادث حادث مثله.

ثم إنه تعالى كان في الأزل ولم يكن معه زمان ولم يحتج إليه فجدير به أن لا يحتاج إليه بعد خلقه؛ لأنه لو احتاجه لزم الدور؛ إذ يكون الله تعالى محتاجاً إلى الزمان، والزمان محتاجاً إلى الله.

والله تعالى لا يشبهه شيء؛ لأن المشابهة بين الشيئين إن كانت من جميع الوجوه تقتضي المساواة بينهما من جميع الوجوه، وإن كانت من وجه واحد تقتصر المساواة بينهما من ذلك الوجه.

(1) شرح رمضان، ص ١١٠.

فمشابهة الله تعالى للعالم إما أن تكون من جميع الوجوه فيلزم أن يكون العالم قديماً محدثاً من جميع الوجوه. وقد سبق أن حكمنا على العالم بالحدوث وعلى الصانع بالقدم.

وإن كانت من وجه دون وجه فتقتضي المساواة من وجهة فيلزم أن يكون العالم قديماً من وجه محدثاً من وجه آخر. وكذا الصانع ونحن نعلم أن المحدث من وجه أو من أوجه لا يليق أن يكون (إلها) [1].

وهذا هو الدليل العقلي على عدم مشابهته للحوادث.

أما النقلي: فمثل قوله تعالى:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [2].

---

(1) نثر اللآلي، ص٥٥.

(2) سورة الشورى: آية ١١.

ص: ولا يَخْرُجُ عن عِلْمِهِ وقُدرَتِهِ شَيءٌ

الشرح الإجمالي:

أولاً: العلم

أي أن الله سبحانه وتعالى يعلم جميع المعلومات جزئياتها وكلياتها ويقدر على كل شيء واحداً كان أو منفرداً أو متعدداً قوياً أو ضعيفاً.

وقالت الفلاسفة (أي فلاسفة المسلمين) [1].

أن الله يعلم بالكليات ولا يعلم بالجزئيات، مثلاً يعلم وجود زيد ولا يعلم بخروجه ودخوله وحركاته وسكناته.

واستدلوا على ذلك:

بقولهم لو كان عالماً بأن زيداً في الدار. عند كونه فيه فعند خروجه من الدار إن بقي علمه بكونه فيها يكون جهلاً لا علماً، وإن لم يبق علمه بذلك كان تغيراً والتغير على الله تعالى محال، فلا يكون عالماً بالجزئيات لكونها تتغير.

أما الكليات فلا تغير فيها. فلا يقع التغير في علم الباري.

وأجيب عن ذلك:

بأن العلم ليس حصول صورة مساوية للمعلوم مثبتة في نفس العالم تتغير ذاته بتغير الصورة المادية بل هو تعلق العالم بالمعلوم.

والتغير في التعلق لا يستلزم التغير في الذات ولا التغير في الصفات الحقيقية.

مثال ذلك:

---

(١) كالفارابي وابن سينا وابن رشد.

لو علقت مرآة صقيلة صافية في موضع. وقوبلت إلى جهة ثم مر أمامها إنسان يلبس ملابساً بيضاء فإنه يظهر فيها الأبيض، ثم إذا مر عليها آخر يلبس سوداء يظهر فيها الأسود وآخر يلبس ملابساً حمراء فأنه يظهر الأحمر... وهكذا فهل يقع في الذهن أن المرآة قد تغيرت أو تغير شيء من صفاتها واستدارتها أو تغير مكانها؟.

الجواب: لا... وهكذا العلم لا يتغير بتغير متعلقاته.

وقالت الدهرية [1].

إن الله تعالى لا يعلم ذاته. ويقولون: إن العلم نسبة والنسبة لا تكون إلا بين المنتسبين. ونسبة الشيء إلى نفسه محال.

والجواب

ليس العلم نسبة بل هو صفة ذات ونسبة الصفة إلى الذات ممكنة [2].

وما تقدم هو الدليل العقلي.

أما الدليل النقلي فمثل قوله تعالى: ﴿ وَالله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [3].

ثانياً: عدم خروج شيء عن قدرته

قالت الفلاسفة الواحد لا يصدر عنه إلا واحد؛ لأنه لو قدر على أكثر من واحد لزم أن لا يكون الباري واحداً؛ لأن حيثية صدور أحد الأمرين غير حيثية صدور الأمر الآخر. فلا يكون واحداً من جميع الوجوه.

والجواب عن ذلك

أنَّا نقول: أيضاً يلزم على هذا أن لا يصدر الواحد عن الواحد؛ لأنه لو صدر عن الواحد واحد يكون مصدراً مغايراً له تعالى فلا يكون الواحد واحداً من جميع الوجوه، والواقع أنه واحد من جميع الوجوه.

---

(1) الدهرية يثبتون وجود الله تعالى ولكنهم ينسبون الحوادث إلى الدهر.

(2) رمضان، ص١١٧.

(3) سورة الحجرات: آية ١٦.

وقال النظام

إنه تعالى لا يقدر على خلق الجهل والقبح؛ لأنه لو قدر على ذلك لزم أن يكون جاهلاً وقبيحاً؛ لأن خالق الجهل جاهل وخالق القبح قبيح.

والجواب

أنا لا نسلم ذلك بل الجاهل هو المتصف بالجهل لا الخالق له حيث لا يلزم من خلقه الشيء اتصافه به.

وقال البلخي

إنه تعالى لا يقدر على مثل مقدور العبد... كالصوم والصلاة.

واستدل على ذلك

بأنه لو قدر مثل مقدور العبد لزم أن يكون العبد مماثلاً له تعالى. وقد ثبت أنه لا يماثله شيء من الموجودات.

والجواب:

أنه لا يلزم من ذلك أن يكون العبد مماثلاً له تعالى في القدرة؛ لأن قدرة الله تعالى أزلية قديمة دائمة. وقدرة العبد حادثة زائلة غير دائمة. فلا يكون مماثلاً له تعالى [1].

وما تقدم هو الدليل العقلي.

أما النقلي فقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [2].

---

[1] شرح رمضان، ص ١١٨.

[2] سورة الملك: آية ١.

ص: ولَهُ صفاتٌ أزليَّة قائِمَةُ بذاتِه تعَالَى. وهِيَ لا هُوَ ولا غيْرُهُ.

ش: المفردات

أزلية: اسم منسوب إلى الأزل – وهو القدم.

قائمة بذاته: لأن الصفة معنى يقوم بالموصوف.

لا هو: أي ليست الصفة عين الذات.

ولا غيره: أي ليست غير الذات.

الشرح الإجمالي

اشتمل هذا النص على ثلاث مسائل:

إحداها: هل لله تعالى صفات؟

وثانيها: هل هي قديمة أو حديثة؟

وثالثها: هل هي قائمة به أو بغيره؟

أولاً: إثبات صفات الله تعالى – والخلاف مع المعتزلة والفلاسفة.

ذهبت المعتزلة إلى إنكار الصفات المعاني لله تعالى، إلا أنهم أطلقوا عليه تعالى كونه قادراً بدون قدرة. ومريداً بدون إرادة. وعالماً بدون علم. وهكذا. وأطلقوا هذا الإطلاق باعتبار تعلق الذات بالممكنات لا باعتبارها صفات لها. فإذا تعلقت ذاته بالمقدور سمي قادراً وإن تعلقت بالمعلومات سمي عالماً وهكذا.

واستدلوا على ذلك:

أن الصفات إن ثبتت له تعالى لزم كونها قديمة. وإذا ثبت قدمها لزم تعدد القدماء وتعددهم محال. وهكذا[1].

---

(1) شرح رمضان، ص١٢٠.

ويجاب عن ذلك بما يأتي:

١- أن المحال تعدد ذوات قديمة بذواتها، أما تعدد الصفات لذات واحدة فغير محال. كذات خالد هي واحدة وتتصف بصفات متعددة فهي وحدة ذات مع تعدد الصفات.

ثم إن قدمها لا لذاتها بل لكونها صفات للقديم، والمحال تعدد القدماء لذاتهم فهي ممكنة الوجود وصارت واجبة الوجود لغيرها[1].

٢- أن الصفات قائمة بغيرها وليست قائمة بنفسها. فلو كانت هي ذات الله تعالى لاصبح الإله غير قائم بذاته. وذلك محال.

٣- من المستحيل أن يطلق مشتق على ذات لم يقم بها معنى ذلك الاشتقاق فلا يقال ذابح إلا أن يقع منه الذبح، ولا شارب إلا أن يقع منه الشرب. ولا قادر إلا أن تكون له قدرة.

وذهب الفلاسفة

إلى عدم ثبوت الصفات له تعالى وإلى عدم إطلاقها عليه.

واستدلوا على ذلك:

بأن ما يمكن إطلاقه على الخلق لا يطلق على الله تعالى لعدم المماثلة بينهما ولكون ألفاظ الصفات تطلق على الخلق فلا يمكن إطلاقها عليه تعالى.

ويجاب عن ذلك:

أنه لا مانع من إطلاق لفظ على شيء باعتبار ويطلق على آخر باعتبار آخر. فالقدرة من الخالق ليست كالقدرة من الخلق وإن اشتركا في الإطلاق.

فالله تعالى ذات وله صفات. وقد نطق القرآن الكريم والسنة النبوية بإثبات الصفات له تعالى في كثير من الآيات.

---

(١) المرجع السابق نفسه، ص١٢٤.

ثانياً: صفات الله تعالى أزلية معه – الخلاف مع الكرامية.

زعمت الكرامية

أن له تعالى صفات إلا أنها حادثة. وليست قديمة معه.

واستدلوا على ذلك:

بأنه متكلم سميع بصير اتفاقاً. ولا يتصور وجود هذه الصفات إلا بوجود المخاطب والمسموع[1]. والمبصر وهي حوادث فيجب حدوث تلك الصفات أيضاً.

ويجاب عن ذلك بما يأتي:

١- أنه لا يتعلق وجودها على وجود المخاطب والمسموع والمبصر. بل يجوز أن توجد قبل ذلك. وتكون مهيئة للإبصار، والتكلم، والاستماع وهكذا.

٢- أنها حينما تتعلق بالموجود المحدث يحصل تجدد في تعلقها دون أنفسها.

٣- يلزم من حدوثها حدوث الباري جل شأنه لكونها قائمة بذاته تعالى والقائم به الحادث يكون حادثاً مثله.

ثالثاً: قيام الصفات بالذات – الخلاف مع المعتزلة.

المعتزلة: وإن قالوا: إن الصفات هي نفس الذات إلا أنهم أنكروا قيام صفة الكلام بذات الإله وقالوا: هو قائم بغيره. كاللوح المحفوظ، أو كالملك، أو الرسول، أو الشجرة في مناجاة موسى عليه الصلاة والسلام.

ويجاب عن ذلك بما يأتي:

١- من الضروري استحالة اتصاف ذات بصفة لم تكن تلك الصفة قائمة بتلك الذات بل بذات أخرى. فإذا وقع الكلام من الشجرة مثلاً – كما تقولون – لا يسمى متكلماً بل الشجرة هي المتكلمة.

---

(1) شرح رمضان، ص١٢١.

٢- قد دلت الآيات على ثبوت الكلام له تعالى: كقوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ (١)، وقوله: ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٢)، وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (٣).

ففي كل ذلك إسناد الكلام إليه تعالى. والأصل في الإسناد حمله على الحقيقة.

تبين مما تقدم

أن الصفات هي عين الذات ونفسها عند الفلاسفة والمعتزلة. وأنها غيرها على رأي الكرامية والمعتزلة في صفة الكلام فقط.

ونحن نقول: أنها ليست عين ذاته تعالى ولا غيرها بل قائمة بها، أما إنها ليست عين الذات فلأنها لو كانت عينها لزم اتحاد الذات والوصف القائم بها. ولزم الترادف بين الاسم والوصف وهو محال(٤).

وأما أنها ليست غيرها:

فلأن الصفات لو كانت غيرها لكانت إما قائمة بنفسها أو قائمة بغيرها. أما قيامها بنفسها؛ فظاهر البطلان؛ لأن الصفة لا تقوم إلا بشيء موصوف.

وأما قيامها بغيرها:

فيلزم اتصاف ذلك الغير بها لا غيره. وليس هذا التعبير بغريب فإن يد خالد ليست هي ذاته ولا غيره أي لا يقال يد خالد هي نفس خالد. ولا يقال إنها غيره؛ لأنها جزؤه، وأن الواحد من العشرة ليس هو نفس العشرة ولا غيرها لأنه جزؤها.

---

(١) سورة النساء: آية ١٦٤.

(٢) سورة البقرة: آية ١٧٤.

(٣) سورة الشورى: آية ٥١.

(٤) انظر شرح رمضان، ص١٢٢.

ص: وَهِيَ العِلْمُ، والقُدْرَةُ، والحَيَاةُ، والقُوةُ، والسَمْعُ، والبَصَرُ، والإرادَة، والمَشِيئَةُ، والفِعْلُ، والتَخْلِيقُ، والتَرْزِيقُ، والكَلاَم.

الصفات المعاني

ش: **المفردات**

العلم: صفة أزلية تنكشف بها المعلومات عند تعلقها بها.

القدرة: صفة أزلية تؤثر في المقدورات عند تعليقها بها.

الحياة: صفة أزلية تصحح بقية الصفات لموصوفها.

القوة: هي نفس القدرة.

السمع: صفة أزلية تتعلق بالمسموعات.

البصر: صفة أزلية تتعلق بالمبصرات.

الإرادة: صفة أزلية توجب تخصص أحد المقدورين – من الفعل والترك في أحد الأوقات بالوقوع.

المشيئة: هي نفس الإرادة.

الفعل والتخليق: هما والإيجاد والإحداث والاختراع أسماء مترادفة بمعنى إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود.

الترزيق: هو منح الأرزاق لمن له حياة.

الكلام: صفة أزلية عبر عنها بالنظم العربي المسمى بالقرآن وبالنظم السرياني – وهو الزبور – وبالنظم اليوناني وهو الإنجيل. وبالنظم العبراني وهو التوارة.

ويسمى هذا بالكلام النفسي – أي الذاتي – وهو الحقيقة في الكلام، أما اللفظي: فهو إفصاح وتعبير عما في النفس لذلك يقول الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا.

الشرح الإجمالي:

صفات الله تنقسم إلى أقسام باعتبارات مختلفة:

أولاً: إلى صفات ذات وصفات أفعال.

فصفات الذات هي التي يتصف بها ولا يتصف بضدها. مثل القدرة والإرادة والعلم ونحوها حيث لا يتصف بالعجز والإكراه والجهل.

وصفات الأفعال هي التي يتصف بها ويتصف بضدها، مثل: الإغناء والإفقار، والإحياء، والإماتة، والإعزاز، والإذلال.

ثانياً: إلى نفسية، وسلبية، وثبوتية.

فالنفسية: هي الوجود وسميت بذلك لأنها منسوبة إلى النفس لملازمتها لها.

السلبية: هي التي يسلب عنه أضدادها[1]. وهي خمسة: القدم، والوحدانية، والمخالفة للحوادث، والبقاء، والقيام بالنفس.

الثبوتية: ما تبقى من الصفات عدا الخمسة السابقة.

ثالثاً: إلى معاني ومعنوية.

فالمعاني: جمع معنى وهو الحدث – المصدر – وهي المذكورة في كلام المصنف آنف الذكر.

والمعنوية: منسوبة إلى المعاني وهي الملازمة لها لاشتقاقها منها مثل كونه تعالى قادراً ومريداً وعالماً...الخ، وبراهين ثبوتها له تعالى تقدمت سابقاً.

---

(١) نسبة إلى السلب وسميت هي دون البقية بهذا الاسم مع أن البقية أيضاً يسلب عنه أضدادها – لأنهم لدى ذكرهم إياها يذكرون معها أضدادها دون بقية الصفات فيقولون واحد لا مشارك له، قديم ليس بحادث. باقٍ لا يطرأ عليه العدم. وهكذا فهي ملازمة لسلب أضدادها.

ص: وَهُوَ مُتَكَلِّمٌ بِكَلامٍ هُوَ صِفَةٌ لَهُ أَزَلِيَّةٌ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الحُرُوفِ والأَصْوَاتِ، وَهُوَ صِفَةٌ مُنَافِيَةٌ للسُّكُوتِ والآفَةِ، والله تَعَالى مُتَكَلِّمٌ بِهَا آمِرٌ نَاهٍ مُخْبِرٌ.

مبحث الكلام

ش: المفردات

منافية: مخالفة.

للسكوت: ترك التكلم مع القدرة على الكلام.

الآفة: عدم مطاوعة الآلات فطرة كالأخرس أو لضعفه كالطفل.

متكلم بها: أي بصفة الكلام.

آمر: أي طالب لأفعال من المكلفين.

ناه: أي طالب لترك أفعال من المكلفين.

مخبر: عن حوادث الماضي والمستقبل.

الشرح الإجمالي:

إن الله سبحانه وتعالى متصف بصفة الكلام النفسي الذي هو ليس من جنس الحروف والأصوات بل أشبه ما يمثل بالكلام الذهني الموجود في ذهن الإنسان. وليس صفة قائمة بغيره كما يقول المعتزلة. إذ يستحيل أن توصف ذات - **كما قلنا** - بمشتق ولا يوجد فيها أصل اشتقاقه.

وإن كلامه أزلي لا كما قالت الكرامية: إنه حادث.

وليس حرفاً ولا صوتاً

ولا كما قالت الحنابلة: إنه من جنس الحروف والأصوات إلا أنه قديم[1].

فإن قيل السكوت والآفة من صفات الكلام اللفظي والله منزه عن اللفظ والحروف والأصوات لكونها حادثة فكيف يتصوران مع النفسي؟

الجواب:

إن الكلام النفسي له سكوت وآفة معنويان أيضاً لأن الكلام النفسي هو تدبير في النفس أولاً ثم التكلم به باللسان وذلك التدبر هو الكلام الباطني.

وهو مناف للسكوت الباطني الذي هو عدم التدبر، إما لعدم القدرة عليه وهو الآفة وإما مع القدرة عليه وهو السكوت[2].

وأما كونه آمراً ناهياً مخبراً بها:

فهذا التنوع لا يدل على تعدد هذه الصفة بل على أنها تكثر باختلاف المتعلقات كبقية الصفات فهي قديمة. والحدوث إنما هو في المتعلقات والإضافات. فمثلاً إن تعلقت بطلب فعل سميت (أمرا) وإن تعلقت بترك فعل سميت (نهيا) وإن تعلقت بالأخبار عن واقع بالماضي أو ما يقع في المستقبل سميت (خبرا).

---

(١) رمضان، ص١٣٦.

(٢) فإن قيل إذا كان كلام الله ليس صوتاً ولا حرفاً فكيف يسمع وكيف يصل إلى الملك وإلى قلب الرسول.

الجواب:

لا يشترط وجود الحرف والصوت لإيصال الكلام إلى قلب الرسول أو إلى الملك إذ يمكن أن يقع ذلك في عقل الملك وقلب الرسول بدون الحرف والصوت.

ولا غرابة بعد أن ظهرت الآلات الحديثة الناقلة للصوت فآلة التسجيل تنقل الصوت من مسجل إلى آخر مثله وينطبع الصوت بدون حرف ولا صوت؛ وآلة (الفاكس) توضع البرقية فيه في بلد وتوجد مطبوعة كاملة بنفس الكلمات في بلد آخر بدون حرف أو صوت وكذا العقل الالكتروني (الكمبيوتر).

ص: والقرآنُ كلام الله تعالى -- غيرُ مخلوقٍ.

وهو مكتوبٌ في مصاحفنا، محفوظٌ في قلوبنا مقروءٌ بألسنتنا، مسموعٌ بآذاننا، غيرُ حالٍّ فيها.

مبحث القول بخلق القرآن الكريم

ش: شرح المفردات

القرآن: علم على كلام الله المنزل على سيدنا محمد ﷺ المعجز.

مكتوب في مصاحفنا: بأشكال الكتابة وصور الحروف الدالة عليه.

غير حال فيها: أي ليس كلام الله حالاً في المصاحف أوفي القلوب أو الألسنة.

الشرح الإجمالي:

ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الكلام صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ليس بحادث ولا قائم بغيره.

وذهبت المعتزلة إلى إنكار ذلك. حيث لم يثبتوا له تعالى صفة الكلام، وقالوا: إنه متكلم بكلام يخلقه في غيره كما تقدم الخلاف في ذلك.

وعلى هذا الأساس:

نشأ خلاف بين الفرقتين في القرآن هل هو قديم أو مخلوق؟

وسميت هذه المسألة. مسألة خلق القرآن. وهي مسألة شهيرة في تاريخ المسلمين حصلت من أجلها فتنة عظيمة بينهم في عهد المأمون[1]. حيث قتل وعذب وسجن الكثير من أعلام المسلمين آنذاك ممن استنكروا على القائلين بخلق القرآن منهم الإمام

---

(1) تقدمت ترجمته في المقدمة في الأسباب الموجبة لوضع هذا العلم.

أحمد وغيره، وقد نجى الإمام الشافعي[١]. وذهب إلى مصر وظهر مذهبه الجديد هناك.

ومنشأ هذا الخلاف مبني على الخلاف في إثبات الكلام النفسي ونفيه فالمعتزلة تنفيه.

وأهل السنة والجماعة يثبتونه، لأنه ثبت بالكتاب وتواتر النقل عن الأنبياء، والإجماع أنه متكلم. ولا معنى لوصفه بذلك إلا لكونه متصفاً بالكلام إذ يمتنع - كما قلنا - أن يشتق لشيء وصف ولا يوجد فيه معنى ذلك الوصف. فالمتحرك مثلاً من قامت به الحركة لا من أوجدها. وإلا لزم وصفه تعالى بالسواد. والأكوان وبقية الأعراض لأنه موجد لها في غيره.

ثم إننا نثبت للشيء وجوداً في الأعيان ووجوداً في الأذهان ووجوداً في العبارة ووجوداً في الكتابة.

فمثلاً النار

وجودها العيني – وهو حقيقتها وجوهرها المحرق الخارجي.

وجودها الذهني – وهو انطباع صورتها في الذهن.

وجودها العباري – وهو التلفظ والنطق بكلمة (نار).

وجودها الكتابي – وهو نفس لفظ (ن ا ر).

فالوجود العيني هو الحقيقة وما بقي دال عليه وليس نفسه إذ لو كان نفسه لاحترق اللسان بالنطق بكلمة (نار) ولاحترق الورق عند كتابتها عليه[٢].

---

(١) يحكى أن الإمام الشافعي حينما أكره على القول بخلق القرآن أو القتل أشار إلى أصابع يده اليمنى الأربعة فقال عادا بها: التوراة والإنجيل والزبور والقران. هذه الأربع مخلوقة وورى عليهم بالإشارة فهو يعني الأصابع الأربعة وهم فهموا الكتب الأربعة فنجي من القتل ثم رحل إلى مصر.

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد، ص٥٨.

إذن فالثلاثة الأخيرة دالة على الأول وليس هي نفسه فالكتابة تدل على العبارة. والعبارة تدل على ما في الذهن. وما في الذهن يدل على ما في الأعيان.

والكلام أيضاً

له وجود عيني – وهو الأزلي القائم بذاته تعالى.

وله وجود ذهني – وهو المحفوظ في الذهن والخيال.

وله وجود عباري – وهو ما ينطق به القارئ حين القراءة.

وله وجود كتابي – وهو ما ينقش على صحائف المصاحف وغيرها.

ونحن نقول – إن الوجود الأول – وهو العيني هو صفته تعالى. وهو قديم وليس بمخلوق.

أما الثلاثة الأخرى فهي حادثة؛ لأن الثاني وجد في الذهن بعد أن كان الذهن خالياً منه. والنطق بالعبارة لا ينطق بحرف إلا بعد الانتهاء من الأول.

وكذلك الكتابة وكل ذلك من أمارات الحدوث، فالقرآن: إنْ عنينا به كلام الله تعالى فهو غير مخلوق. والقول بذلك كفر؛ لأنه صفة الله تعالى ويستحيل اتصافه بالحوادث.

وإن عنينا به ما يدل عليه من ملفوظ ومخطوط ومخيل في الذهن فهو حادث؛ لأنه يوصف بما هو من لوازم المخلوقات والحوادث.

فيقال: قرأت نصف القرآن – للعبارة.

ويقال: حفظت نصف القرآن – للذهني.

ويقال: يحرم على المحدث مس القرآن – للمخطوط.

وكل ذلك من لوازم الحدوث.

فاللفظي، والذهني، والكتابي ليس الخارجي واحداً منها، بل دال عليه كما قلنا في النار: إنه لو كان المنطوق بها هي الخارجية لاحترق اللسان.

أما المعتزلة:

فإنهم أنكروا الأول واعترفوا بالثلاثة فقط، فاضطروا إلى القول بخلق القرآن وحدوثه.

واستدلوا على ذلك:

بأن القرآن متصف بما هو من صفات المخلوق وسمات الحدوث من: التأليف، والتنظيم، والإنزال، والتنزيل، وكونه عربياً، مسموعاً، فصيحاً، معجزاً، إلى غير ذلك. ولما كان متصفاً بصفات المخلوقات صار مخلوقاً مثلها.

والجواب:

أن هذا اللفظ لا يرد علينا؛ لأنا نقول: إن هذه أوصاف للفظ الدال على كلام الله تعالى، واللفظ حادث ونقول به، بل يرد على الحنابلة القائلين بأن كلام الله تعالى حروف وأصوات وهو قديم.

وكلامنا هنا في النفسي – وهو القديم حقيقة.

واستدلوا أيضاً:

بقولهم: إن أهل السنة والجماعة متفقون على أن القرآن اسم لما نقل إلينا بين دفتي المصحف تواتراً. وهذا يستلزم كونه مكتوباً في المصاحف مقروءاً بالألسن مسموعاً بالآذان. وكل ذلك من سمات الحدوث بالضرورة. وإنكم تقولون: إنه من عند الله ولا تنفون ذلك. ثم التحدي والإعجاز به لا بالنفسي إذ لا معنى لمعارضة النفسي.

والجواب:

أن ما هو مكتوب في المصاحف ومقروء في الألسن ومسموع بالآذان دال على كلام الله الموجود في نفسه وليس هو نفسه ولا حالاً في الآذان والألسن والأذهان كما قلنا.

وإطلاق القرآن على هذه وعلى النفسي من إطلاق اللفظ المشترك على معانيه.

فإذا قلنا: القرآن كلام الله قديم فالمراد به النفسي الذي هو صفته تعالى. وإذا قلنا القرآن مخلوق فالمراد به الثلاثة الباقية إذ هو مخلوق الله تعالى ليس من تأليفات المخلوقين ويكون التحدي والإعجاز فيه.

وبعد هذا كله يمكننا أن نقول لا خلاف بيننا وبينهم فقولهم بخلق القرآن باعتبار الحروف والألفاظ [1]. وما في الذهن ونحن نقول به أيضاً، ولكنهم أنكروا النفسي الذي نقول به وبقدمه فلو قالوا به لقالوا بقدمه لأنهم لا يصفون الله بالحادث.

---

(1) لأنهم يعتقدون أن الله متكلم بكلام يخلقه في غيره في العرش أو اللسان أو المصحف أو غير ذلك.

ص: والتَكْوِينُ صِفَةٌ أزَلِيَّةٌ: وَهُوَ تَكْوِينُهُ لِلعالَمِ ولِكُلِّ جُزْء مِنْ أَجْزَائِهِ وَقْتَ وُجُودِهِ، وَهُوَ غَيْرُ المُكوِّنِ عِنْدَنَا.
والإرادَةُ: صِفَةٌ لله تَعَالى قائِمَةٌ بِذاتِهِ تَعَالى.

ش: المفردات

التكوين: مصدر كوَّن يكون تكويناً – هو إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود. ويعبر عنه بالفعل والتخليق والإيجاد والأحداث والاختراع.

المكوَّن: بفتح الواو هو العالم وأجزاؤه.

المكوِّن: بكسر الواو هو الخالق تعالى.

الشرح الإجمالي:

ذهب المحققون من الأشاعرة إلى أن التكوين صفة إضافية لا حقيقية أي هي ليست إلا القدرة والإرادة. فإنه إذا أوجد بهما شيئاً سميتا إيجاداً. وإذا رزق بهما سميتا أرزاقاً. وإذا أمات بهما سميتا إماتة. وهكذا.

أما الشيخ أبو منصور الماتريدي فيقول: إنها صفة حقيقية قديمة كالعلم والقدرة.

وذهب بعض الأشاعرة إلى أنها صفة حادثة.

واستدلوا على ذلك: بأنه لا يتصور وجودها بدون وجود المكوَّن – بفتح الواو – والمكوَّن حادث فلو كان التكوين قديماً لزم قدم المكوَّنات وهو محال.

والجواب على ذلك:

أننا لا نسلم قدم المكونات من قدم التكوين، لأن التكوين صفة أزلية وتعلقها بالمكونات حادث كسائر الصفات فلا يلزم من تعلقها بالحادث حدوثها.

فالقدرة مثلاً قديمة وتعلقها بالمقدور الممكن حادث ومع ذلك فلا يلزم من ذلك قدم المقدور. وهكذا. فهي صفة مهيئة لإيجاد المكوَّن من الأزل في الوقت المقدر لوجودها.

واستدل على قدمها بما يأتي:

١- أنه تعالى وصف ذاته بأنه الخالق فلو لم يكن في الأزل خالقاً لزم الكذب في خبره تعالى. أو العدول إلى المجاز – أي الخالق مستقبلاً – مع إمكان حمل اللفظ على الحقيقة وذلك لا يجوز.

٢- يمتنع قيام الحوادث بذاته تعالى.

٣- إن كان التكوين حادثاً فإما بتكوين آخر فيلزم التسلسل وهو محال، وإما بدونه فيستغني الحادث عن المحدث والأحداث وفيه تعطيل للصانع.

٤- أنه لو كان حادثاً لحدث إما في ذاته تعالى فيصير محلاً للحوادث. أو في غيره فيكون كل جسم مكوناً لنفسه وهو محال.

فعند الأشاعرة:

التكوين هو عين المكوَّن لا غيره ولذلك قالوا بحدوثه، وعند الماتريدية هو غيره. لأن المصدر غير اسم المفعول. فالضرب غير المضروب؛ لأن الأول معنى قائم بالضارب. والثاني أثر حاصل على الغير. فالتكوين صفة أزلية، والمكوَّن هو المخلوق حادث.

الإرادة:

صفة أزلية قائمة بذاته تعالى.

خلافاً للفلاسفة القائلين: إنه تعالى موجد بالذات لا فاعل بالإرادة.

وخلافاً للمعتزلة القائلين: إنه مريد بإرادة حادثة لا في محل.

وخلافاً للكرامية القائلين: إنه مريد بإرادة حادثة في ذاته.

يجاب عن الأول:

بأن الأدلة النقلية والعقلية جاءت مصرحة بثبوت الإرادة له تعالى. وعن الثاني والثالث بأنه يستحيل عليه تعالى أن يتصف بصفة حادثة لو يكون محلاً للحوادث.

ص: وَرُؤْيَةُ الله جَائِزَةٌ في العَقْلِ. وَوَاجِبَةٌ في النَقْلِ، وقَدْ وَرَدَ الدَّلِيلُ السَمْعِيّ بإيجابِ رُؤْيَةِ المُؤْمِنِينَ الله تَعَالى في دَارِ الآخِرةِ فَيُرَى لا في مَكَانٍ ولا على جهَةٍ مِن مُقَابِلَةٍ أو اتصالِ شُعَاعٍ أو ثُبُوتِ مَسَافَةٍ بَيْنَ الرائِيْ وَبَيْنَ الله تَعَالَى.

رؤية الله تعالى

ش: المفردات

الرؤية: معناها الانكشاف التام بالبصر وإثبات الشيء على ما هو عليه والفرق بين الانكشاف التام والناقص. كالفرق بين تصورك للشيء الذي غاب عنك بعد رؤيته. وبين ما أنت تنظر إليه فلا شك أن الثاني أتم انكشافاً من الأول.

جائزة في العقل: أي أن العقل لو ترك ونفسه لم يمنع رؤية الله تعالى في الدنيا ولا في الآخرة.

وواجبة في النقل: أي ثابتة وواقعة في الدليل السمعي من الكتاب والسنة.

فيرى لا في مكان: أي أن رؤيته تعالى ليست كما نرى الأجسام في مكان من الأمكنة.

ولا على جهة: أي لا نراه فوقاً ولا تحتاً ولا أماماً ولا خلفاً؛ لأن الجهة من لوازم الحوادث.

من مقابلة: أي ليس كما نرى أنفسنا في المرآة حين نقابلها.

أو اتصال شعاع: أي ليس على وجه تنطبع فيه صورة المرئي في الحدقة.

أو ثبوت مسافة: أي ليس كرؤية الأجسام حيث يتوقف رؤيتها على كونها في مكان ليس بغاية من البعد أو القرب.

الشرح الإجمالي:

الخلاف مع المعتزلة

يعتقد أهل السنة والجماعة جواز رؤية الله تعالى في البصر عقلاً ونقلاً وذهبت المعتزلة إلى أنها ممتنعة عقلاً ونقلاً.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

أولاً بالدليل العقلي قالوا:

إن الرؤية يشترط فيها كون المرئي في مكان وجهة ومقابلة من الرائي، وأن تكون بينه وبين الرائي مسافة متوسطة بين القرب والبعد ليشخص المرئي، وأن تسلط عدسة العين إليه لتكون صورته في الحدقة وهذا كله يستلزم كون الباري جل شأنه جسماً وقد تقدم استحالة كونه جسماً. فالرؤية مستحيلة لملازمتها المستحيل.

ثانياً بالدليل النقلي وهو:

١- **قوله تعالى حكاية عن موسى – عليه السلام –:** ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾[١].

وجه استدلالهم بها من وجهين:

أ- قالوا: إن (لن) لتأكيد نفي المستقبل وتأبيده. أي لن تراني أبداً، وهذا يدل على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة.

ب- أن الله علق جواز الرؤية على استقرار الجبل حين تحركه. وحيث الاستقرار وقت التحرك محال؛ لأنه جمع بين الضدين فالرؤية محالة؛ لأن تعلق الشيء على شيء ممتنع يدل على امتناع المعلق.

٢- **بقوله تعالى:** ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾ [٢].

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٤٣.

(٢) سورة الأنعام: آية ١٠٣.

وجه استدلالهم بها من وجهين:

أ- الإدراك المسند إلى الأبصار هنا بمعنى الرؤية أي لا تراه الأبصار.

ب- أن الألف واللام للاستغراق ولوجود النفي معه صار دالاً على عموم السلب أي لا تدركه جميع الأبصار.

٣- رد الله تعالى على المعاندين الذين يطلبون رؤية الله تعالى عياناً المقرون بالاستنكار والاستعظام.

فلو كانت رؤيته تعالى جائزة لما قرن الرد بذلك. مثل قول أصحاب موسى: ﴿لن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى الله جَهْرَةً ﴾[١].

واستدل أهل الحق بما يأتي:

أولاً: الدليل العقلي

وهو أننا حينما نرى الأجسام والأعراض نراها على أساس اتصافها بالوجود. فلو كانت معدومة لما أمكن رؤيتها؛ لأنه من المتفق عليه أن المعدوم لا يرى.

فالوجود أذن هو علة لصحة رؤية الشيء فكل موجود يصح رؤيته. ولا شك أن الله تعالى موجود فيصح أن يرى ولا يمكننا أن نمنع ذلك إلا إذا ثبت لنا أن الوجود علة لصحة رؤية الممكن فقط، أو أنه ممنوع من جانب الواجب وهذا لم يثبت فتبقى العلة على عمومها، فإن قالوا: الطعوم والروائح موجودة فلماذا لم تر؟ قلنا: أن عدم رؤيتها ليس ممتنعاً عقلاً بل لعدم خلق الله تعالى في العبد رؤيتها.

ثانياً: الدليل النقلي

أ- بقوله تعالى:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [٢].

(فناضرة) بالضاد من النضارة وهي الحسن (وناظرة) بالظاء بمعنى باصرة.

---

(١) سورة البقرة: آية ٥٥.

(٢) سورة القيامة: آية ٢٢ – ٢٣.

ب- وقوله تعالى في حق الكافرين: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[1].

فمفهوم المخالفة فيها يدل على أن المؤمنين ليسوا محجوبين عن رؤية الله تعالى

ج- بما روى البخاري من قوله ﷺ(إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر)[2].

مناقشة ادلة المعتزلة:

يجاب عن أدلتهم بما يأتي:

١- على الدليل العقلي بما يأتي:

أ- لا يلزم في رؤية المرئي أن تحقق فيه هذه الشروط؛ لأن الرؤية أعم من ذلك قد تستلزم هذه الشروط وقد لا تستلزم ولا يقاس الغائب بالشاهد؛ لأن رؤيتنا اليوم إنما هي كيفية من كيفيات عديدة للرؤية فإن الله تعالى قادر على أن يجعل في الإنسان قابلية الرؤية للشيء بدون هذه الشروط ثم إن النشأة الثانية يختلف فيها كثير من الأمور والأحوال. عن نشأتنا في هذه الحياة الدنيا.

فالأجسام يحصل بها اختلاف وكذا الطعوم والمشي والجلوس وغير ذلك فلا قاس الآخرة على الدنيا.

ب- لا يستغرب أن تكون الرؤية بدون الحدقة. فلا شك بأنه تعالى يرانا بدون حدقة عين فكذا يمكن أن نراه هكذا.

ج- الرؤية نوع كشف وعلم إلا أنها أوضح وأتم من العلم. والعلم لا يحتاج إلى كون المعلوم في جهة من العالم به. فإننا نعلمه تعالى الآن من غير كيفية وصورة فكذا يرى في الآخرة من غير كيفية وصورة وهكذا [3].

---

(١) سورة المطففين: آية ١٥.

(٢) البخاري ج٨ باب قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة.

(٣) إنظر هذا المعنى في الإحياء للغزالي، ٣١٤/٤، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٩م.

٢- ويجاب عن قول موسى: رب أرني انظر إليك.

بأننا نعد هذه الآية دليلاً على جواز رؤيته تعالى فإنها لو لم تكن جائز لما سأله موسى إياها. لأنها لو كانت ممتنعة لاصبح سؤاله إما جهلاً بما يجوز له تعالى وما لا يجوز، أو أن يكون عبثاً وسفهاً، والأنبياء معصومون عن كل ذلك.

وأما الإدعاء بأن لن لتأبيد النفي فغير مسلم وإلا فماذا يقولون بقوله تعالى: ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً ﴾ [1]. أي الموت مع أن القرآن قد ذكر تمنيهم الموت في الآخرة حينما يدخلون النار بقولهم: ﴿وَنَادَوْاْ يَمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[2]. وبقولهم: ﴿يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ [3].

وأما عن تعليق الرؤية باستقرار الجبل فإنه دليل على جواز الرؤية أيضاً؛ لأن الاستقرار أمر ممكن في ذاته وما علق على الممكن ممكن.

فالاستقرار حال التحرك ممكن بأن يقع السكون بدل الحركة، والممتنع اجتماعهما وهو لم يقصد من ظاهر الآية.

٣- وعن قوله تعالى: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ بما يأتي:

أ- أن الإدراك معناه الإحاطة بجوانب المرئي لا الرؤية فقط فالرؤية أعم من الإدراك والإدراك أخص ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم فانتفاء الإدراك لا يدل على انتفاء الرؤية فقد تحصل الرؤية بدون إحاطة للمرئي.

ب- وإن سلمنا أن الإدراك مرادف للرؤية وأن المراد هنا عموم السلب فلا نسلم أن في الآية دليلاً على عموم الأوقات والأحوال ليشمل رؤية الدنيا والآخرة وجميع الأحوال.

ثم إن تقدم النفي على الاستغراق يدل على أن المراد سلب العموم لا عموم السلب، وسلب العموم لا ينفي أصل الرؤية؛ لأنه إن دل على سلب الإدراك عن جميع

---

(١) سورة البقرة: آية ٩٥.

(٢) سورة الزخرف: آية ٧٧.

(٣) سورة الحاقة: آية ٢٧.

الأبصار فإنه لا يدل على سلبها عن بعضها كما هو شأن سلب العموم، وعلى هذا فالمسلوب عنهم هم الكافرون لأنهم كما أخبر الله محجوبون عن الرؤية.

ج- ومع ذلك فيمكننا أن نجعل الآية دليلاً على جواز الرؤية لأنها جاءت في معرض المدح ولا يمدح بشيء يمتنع وجوده، بل يمتدح بشيء يمكن وجوده ويمتنع عنه تعززاً وكبرياء.

٤- وأما الآيات الواردة في سؤال المعاندين فلم يكن الاستعظام والاستنكار ناتجين عن كون سؤالهم محالاً بل لكونهم يطلبون ذلك عناداً واستهزاءً، وإلا لمنعهم موسى من ذلك كما منعهم حينما طلبوا أن يجعل لهم آلهة يعبدونها من دون الله وقال لهم: بل أنتم قوم تجهلون.

هل يرى الله تعالى في الدنيا بالبصر؟

هي جائزة عقلاً كما عرفنا من عموم الدليل الذي ساقه أهل السنة والجماعة فهي ممكنة الوقوع على رأي جمهور المسلمين إلا أنه حصل الإجماع على عدم وقوع ذلك فعلاً لغير النبي محمد ﷺ .

أما رؤيته بالقلب فلا مانع من ذلك.

هل رآه النبي ﷺ ليلة أسري به أو لا...؟

جرى خلاف بين المسلمين في ذلك.

فذهب الجمهور إلى أنه رآه ببصره وهو ما ذهب إليه ابن عباس.

وذهبت سيدتنا عائشة ومن تبعها إلى أنه رآه بقلبه وهو المشهور عن ابن مسعود.

استدل الجمهور بأدلة أبرزها قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [١]. قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به [٢].

---

(١) سورة الإسراء: آية ٦٠.

(٢) البخاري، ٥/٦٩.

استدل مخالفوهم:

بما روى مسلم وغيره عن مسروق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: يا أماه ل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث؟ من دثكهنَ فقد كذب: منْ حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب. ثم قرأت: ﴿ لاَ تُدْرِكُهُ أبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [1].

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾[2].

كن رأى جبريل في صورته مرتين [3].

ومن حدثك أنه كتم فقد كَذب. وقرأت قوله تعالى: ﴿ يَـأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ كَ ﴾ [4] ومن حدثك أنه يعلم ما يكون في غدٍ،وقرأتْ قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ لَمُ مَن فِي السَّمَاواتِ والأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ الله﴾[5].

وبما روي أنه ﷺ قال حينما سئل هل رأيت ربك؟ قال: (نور أنى أراه) [6].

وأجابوا عن الآية التي إستدل بها الجمهور بأن المراد بالرؤية في الآية ألف الرؤيا المنامية.

اجح:

هو ما ذهب إليه الجمهور من إمكان وقوعها. وأنها وقعت فعلاً للنبي ﷺ لك لما يأتي:

- لعدم استحالتها عقلاً.

سورة الأنعام: آية ١٠٣.

سورة الشورى: آية ٥١.

انظر صحيح مسلم، ١/١١٠.

سورة المائدة: آية ٦٧.

سورة النمل: آية ٦٥.

انظر صحيح مسلم، ١/١١١.

٢- للآية السابقة وأما القول بأن الرؤيا – بالألف – يراد بها المنامية – فيجاب بأنها قد تطلق على اليقظة [١].

ولو كان المراد بها الرؤيا المنامية لما أدى ذلك إلى الاستغراب وإنكار الناس وفتنتهم لأن عقولهم لا تأباها إجماعاً.

٣- وما جاء عن سيدتنا عائشة فهو مجرد رأي لها. ولذلك استدلت عليه بالآية التي سبق أن ذكرنا المراد منها.

٤- وأما ما روى من قوله ﷺ: ((نور أني أراه)) – بفتح الهمزة والنون وبالألف – فإنه قد روى أيضاً (إني) بكسر الهمزة والنون مع تشديدها وبالياء فيكون نافياً للجمهور. ويمكن أن يراد بأنه كالنور، والنور يرى ولا تدرك حقيقته المركب منها.

---

(١) قال الشاعر

فكبر للرؤيا وهش فؤاده

وبشر قلباً كان جما بلا بله.

ص: واللهُ تَعَالَى خالِقٌ لأَفْعَالِ العِبَادِ مِنَ الكُفْرِ والإيمانِ والطّاعةِ والعِصْيَانِ وهي كُلّها بإرَادَتِه وَمشيئتِه، وحُكْمِه، وقَضِيّتِه وتَقْدِيرِه.

أفعال العباد بين الجبر والاختيار

ش: شرح المفردات

خالق: موجد ومخترع.

العباد: المكلفون وغيرهم.

الإرادة والمشيئة: بمعنى واحد.

حكمه: أي قوله للشيء كُنْ.

وقضيته: قضاؤه.

وتقديره: أي تحديد كل مخلوق بحده ومقداره.

الشرح الإجمالي:

الخلاف مع المعتزلة والجبرية [1].

قالت الجبرية: إن العبد مجبر بأعماله من قيام وقعود ومشي وعبادة وغيرها لاختيار له في إيجادها وإيقاعها – أي أن الأمر مناط بإرادة الله تعالى في جميع أعمال العبد.

واستدلوا على رأيهم بالنصوص الدالة على أن العبد لا يقع منه إلا ما أراده الله وقضاه.

مثل قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾[2].

---

(1) هي فرقة تنفي القدرة الإنسانية والاستطاعة فليس للإنسان اختيار ولا إرادة في أفعاله بل هو مجبر والله يخلق فيه الأفعال كما يخلقها بالحيوانات والجمادات ونسبتها إليها مجازاً وهم اتباع الجعد بن درهم والجهم بن صفوان الراسبي.

(2) سورة آل عمران: آية ٦.

وقوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ [1].

وقوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ [2].

ويجاب عن ذلك:

بأن هذا الرأي سيؤدي إلى تعطيل جميع التكاليف الشرعية؛ لأن نظرية الإجبار تتنافى مع التكليف.

فالمجبر على فعل شيء لا يكلف بضده أو بنقيضه لأنه يصبح تكليفاً بالمحال. وعلى رأيكم هذا لم يبق فرق بين حركة المرتعش وبين حركة المختار، والواقع يثبت خلاف ذلك. ثم إن واقع الإنسان لا يقع منه عمل إلا بعد توجهه إليه وقصده له.

وقالت المعتزلة:

أن العبد خالق وموجد لأفعاله، وقد اضطرهم للقول بهذا حذرهم من أن ينسب الشر إلى الله تعالى؛ لأن مبدأ عقيدتهم مبني على أن فعل الأصلح للعبد واجب على الله تعالى، وقال به قبلهم القدريّة.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١- أنه لو كان فعل العبد مخلوقاً له تعالى لما كلف أحداً من خلقه.

٢- لو كان الله خالقاً لأفعال العبد لكان الله هو القائم، والقاعد، والآكل، والشارب، والزاني، والسارق، إلى غير ذلك.

٣- قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾[3]. فنسبة الخلق إلى عيسى عليه السلام دليل على أن العبد يخلق أفعاله.

---

(١) سورة لقصص: آية ٦٨.

(٢) سورة الواقعة: آية ٦٣ – ٦٤.

(٣) سورة المائدة: آية ١١٠.

٤- قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١). يدل على أن هناك خالقين غير الله تعالى فلو لم يكن خالق غيره لما قال: (أحسن الخالقين).

عقيدة أهل الحق:

يعتقد أهل السنة والجماعة أن الأفعال التي تحدث في الكون تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول:

ما لا يحصل بها للعبد أي كسب أو توسط في إيجادها وهي ما تقع على وجه القسر وعدم الاختيار كإنزال المطر، وحركة الأفلاك، وإنبات النبات، وغلبة النوم، والمرض، والفقر، والصحة، وحركة المرتعش، ونبضات القلب، وحركة الجهاز الهضمي والذكاء، والفطنة، والغباوة، وغير ذلك.

فهذا لا إشكال فيه بأنه بتقدير الله تعالى وإيجاده لا خيار للعبد في وقوعه، وهو المعني بالقضاء والقدر خيره وشره.

القسم الثاني:

وهي ما يكون في إيجادها اكتساب للإنسان وسعي اختياري كالأكل والشرب، والإقامة، والجلوس، والمشي، والكسب للعيش، والأعمال التكليفية، فهذه الأفعال مخلوقة لله تعالى من حيث ذواتها لا من حيث صفاتها، أما من حيث الذات فإنه تعالى هو الذي خلق في الإنسان الانصراف إليها وخلق فيه العقل ليدل عليها وخلق فيه القدرة والقابلية لإيجادها. كما خلق جميع المقومات المادية والمعنوية لتكوينها؛ إلا أن الله تعالى يخلقها عقب قصد الإنسان لفعلها وتوجيهه إليه.

وأما من حيث الوصف كأن يكون ذلك الفعل حسناً أو قبيحاً مكروهاً أو مرضياً خيراً أو شراً فإنه مناط باختيار الإنسان وإرادته وكسبه واكتسابه.

---

(١) سورة المؤمنون: آية ١٤.

فالقابلية والاستعداد اللذان أودعهما الله في الإنسان صالحان لإيقاع فعل ما فيه ثواب وما فيه عقاب، واختيار أحد الفعلين مناط بإرادة الإنسان، لذلك يقول الله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾[1]. أي من الخير، ﴿ وعليها ما اكتسبت ﴾[2]. أي من الشر فهذا القسم من الأفعال له نظرتان كونه حصل بتمكين الله يسمى مخلوقاً لله تعالى وكونه باختيار الإنسان فيسمى كسباً واكتساباً له.

الدليل على أن الله خالق لأفعال العباد

أولاً: العقلي

إن العبد لو كان خالقاً لأفعاله لكان عالماً بتفاصيلها ضرورة أن إيجاد الشيء بالقدرة والاختيار لا يكون إلا كذلك والواقع أنه لا يعلمها؛ فإن الماشي مثلاً إلى مكان لا يعلم عدد سكنات وحركات مشيته وثقل حركاته وسرعتها. وحركات أعضائه وعضلاته وقدر ارتفاع قدمه عن الأرض وانخفاضه.

ثانياً: النقلي

١- قال تعالى: ﴿ والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي خلقكم وخلق عملكم على تقدير ما مصدرية، ومعمولكم على تقديرها موصولة.

٢- وقال تعالى:﴿ الله خَالِقُ كُـلِّ شَيْءٍ ﴾ والمراد به الممكن لأن الواجب قد خصه العقل فأفعال العباد مخلوقة له تعالى لأنها شيء.

٣- وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ في مقام المدح ولو كان غيره خالقاً لما لمتدح نفسه بها لأنها صفة غير خاصة به حتى يمتدح بها.

وأجابوا عن أدلة المعتزلة بما يأتي:

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٨٦.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٨٦.

- عن قولهم لو كان فعل العبد مخلوقاً...الخ نقول: إنكم لم تفرقوا بين الخلق وبين إيقاع الفعل. فإن نسبة خلق الفعل لله تعالى لا يدل على أنه قد ألزم العبد في إيقاعه وقسره عليه، حيث إن الله تعالى يخلق الفعل بعد قصد العبد الفعل وتوجهه إليه.

- ويجاب عن الثاني بأن الذي يتصف بالفعل هو من قام به الفعل لا من خلقه وإلا فإن الله تعالى خالق للسواد والبياض وسائر أوصاف الأجسام فهل يقال: الله أسود أو أبيض أو متحرك لكونه خلق ذلك، فكذا إذا خلق قوة الزنى في الإنسان ثم زنى فإنه تعالى لا يسمى زانياً.

- وأما عن الخلق في الآيتين فالمراد به التقدير أي إذ تقدر كهيئة الطير والله أحسن المقدرين، إذ ورد في اللغة أن معنى الخلق هو التقدير يقال خلقت الأديم إذا قايسته لتقطع منه شيئاً.

قضاء والقدر:

قضاء يأتي لمعان:

- يأتي بمعنى التقدير مثل: ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [1]. أي قدرهن.

- ويأتي بمعنى الإيجاب والإلزام مثل:﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [2].

-ويأتي بمعنى الإعلام والتبيين مثل: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ﴾ [3].

القدر أيضاً يأتي لهذه المعاني:

- بمعنى التقدير مثل قوله تعالى: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [4].

---

(١) سورة فصلت: آية ١٢.

(٢) سورة الإسراء: آية ٢٣.

(٣) سورة الإسراء: آية ٤.

(٤) سورة فصلت: آية ١٠.

٢- بمعنى الإيجاب والإلزام مثل: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ [١].

٣- وبمعنى الإعلام والتبيين مثل: ﴿ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾[٢].

أي أعلمنا بذلك وكتبناه في اللوح المحفوظ.

ويأتي القضاء بمعنى علم الله في الأزل بوقوع الشيء، والقدر بمعنى إيجاد ذلك الشيء مطابقاً لما علمه الله في الأزل. ويحمل على هذا بالنسبة لأعمال المخلوقين التي لهم اختيار في إيجادها، وعلى هذا يجب الإيمان بهما أي بالقضاء والقدر يعني نؤمن بأن الله تعالى يعلم جميع ما يقع من أفعال العباد وكل ما يتعلق بالمخلوقين، ونؤمن بأن إيجادها يكون على حسب ما علم في السابق ولا علاقة للقضاء والقدر بالجبر والإكراه من الله للعبد على فعل معين أو ترك له.

وبهذا يقول النووي في شرح مسلم (قال الخطابي: وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه وتعالى العبد وقهره على ما قدر وقضاه، وليس الأمر كما يتوهموه، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه وتعالى بما يكون من اكتساب العبد وصدوره عن تقدير منه) [٣].

وذكر ابن حجر العسقلاني في شرحه حديث ابن عمر عن الإيمان تعريف القضاء فقال: (والقضاء علم الله أوّلاً بالأشياء على ما هي عليه. والقدر إيجاده إياها على ما يطابق العلم) [٤].

فإن قيل: إن علم الله بوقوع الفعل يستلزم وقوعه كما علم وهذا يستلزم وقوع الأفعال قسراً وبدون إرادة العبد؟

---

(١) سورة الواقعة: آية ٦٠.

(٢) سورة النمل: آية ٥٧.

(٣) انظر شرح مسلم، ١/ ١٥٤ - ١٥٥.

(٤) فتح المبين بشرح الأربعين، ص٦٤.

فالجواب: أننا نؤمن أن الله هو الخالق والفعال لما يريد بمعنى أنه قد أوجد الوسائل والآلات للفعل.

أما الإيقاع فهو مناط بإرادة الإنسان؛ لذلك يمكننا أن نقول: إن خلق العمل في الإنسان يكون بعد قصده العمل وتلبسه به فالفعل يقع لا محالة ولكن ليس جبراً من الله تعالى للعبد بل يقع معلقاً على قصد فعله، والقصد من العبد، والدليل على ذلك ما ورد من النصوص القرآنية الدالة على ذلك مثل:

١- قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ [١].

- وقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [٢]. فقد ذكر أسباب الهداية التي هي أفعال المكلف.

- وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ [٣]. فقد بينت أن الله يضل المتصفين بالصفات التي ذكرت بعد.

- وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ [٤].

- وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [٥].

- وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [٦].

---

(١) سورة الليل: آية ٥ – ١٠.

(٢) سورة البقرة: آية ٢ – ٣.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٧.

(٤) سورة يونس: آية ٩.

(٥) سورة المائدة: آية ١٦.

(٦) سورة محمد: آية ١٧.

أما النصوص الواردة في الإرادة والمشيئة:

وهي الدالة على أن العبد لا يوقع إلا ما يريده الله والتي تدل على تعليق الهداية بالله تعالى مثل: ﴿ وَلَوْ شَاءَ الله مَا أَشْرَكُواْ ﴾ [1]. فيراد بذلك لو شاء الله لم يترك لهم خيرة بل جعلهم كلهم موحدين، لكنه أراد منح الخيرة لهم.

ومثل: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ الله﴾ [2]. أي اتصافكم بالمشيئة والاختيارية التي تشاؤنها هي من عطاء الله وباختياره لم يكرهه على منحكم إياها أحد.

ومثل:﴿ مَن يَهْدِ الله فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً ﴾ [3]. أي أن الله يخلق ذلك لا غير لكن بعد قصد الإنسان لهما.

ومثل:﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [4].

فيراد بها أنه لو شاء لما ترك الاختيار للناس في اختيارهم طريق الخير والشر فهو قادر على أن يجعلهم كلهم مهتدين ولم يجعل لهم الخيار في اختيار مصيرهم، إلا أنه أراد أن يمتحنهم بذلك فجعل لهم العقول وخيرهم أي الطريقين يسلكون.

فهو يضل من الناس من تعرض لأسباب الإضلال، ويهدي منهم من تعرض لأسباب الهداية. فلو لم تحمل هذه الآيات على هذه المعاني لتعارضت مع الآيات السابقة التي استدللنا بها وغيرها مثل قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾[5].

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٠٧.

(٢) سورة الإنسان: آية ٣٠.

(٣) سورة الكهف: آية ١٧.

(٤) سورة يونس: آية ٩٩.

(٥) سورة الأعرف: آية ١٤٦.

قال أيضاً: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [1].

بَاد أَفْعالُ اخْتِيَارِيَةَ يُثَابُونَ بِهَا ويُعَاقَبُونَ عَلَيها، وَالْحَسَنُ مِنْها بِرضَائه تَعالى.

نْهَا لَيْسَ بِرِضَائِه.

ح المفردات

تقع بإرادتهم واختيارهم.

ا: إن كانت طاعة لله تعالى.

عليها: إن كانت معصية له تعالى.

هو متعلق المدح في العاجل والثواب في الأجل.

و متعلق الذم في العاجل والعقاب في الأجل.

إجمالي:

عد أن تبين لنا أن أفعال العباد الاختيارية منسوبة إلى الله تعالى خلقاً وإلى اً واكتساباً علمنا أنهم محل التكليف؛ لذلك يعاقبون ويثابون، ودليل الاختيار قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[2]. ودليل حصول الثواب على فعله قوله تعالى:﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[3]. فالله تعالى يرضى من عبده ن وهو الموافق لأوامره، ولا يرضى له أن يفعل القبيح وهو فعل منهي

سورة التوبة: آية ١١٥.

سورة الكهف: آية ٢٩.

سورة السجدة: آية ١٧.

ص: والاسْتِطَاعَةُ مَعَ الفِعْلِ: وَهِيَ حَقِيقَةٌ:- القُدْرَةُ التِي يَكُونُ بِهَا الفِعْلُ، ويَقَعُ هذَا الاسْمُ على سلامَةِ الأسْبَابِ والآلاتِ والجَوَارِحِ، وَصِحَّةُ التَّكْلِيفِ تَعْتَمِدُ هذِهِ الاسْتِطَاعَةَ.

ش: شرح المفردات

الاستطاعة: هي القوة والقدرة والطاقة والوسع أسماء مترادفة.

مع الفعل: أي تخلق عند قصد إيجاد الفعل.

وهي: أي الاستطاعة.

يكون بها: أي بسببها يوجد الفعل.

ويقع هذا الاسم: أي لفظ الاستطاعة.

الأسباب: أي أسباب الفعل.

والآلات: هي الواسطة التي يوجد بها الفعل.

والجوارح: أي الأعضاء التي يوجد بها الفعل.

تعتمد: تتوقف.

هذه الاستطاعة: أي وهي سلامة الأسباب والآلات والجوارح.

الشرح الإجمالي:

ذهبت المعتزلة:

إلى أن القوة التي يوجد بها الفعل يجب أن تتقدم على وجود الفعل. فلا بد من وجود القدرة قبل الفعل وإلا لزم تكليف العاجز وهو باطل.

فالمكلف بفعل الصلاة يجب أن تكون له قوة وقت تكليفه، والتكليف سابق على فعل الصلاة.

وذهب الجمهور:

إلى أن القوة توجد مع الفعل، فإن قصد الإنسان فعل الخير خلق الله تعالى قدرة فعل الخير، وإن قصد فعل الشر خلق الله تعالى قدرة الشر؛ لأن القوة عرض فلا بد أن تكون مقارنة للفعل بالزمان لا سابقة عليه؟ لأن العرض لا يبقى زمانين.

فإن وقعت قبله يلزم وقوع الفعل بدون قوة وهو باطل.

وأجابوا عن علة المعتزلة بما يأتي:

الاستطاعة لها معنيان:

أحدهما: ما بها يوجد الشيء فهذه تكون مقارنة للفعل وهي موضوع بحثنا.

والثاني: أنها تطلق على سلامة الآلات والأسباب والجوارح فمن سلمت له هذه الثلاثة حصلت لديه الاستطاعة.

وصحة التكليف تعتمد وتتوقف على الاستطاعة بالمعنى الثاني وهي لا شك أنها سابقة على الفعل.

ص: ولا يُكَلّفُ العَبْدُ بِمَا لَيْسَ فِي وِسْعِه.

التكليف بالمحال

ش: شرح المفردات

لا يكلف: أي لا يلزم ما فيه كلفة.

في وسعه: أي في طاقته وهو المحال.

الشرح الإجمالي:

اتفق علماء المسلمين على عدم وقوع التكليف بالمحال كجمع الضدين وخلق الحيوان؛ حيث لم يرد في الشريعة التكليف بما لا يطاق. وبما ليس مقدوراً للعبد لقوله تعالى: ﴿ لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا ﴾[1].

واختلفوا في الجواز. هل يجوز عقلاً أن يكلف الله العبد بما لا قدرة له عليه؟ ذهبت المعتزلة: إلى منع ذلك وقالوا: إنه يقبح على الله عقلاً أن يكلف بما لا يطاق وأن تكليفه عبث؛ لأنه يعلم أنه لا يقدر على تنفيذ ما كُلِّفَ به.

وذهب الأشاعرة:

إلى تجويزه عقلاً وقالوا: لا يقبح من الله شيء فيجوز أن يكلف بما لا طاقة للعبد في إيجاده وإنما لم يفعل ذلك فضلاً منه ورحمة.

وأجابوا عن قول المعتزلة: إن تكليفه عبث، لأنه يعلم أنه لا يقدر على التنفيذ بأن الله تعالى يكلفه ذلك ليرى هل يأخذ بمقدمات ذلك الفعل، وهل يتوجه ويعزم على فعله وهذا يكفي في الاختيار.

(١) سورة البقرة: آية ٢٨٦.

ص: وما يُوجَدُ مِنَ الأَلَمِ فِي المَضْرُوبِ عَقِبَ ضَرْبِ إِنْسَانٍ. والانْكِسارُ فِي الزُجَاجِ عَقِبَ كَسْرِ إِنْسَانٍ كُلُّ ذَلِكَ مَخْلُوقٌ للهِ تَعَالى لا صُنْعَ للعَبْدِ فِي تَخْلِيقِهِ.

لا تأثير للسبب في خلق الأشياء

الشرح الإجمالي:

إذا حدث فعل شيء بواسطة شيء آخر فهل السبب هو المؤثر فيه أو المؤثر هو الله تعالى؟

ذهبت المعتزلة:

إلى وجود نظرية التوليد وقالوا: إذا حرك الإنسان المفتاح لفتح القفل فالإنسان خالق لحركة اليد، وحركة اليد ولدت حركة المفتاح وحركة المفتاح أحدثت فتح القفل ولا شيء لله في خلقها.

وكذلك إذا ضرب إنسان إنساناً وحصل الألم، فالضرب أوجده العبد ثم ولّدَ حدوث الألم في المضروب، وكذلك الانكسار، وكل مسبب يحصل بالسبب.

ويعتقد أهل الحق: أن الضرب والألم والانكسار كل ذلك مخلوق لله تعالى. لا صنع للعبد في خلقه لأن الله تعالى يخلق المسببات عند وجود السبب لا به.

ص: والمَقْتُولُ مَيتٌ بأجَلِهِ، والموتُ قَائِمٌ بالمَيِّتِ. مَخْلُوقٌ لله تَعَالى لا صُنْعَ للعَبْدِ فِيهِ خَلْقاً ولا اكْتِسَاباً، والأجَلُ وَاحِدٌ.

الأجل واحد

ش: شرح المفردات

المقتول: من حصل فيه القتل.

بأجله: الأجل هو الوقت المحدد للموت.

قائم بالميت: أي غير واقع منه.

الشرح الإجمالي:

ذهب أهل الحق إلى أن الأجل واحد لا يتأخر ولا يتقدم ولا عبرة لاختلاف أسباب الموت.

وأن القتيل مات بأجله المحدد له ولولا القاتل لجاز أن يموت في الوقت نفسه وأن الله هو الذي خلق فيه الموت لا القاتل.

واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[1].

وبقوله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾[2]. وبقوله: ﴿ الله يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِـهَا ﴾[3]. وغيرها من الأدلة.

---

(1) سورة الأعراف: آية ٣٤.

(2) سورة المنافقون: آية ١١.

(3) سورة الزمر: آية ٤٢.

الكعبي [1]. من المعتزلة:

إلى أن للقتيل أجلين: أحدهما القتل، والثاني الموت، وأن القاتل قد قطع عليه لولا قتله إياه لعاش إلى الأجل الثاني -- وهو الموت – وأن القاتل هو الذي وت في القتيل، لأنه وقع منه باختياره.

:

صوص الواردة في أن بعض الطاعات تزيد في العمر مثل قوله تعالى حكاية نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿ أَنِ اعبُدُواْ الله وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۞ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ خِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [2].

وله ﷺ : (مَنْ أحبَّ أنْ يُبْسَطَ عَلَيه في رزْقِهِ ويُنَسَّأَ لَهُ في أثرهِ فَلْيصِلْ [3].

ا يدل على أن للإنسان أجلين، وإلا لما احتمل الزيادة والنقصان.

تدل أيضاً:

بأن القاتل لولا أنه قد قطع أجل القتيل لما استحق عقاباً ولما وجب عليه ، لأنه قد مات بأجله.

فاستحقاقه العقاب والضمان يدل على أنه قد أماته في غير أجله.

عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي من بني كعب البلخي الخرساني أبو القاسم أحد أئمة الاعتزال كان رأس طائفة منهم تسمى (الكعبية) وله آراء ومقالات في الكلام انفرد بها أقام ببغداد مدة طويلة وتوفي ببلخ سنة ٣١٩هـ / ٩٣١م، له مؤلفات انظر الإعلام، ١٨٩/٤.

سورة نوح: آية ٣.

مسلم ٨/٨ ومعنى ينسأ له في أثره أي يؤخر له في أجله لأن الأجل تابع للحياة وفي أثرها.

ويجاب عن الدليل الأول:

بأن الزيادة لها احتمالات:

أحدهما: أن المراد بالزيادة المجازية أي يبارك له في عمره بحيث تظهر له أعمال ونتائج تعدل ما يعمله صاحب العمر المديد. فقد يعمل في العمر البالغ خمسين سنة ما يعمله من عمره مائة سنة.

ثانيهما: أن الله كتب أن عمره في اللوح المحفوظ أربعون سنة ثم علم أنه سيزور رحمه أو يتصدق فيكون ستين كما هو في أم الكتاب فيؤخر إلى الستين وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ يَمْحُو الله مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [1].

ثالثها: بقاء ذكره الجميل بعد موته فكأنه لم يمت، أو أن يترك آثاراً ينتفع بها الناس فكأنه حي ينفع الناس مثل الصدقة الجارية أو مؤلفات العلم.

ويجاب عن الدليل الثاني:

بأنه استحق العقاب والضمان لا لكونه قد خلق الموت في القتيل وقطع أجله بل لكونه كسب خطيئة هو منهي عنها والإنسان آثم على اكتسابه.

كما أننا نعتقد أن الله هو الذي خلق الموت في القتيل وأنه لم يتولد من قتل القاتل لقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ [2]. والألف واللام في الموت للاستغراق فيشمل كل موت مهما اختلفت أسبابه.

---

(١) سورة الرعد: آية ٣٩.

(٢) سورة الملك: آية ٢.

ص: والحَرَامُ رِزْقٌ. وكُلٌ يَسْتَوفِي رِزْق نَفْسِهِ حَلالاً كان أوْ حَرَاماً ولا يُتَصَوَّرُ أنْ لا يأكلَ إنْسانٍ رزقَهُ أوْ يَأكُلَ غَيْرُهُ رِزقَهُ.

هل الحرام رزق؟

ش: شرح المفردات

الحرام: هو ما أخذ بوجه غير مشروع كالرشوة والسرقة والغصب.

رزق: هو ما يسوقه الله إلى الحيوان فيأكله.

يستوفي: يأخذه كاملاً.

لا يتصور: أي لا تحدث صورته في الذهن.

الشرح الإجمالي:

ذهبت المعتزلة – إلى أن الحرام ليس رزقاً.

وفسروه بتفسيرين:

الأول: بأنه مملوك يأكله المالك – وعلى هذا فالحرام ليس مملوكاً فليس رزقاً.

والثاني: بأنه ما لا يمنع الانتفاع به والحرام يمنع الانتفاع به فلا يكون رزقاً

وقد ذهبوا هذا المذهب للأمرين الآتيين:

أولاً: أن الرزق يضاف إلى الله تعالى حيث لا رازق إلا الله والحرام قبيح فلا يكون رزقاً حتى لا ينسب القبح إليه تعالى.

ثانياً: أن العبد يستحق الذم والعقاب على أكله، والرزق مسند إليه تعالى فلو كان الحرام رزقاً لما استحق مرتكبه الذم والعقاب لأنه مستند إليه تعالى.

وذهب أهل الحق:

إلى أن الرزق يكون حلالاً وحراماً؛ لأنهم فسروه: بأنه اسم لما يسوقه الله تعالى إلى الحيوان فيأكله.

وأجابوا عن تفسير المعتزلة للرزق بما يأتي:

١- بأنه يلزم على التفسير الأول، أن الحيوان ليس مرزوقاً لأنه ليس مالكا لما يأكله. وأن ما يأكله ليس رزقاً، والحال أنه مرزوق وما يأكله رزق.

٢- ويلزم على التفسيرين:

أن من عاش طول حياته ومات ولم يأكل إلا من الحرام لم يرزقه الله أصلاً وذلك باطل لقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾[1]. فالحيوان ومن عاش في أكل الحرام داخلان في عموم هذه الآية وهما مرزوقان بلا شك.

ويجاب عن تعليلهم بما يأتي:

١- أنه لا يقبح فعل أي شيء بالنسبة لله تعالى؛ لأنه هو الفاعل المختار ويفعل ما يشاء، والحسن والقبيح بالإضافة إلى الفاعل لا الخالق لذا لا يضر نسبة رزق الحرام إليه تعالى.

٢- وأما استحقاق فاعله الذم والعقاب فلأنه أساء في مباشرته باختياره ولهذه الإساءة يذم ويعاقب لا لكون الرزق حراماً.

---

(١) سورة هود: آية ٦.

ص: والله تعالى يُضلُّ مَنْ يَشَاء ويَهْدِي مَنْ يشاء

ش: شرح المفردات

يضل: أي يخلق الضلالة.

من يشاء: من يريد.

ويهدي: أي يخلق الاهتداء..

والهداية لها معنيان

١- بيان طريق الحق – وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1].

٢- بمعنى خلق الاهتداء والوصول إلى الحق وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[2].

الشرح الإجمالي:

إن الله سبحانه وتعالى يخلق الضلالة في الإنسان بعد قصده لسببها وتوجهه إليها. ويخلق الاهتداء في الإنسان بعد قصده لسببه وتوجهه إليه.

وزعمت المعتزلة:

أن الله تعالى يهدي من يشاء بالمعنى الأول فقط لأن العبد خالق لأفعاله عندهم وهذا مردود لوجهين:

الوجه الأول: أن الهداية بهذا المعنى حاصلة للكافر والمسلم فلا داعي لتعليقها بمشيئة الله تعالى.

---

(١) سورة الشورى: آية ٥٢.

(٢) سورة القصص: آية ٥٦.

والوجه الثاني: أنه قد وردت نصوص منافية لهذا المعنى مثل قوله تعالى:

﴿ وإنك لا تهدي من أحببت ﴾ [1].

مع أنه هداهم ودعا لهم بالهداية بقوله ﷺ: ((اللهمَّ أهدِ قومي)) ولو كانت الهداية بالمعنى الذي ترونه لما استلزم الدعاء لهم؛ لأنه قد حصلت الدلالة منه فلا حاجة إلى طلبها من الله تعالى.

وقد علق الإضلال والهداية على مشيئته لأنه تعالى فعال لما يريد فلو لم يرد خلقهما في العبد لما وجدا كما هو شأن بقية الأفعال إذ أنه تقع بإرادته لا بإكراه أو سهو أو نحوهما.

(1) سورة القصص: آية ٥٦.

ص: وَمَا هُوَ الأَصْلَحُ لِلعَبْدِ: فَلَيْسَ بِوَاجِبٍ عَلَى اللهِ تَعَالَى.

فعل الأصلح للعبد

ش: المفردات

الأصلح: هو الأحسن للعبد.

ليس بواجب: أي ليس ملزماً بفعله ولا مذموماً على تركه.

الشرح الإجمالي:

ذهب أهل الحق إلى أنه تعالى لا يجب عليه شيء من الأشياء؛ لأن الوجوب حكم من الأحكام؛ والحكم لا يثبت إلا بالشرع ولا حكم على الله تعالى حيث لا حاكم عليه فلا يجب عليه شيء؛ لأنه لو وجب عليه شيء لاستحق بتركه الذم، وإن استحق الذم لزم كونه تعالى ناقصاً لذاته مستكملاً بفعله وهو محال.

وذهبت المعتزلة:

إلى وجوب اللطف من الله للعبد كالثواب على الطاعة والعقاب على الكبائر قبل التوبة ويجب عليه أن يفعل الأصلح لعباده في الدنيا وأن لا يفعل القبيح عقلاً.

واستدلوا على ذلك:

بأن ترك الأصلح بخل وسفه وهما محالان عليه تعالى.

ويجاب على ذلك:

أنه لو كان كذلك لما خلق الفقير الكافر المعذب في الدنيا والآخرة ولما كان له على عباده منة إذا فعل معهم الحسن لأنه قد فعل الواجب عليه.

ولما كان امتنانه على النبي محمد ﷺ أكثر من امتنانه على أبي جهل، لأنه قد فعل لكل منهما ما هو أصلح له.

ولو كان فعل الأصلح واجباً لما كان لسؤال التوفيق وكشف الضر وطلب البسط والرخاء فائدة لأنه ترك ما هو مفسدة لكل واحد يجب عليه تركها.

وأما ما ذهبوا إليه - من أن عدم فعل الأصلح بخل وسفه - فنقول: إن منع ما يكون حقاً للمانع محض عدل وحكمة ولا سيما قد ثبت كرمه وحكمته وعلمه بالعواقب.

ثم نسألهم ما المراد بالواجب؟

فإن كان الواجب الشرعي لزم أن يستحق الله الذم والعقاب على تركه وهو ظاهر البطلان.

وإن كان الواجب العقلي يلزم عدم تخلفه عنه تعالى والواقع أنه يختلف.

ثم ماذا يقولون في ثلاثة أخوة.

أحدهم مات صغيراً دون البلوغ، فدخل الجنة.

والثاني مات كبيراً كافراً، فدخل النار.

والثالث مات كبيراً صالحاً، فدخل الجنة في المراتب العالية.

وبإمكانهم جميعاً أن يقيموا الحجة عليه تعالى بأنه لم يفعل الأصلح لهم.

أما الصغير فإنه يحتج على الله تعالى ويقول لو بقيت إلى ما بعد البلوغ لنلت مرتبة أخي البالغ الصالح فموتي صغيراً ليس من الأصلح لي.

وأما الكبير الصالح: فيمكنه أن يحتج ويقول لو مت صغيراً لدخلت الجنة بدون تحملي مشقة التكاليف الشرعية.

وأما الكبير الكافر: فيقول كان الأصلح لي أن أموت صغيراً حتى أدخل الجنة وعلى كل حال فإن الله لم يفعل الأصلح لكل واحد من الثلاثة.

الفصل الثالث

فــي أحـــوال الآخـــرة

ويتضمن:

١- سؤال القبر وعذابه ونعيمه.

٢- البعث.

٣- الوزن والميزان.

٤- إعطاء كتب الأعمال.

٥- سؤال الحشر.

٦- الحوض.

٧- الصراط.

٨- الجنة والنار.

٩- الكبيرة لا تخلد المسلم في النار.

١٠- مغفرة الذنوب ما عدا الشرك.

١١- الشفاعة.

١٢- عدم تخليد المؤمنين في النار.

ص: وعذاب القبر للكافرين. ولبعض عُصاة المُؤمنين، وتَنْعيمُ أهلِ الطّاعَةِ فِي القَبر بما يعلمُهُ الله ويُريدُهُ.
وسُؤالُ منكر ونكير: ثابتٌ بالدلائلِ السمعيَّةِ.

القبر وسؤاله

ش: المفردات

عذاب القبر: ليس المراد به الحفرة التي يدفن فيها الميت فقط بل المراد أي مكان يحل فيه بعد الموت سواء الأرض أو الهواء أو البحار أو بطون الحيوانات أو غيرها.

ولبعض عصاة المؤمنين: أتى بلفظ البعض هنا ولم يأت بها مع الكافرين؛ لأن قسما من عصاة المؤمنين لم يرد الله تعذيبهم.

منكر ونكير: هم ملكان يسألان العبد في القبر، سمّيا بذلك لإتيانهما الميت بهيئة منكرة وقيل هما للكافر والفاسق، ومبشر وبشير للمؤمن الصالح.

الدلائل السمعية: هي المنقولة عن الكتاب والسنة.

الشرح الإجمالي:

هذه المسألة مشتملة على بحثين: ١- سؤال القبر ٢- عذاب القبر ونعيمه.

الأول: سؤال القبر

ثبت في السنة أن العبد يسأل في قبره عن ربه وعن نبيه وعن دينه ويمكننا أن نستدل على ثبوته عقلاً ونقلاً.

أما عقلاً

فلأنه من الممكنات لا من المستحيلات، وقد أخبر به الصادق المؤيد بالمعجزة. ثم أننا نؤمن بما يراه النائم في منامه؛ إذ قد يكون من جملته أن يسأل وأن يجيب وأن يمتحن وغير ذلك في الرؤيا مما يدل على إمكانه في القبر للميت.

وأما نقلاً

فمن ذلك ما رواه البراء بن عازب ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [1].

وقد أخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: (الآخرة هي القبر، فإنه أول منازل الآخرة).

ومن ذلك ما روي عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا وضع العبد في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير فيقعدانه فيقولان له، من ربك؟ فإن كان مؤمناً قال، الله ربي، فيقولان له، ما كنت تقول في هذا الرجل؟ يعني محمداً ﷺ فيقول، هو رسول الله.

فيقولان له، وما يدريك؟

فيقول، قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت.

فعند ذلك ينادي مناد من السماء، أن صدق العبد.

وإن كان منافقاً أو كافراً فيقولان له، من ربك؟

فيقول، ها ها لا أدري كنت أقول كما يقول الناس.

فيقولان له، ما كنت تقول في محمد ﷺ ؟

فيقول، لا أدري كنت أقول كما يقول الناس.

فيقولان له، لا دريت ولا تليت.

---

(1) مسلم على شرح النووي، ٢٠٤/١٧.

وينادي مناد من سماء، أن كذب العبد [1].

الثاني: عذاب القبر ونعيمه

ثبت عذاب القبر ونعيمه بالكتاب والسنة.

أما الكتاب:

١- فقوله تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۞ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [2].

وجه الاستدلال بها:

أنه لما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ دل على أن عرضهم على النار غدوا وعشيا هو في القبر؛ إذ أنه لو لم يحمل على ذلك كان تكراراً، فقد قال ابن عباس ﷺ تعرض أرواحهم على النار غدوا وعشياً [3].

وقال ابن مسعود ﷺ (إن أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طُيُورٍ سُودٍ يَرَوْنَ مَنَازِلَهُمْ غُدْوَةً وعَشِيَّةً) [4].

٢- قوله تعالى في قوم نوح: ﴿ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً ﴾ [5].

وجه الاستدلال بها:

أن الفاء في (فأدخلوا) للترتيب والتعقيب بدون تراخ، وهذا يدل على أنهم أدخلوا النار عقب غرقهم مباشرة وذلك لا يكون إلا في القبر.

---

(١) وبمعنى هذه الرواية رواه البخاري، ١١٧/٢ و ٢٠٣/١٧.

(٢) سورة غافر: آية ٤٥ - ٤٦.

(٣) الغدو أول النهار والعشي هو آخر النهار.

(٤) انظر تفسير ابن كثير، ٨٢/٤.

(٥) سورة نوح: آية ٢٥.

ومن الآيات الدالة على وجود التعذيب قبل يوم القيامة قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ [1].

وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾[2].

أما السنة:

فقوله ﷺ (القبرُ إمّا روضةٌ من رياضِ الجنةِ أو حُفرَةٌ من حُفَرِ النار)[3].

وقوله ﷺ (إستنزهوا من البولِ فإن عامةَ عذابِ القبرِ منهُ)[4]. وبما روى البخاري عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ مرّ بقبرين فقال: (إنّهما يُعذّبان وما يُعذّبان في كبير، أما أحدهما فكانَ يسعى بالنّميمةِ وأما الآخرُ فكان لا يستترِ من بولهِ)[5].

وقد وردت أحاديث كثيرة في التعوذ من عذاب القبر.

وقد أنكر بعض المعتزلة سؤال القبر وعذابه:

واحتجوا على ذلك بما يأتي:

١- بقوله تعالى على لسان أهل النار: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾[6].

وجه الاستدلال بها:

أنهم اعترفوا باماتتين واحيائين، فلو أحي الميت في القبر للسؤال والعذاب لكانت ثلاث اماتات وثلاثة احياءات وليستا باثنتين.

---

(١) سورة الأنعام: آية ٩٣.

(٢) سورة محمد: آية ٢٨.

(٣) رواه الترمذي رقم ٢٤٦٢، الطبعة الخامسة والطبراني معاً عن أبي سعيد والطبراني فقط في ترجمة مسعود بن محمد الرملي في معجمه الأوسط عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٤) الدار قطني، ١٢٦/١.

(٥) يلاحظ البخاري: ٩٧/٨ و ١١٨/٢ ومسلم على النووي ٢٠٢/١٧.

(٦) سورة غافر: آية ١١.

ويجاب عن هذا من وجهين:

الأول: أن المراد بالموتتين الأولى عند انخرام أجلهم في الدنيا، والثانية في القبر بعد السؤال، وأن الاحيائين الأول في القبر للسؤال، والثاني في المحشر [1].

الثاني: إن إثبات الاثنين لا يدل على نفي الزائد عنهما إذ لا يوجد أي حصر في الآية فالموتتان في الدنيا والقبر وكذا الإحياء، وتركوا حياة الآخرة لأنهم يشاهدونها فالاعتراف على ما قبلها [2].

٢- قالوا: أن الميت جماد لا روح فيه ولا إدراك فتعذيبه محال ونراه ونشاهده أياماً لا يتحرك ولا يضطرب فلو عذب لاضطرب وتحرك.

ويجاب عن هذا بما يأتي:

١- أن الإنسان له روح يفعل ويتحرك بها وهذه أثر من آثار ضخ الدم في الأوردة والشرايين وهي التي يفقدها الميت إذا مات.

وله حياة مدركة يحس بها الآلام والأفراح وهي التي يفقدها النائم والمغمى عليه، فإذا أدخل الإنسان القبر عادت عليه حياة الإدراك فأخذ يتنعم ويتألم، كالنائم حينما يرى رؤيا. ولم تعد إليه روح الحركة التي تحتاج إلى الغذاء والتنفس وغيره.

والعذاب والنعيم يحس بهما الميت بتلك لا بهذه.

٢- ما دامت الآخرة تختلف اختلافاً كثيراً عن الدنيا، فلا مانع من أن يجعل الله في أجزاء الميت وذراته نوعاً من الحياة الخاصة ليدرك ذلك الجزء أثر العذاب أو النعيم وهذا لا يستلزم حركته واضطرابه، وقد سبق أن القرآن بين أن الكافر عند النزع يضرب على وجهه ودبره ونحن لا نرى ذلك ونؤمن به دون شك.

---

(١) نثر اللآلي، ص٢٣٩.

(٢) شرح رمضان، ص٢٣٤.

٣- أن رسول الله ﷺ كلّم المشركين بعدما ألقاهم في قليب بدر وقال: (يا فلان بنُ فُلان يا فُلان بنُ فُلان سماهم بأسمائهم: إنّي قد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقا؟ فقال سيدنا عمر: يا رسول الله تُكلّمُ أمواتاً لا يسمعون، فقال: ما أنتَ بأسْمَعَ منهم) رواه مسلم، وهذا يدل على أن لهم حياة خاصة يسمعون ويحسون بها.

٤- نرى النائم أمامنا وهو في رؤيا يعذب بها أو ينعم، ومع ذلك فإنا لا نشاهد آثارها عليه. وما دام هذا ممكناً فلا مانع من حصول ذلك مع الميت ولو لم تشاهد ذلك.

٥- عدم رؤيتنا لآثار التعذيب والتنعيم على الميت لا يتنافى مع وقوعه عليه؛ إذ كان جبريل يأتي النبي ﷺ فيكلمه ويخاطبه ولم يره الصحابة الحاضرون.

هل هناك سؤال للصبيان والأنبياء؟

في ذلك قولان: أحدهما أنهما يسألان، والثاني عدم سؤالهما وهو الأصح إذ الصبيان غير مكلفين، وليس من المستساغ أن يسأل النبي عن نفسه إذ من جملة سؤال القبر عن النبي، ولأنهم معصومون.

هل يعفى أحد من سؤال القبر وعذابه؟

نعم يعفى من ذلك الشهداء.

لما روى النسائي أن رجلاً قال: يا رسول الله ما بالُ المؤمنين يُفتنونَ في قبورهم إلا الشهيد؟ فقال ﷺ : (كفى ببارقةِ السيفِ على رأسِهِ فتنةٌ) [١].

وكذا يعفى المرابط يوماً وليلة في سبيل الله تعالى، ومن مات يوم الجمعة وليلتها، ومن داوم على قراءة سورة الملك في حياته كل ليلة، والمبطون، والميت

---

[١] النسائي، ٤/١٠٩.

زمن الطاعون، والصديق، والقارئ قل هو الله أحد في مرض موته [1]. وج
أصناف الشهداء [2].

أ الإمام السيوطي رسالة جمع فيها الأحاديث الواردة في أنواع الشهد
فأبلغهم إلى خمسين صنفاً تقريباً.

(1) نفس المصدر، ٤/٨١.
(2) انظرهم في حاشية: الباجوري على الجوهرص١٠٣ – ١٠٤.

ص: والبَعْثُ حَقٌّ، والوَزْنُ حَقٌّ، والكِتابُ حَقٌّ، والسُؤالُ حَقٌّ، والحَوْضُ حَقٌّ، والصراطُ حَقٌّ، والجَنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، وهُما مَخلُوقتَان الآنَ باقيتَان لا يفنَيانِ ولاَ يفنَى نعيمُهُما.

أحوال القيامة

ش: **المفردات**

البعث: هو إحياء المخلوقين في الآخرة وذلك بجمع أجزائهم ورد أرواحها إليها.

حق: أي ثابت وواقع.

الوزن: وزن الأعمال الحسنة والسيئة.

والكتاب: هو الذي تسجل فيه أعمال الإنسان من خير وشر.

الحوض: حوض فيه ماء يكون في المحشر وهو الكوثر.

الصراط: هو جسر ممدود على ظهر جهنم.

الجنة: هي دار النعيم مأخوذ من جن أي ستر لأنها تستر من فيها لكثافة أشجارها.

النار: هي دار العذاب.

الشرح الإجمالي:

هذا الموضوع يبحث عن أحوال يوم القيامة بعد انتهاء أمد الدنيا وحلول النفخة الثانية.

إذ يبعث الله الخلائق جميعاً. ويحشرون على صعيد واحد، ويوضع الميزان وتعطى كتب الأعمال، ويحاسب الناس على أعمالهم فمنهم مَنْ مصيره إلى الجنة ومنهم مَنْ مصيره إلى النار فيخلد الكافر ويعذب العاصي على قدر معصيته، لذا فأنا سنبحث هنا عن هذه المسائل كل واحدة على انفرادها.

المسألة الأولى: البعث

أنكر البعض البعث والحشر مطلقاً. وهذا كفر لا شك فيه، كما أنكر بعض الفلاسفة المسلمين حشر الأجسام وادعى أن الحشر للأرواح وهذا أيضاً كفر، لأنه يتنافى مع النصوص الآتية.

وشبهتهم في ذلك هي ما يأتي:

أما من ينكر البعث مطلقاً فإنهم يعتقدون أن الإنسان إذا مات فني وصار عظاماً نخرة فإنه لا يعاد وقد نطق القرآن في كثير من الآيات معبراً عن إنكارهم.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً ۝ قَالُواْ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ [1]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [2]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ۝ أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ۝ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ [3].

وأما الفلاسفة: فإنهم قالوا لا تحشر الأجساد بل الأرواح فقط، إذ أنها إذا ماتت صارت معدومة، وإعادة المعدوم بعينه محال.

ويجاب عن ذلك:

بأن القادر الذي تمكن من أن ينشأ الإنسان من نطفة قادر على الإعادة؛ إذ من المألوف أن إعادة الشيء بعد نقضه أيسر من إنشائه أولاً، ثم إن إعادة المعدوم الذي لم يوجد يستحيل إطلاق الإعادة عليه؛ إذ لا يقال لما لم يوجد إنه معاد، أما المعدوم بعد الوجود فلا استحالة في إعادته. فإعادة بناء الدار بعد هدمه أيسر من تأسيسه مجدداً؛ إذ إعادة المعدوم يمكن الاستعانة ببعض أنقاضه، أما بناؤه مجدداً ففيه عناء، إذ يحتاج إلى تحضير وتهيئة وجمع المواد لإنشائه.

---

(١) سورة النازعات: آية ١١ – ١٢.

(٢) سورة يس: آية ٧٨.

(٣) سورة مريم: آية ٦٦ – ٦٨.

وقد جاء القرآن الكريم ناطقاً بآيات عديدة ترد على المنكرين.

منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1]. والضمير في يحييها يعود إلى العظام في الآية السابقة.

ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾[2].

ومنها قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾[3].

فقوله تعالى: ﴿مَن فِي الْقُبُورِ﴾ يدل على حشر الأجسام لأن القبور تدفن فيها الأجسام لا الأرواح.

وإلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على إعادة الأجسام.

ومن السنة:

ما روت عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يُحشَرُ الناسُ يومَ القيامَة حُفاةً عراةً غُرْلاً – يعني بلا ختان على الخِلقَةِ الأصليّة – قالت عائشة: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضُهم إلى بعض؟

فقال: (يا عائشةُ الأمرُ أشدُّ من أنْ ينظرَ بعضُهمْ إلى بعضٍ)[4].

---

(1) سورة يس: آية ٧٩.

(2) سورة البروج: آية ١٣.

(3) سورة الحج: آية ٥ – ٧.

(4) رواه مسلم، ١٥٦/٨.

ففي كل هذا دلالة واضحة على البعث، وعلى حشر الأجسام مع الأروا

الحفى والعرى وبقاء القلفة وإحياء العظام من لوازم الجسم.

ثم إن الجسم ما دام قد أتصف بكونه ممكناً يستوي وجوده وعدمه فلا

من إيجاده بعد العدم كما لا مانع من إعدامه بعد الوجود.

واستدلوا على استحالة إعادة المعدوم:

بقولهم لو أكل إنسان إنساناً آخر بحيث صار الثاني جزءً من الأول فا

الثاني إما أن تعاد فيهما فهو محال لاستحالة الجزء الواحد في آن واحدٍ معا

شخصين متباينين[1]، وإما أن يعاد في أحدهما فيكون الآخر غير معاد بجميع أج

ويجاب عن هذا:

أن المعاد هي الأجزاء الأصلية في الإنسان وهي العناصر التي خلق

أما ما يأكله الإنسان منه فإنما هو الزوائد عليها وهي لا يلزم إعادتها؛ إذ أن

هنا سيعاد بأجزائه الأصلية وتتغير هيئته عن الدنيا؛ إذ ورد أن أهل الجنة مرد

الكافر يتضخم جسمه في النار لزيادة ألم العذاب فيه.

المسألة الثانية: الوزن

الوزن هو تقدير الأعمال بميزان، والميزان ما يعرف به مقادير الأفعال

ومع أنه قد ورد عن ابن عباس أنه قال: (تُوزَنُ الحَسَنَاتُ والسيِّئَاتُ في

له، لِسانَ وكِفَّتَانِ تُوضَعُ فِيهِ أعمالُهُم...الخ)[2]. فإنا غير مكلفين بمعرفة كيفيته.

وقد وردت آيات كثيرة تدل على وجوده:

---

(1) انظر شرح التفتازاني، ص١٨٧.

(2) وتمام الأثر فأما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة فيوضع في كفة الميزان فتثقل حسناته على

يأخذ عمله فيوضع في الجنة عند منزلة فيقال له الحق بعملك فيأتي الجنة فيعرفها به، وأما الكـافر

بعمله على أقبح صورة فيوضع في كفة الميزان فيخف والباطل خفيف ثم يرفع فيلقى في النار فيُـ

الحق بعملك فيأتي منزلته في النار فيعرفها به.

منها قوله تعالى: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ [1].

وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [3] وغير ذلك من الآيات.

وهناك أحاديث كثيرة بهذا الخصوص من ذلك ما رواه أنس قال: سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة فقال: أنا فاعل قلت: يا رسول الله فأين أطلبك؟ قال: اطلبني أول ما تطلبني على الصراط. قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: فاطلبني عند الميزان. قلت: فإن لم ألقك عند الميزان. قال: فاطلبني عند الحوض فإني لا أخطي هذه الثلاث المواطن [4].

وقد أنكر المعتزلة الميزان وقالوا:

١- أن الأعمال أعراض لا يمكن إعادتها لأنها منقضية [5].

٢- وأن فرض إعادتها لا يمكن وزنها لعدم اتصافها بالخفة والثقل.

٣- أنها معلومة لله تعالى ومن العبث وزنها.

---

(١) سورة الأعراف: آية ٨.

(٢) سورة القارعة: آية ٦ – ٩.

وقد جاء الميزان بلفظ الجمع في بعض الآيات للاستعظام لكثرة ما يوزن به.

(٣) سورة المؤمنون: آية ١٠٢ – ١٠٣.

(٤) انظر التاج، ٣٧٦/٥.

(٥) لا غرابة بعد أن أوجد العلم الحديث بعض المقاييس التي يعرف بها درجة أو كمية الأشياء غير المجسمة من ذلك مقاييس الطاقة الكهربائية حيث تعرف بها الوحدات المستهلكة ومقاييس الحرارة والبرودة، والرطوبة ونحو ذلك.

ويمكن أجاب عن ذلك:

١- يمكن نقول: أن الموزون هو الكتب التي فيها الأعمال لا نفس الأعمال والكتب توصف لخفة و الثقل.

٢ ليس بمعذر على الله تعالى أن يجعل من الأعمال ما يتصف بالخفة والثقل أليس قد صح أن الموت سيؤتى به يوم القيامة على صورة كبش فيذبح بين الجنة والنار؟ وأيضاً قد ورد بأن الأعمال قد تخلق بشكل أجسام ولها ثقل فتحمل على الظهر قال تعالى:﴿قَالُواْ يَحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾[1].

٣- أن وزن الأعمال مع علم الله بها لا يعد عبثاً، إذ قد تقتضي الحكمة ذلك[2]. وعدم اطلاعنا على الحكمة لا يوجب العبث[3]، ثم إن طبيعة الإنسان مجبولة على تحكيم الأسباب والمسببات فاقتضت حكمة الله أن يوقف الإنسان بنفسه على أعماله التي عملها في الدنيا وليرى انعكاسها عليه كما يرى الزارع ثمار زرعه بحيث يحصل له يقين بما يجازى به ما لا يحصل له فيما لو قيل له إن الله علم أعمالك في الدنيا وهذا جزاؤك عليها يوم القيمة، وهذه هي الحكمة بعينها حينما ينطق الله الجوارح لتشهد على صاحبها. ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُواْ أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[4].

وقد أول المعتزلة الآيات السابقة بأن المراد بالميزان العدل في كل شيء.

ونحن نقول: إن هذا التأويل بعيد جداً بعد أن اطلعنا على ما تقدم من أثر ابن عباس وحديث أنس.

---

(١) سورة الأنعام: آية ٣١.

(٢) لعل من الحكمة تعريف العباد مقادير أعمالهم، إذ لو دخلوا الدارين قبله ربما ظن الجميع أن أعماله تستحق منزلة أعلى، وربما ظن العاصي أن عذابه أكثر من ذنبه، أو ليعرف الإنسان المقبول من عمله من المردود أو غير ذلك.

(٣) انظر التفتازاني، ص١٨٤ – ١٨٥.

(٤) سورة فصلت: آية ٢١.

هل توزن أعمال الكافرين:

في المسألة قولان:

الأول: لا يوزن لأنها تحبط كيف ما كانت لقوله تعالى: ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً ﴾ [1].

الثاني: الأصح أنها توزن وأن المراد في الآية لا نقيم لهم وزناً معتبراً أو نافعاً.

المسألة الثالثة: الكتاب

الكتاب: هو الصحيفة التي دونت فيها الملائكة أعمال الإنسان في الدنيا من خير أو شر. يدفع لكل إنسان كتابه فيقرؤه بنفسه إذ هناك يقرأ المتعلم والأمي.

فالمؤمن: يعطى بيمينه لأن كتابه مليء بالطيبات التي خصت بها اليد اليمنى.

والكافر: يأخذ بشماله ومن خلف ظهره لأنه مليء بالخبيثات والسيئات التي من شأنها أن تستعمل لها اليد اليسرى وتدفع له من خلف لأنه لا يستحق المواجهة.

والدليل على ذلك:

قوله تعالى: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ۝ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ۝ وَيَصْلَى سَعِيراً ﴾ [3].

---

(1) سورة الكهف: آية ١٠٥.

(2) سورة الأسراء: آية ١٣ – ١٤.

(3) سورة الأنشقاق: آية ٧ – ١٢.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا من أوتيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ ◦ إ... مُلاقٍ حسابيَهْ ◦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ◦ فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ ◦ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ◦ كُلُوا وَاشْ... أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ ◦ وأمَّا منْ أوتيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فيقولُ يالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾[1]

المسألة الرابعة: السؤال

المراد بالسؤال هو محاسبة الله عباده في المحشر وهذا قد ثبت بال... من الكتاب والسنة وإجماع المسلمين.

أما الكتاب: فقد وردت آيات كثيرة تدل على وقوعه لا محالة إلا... فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ [2]. وقوله تعالى: ﴿ ... ◦ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخ... به الله ﴾ [4].

---

(1) سورة الحاقة: آية ١٩ – ٢٥.

فالصحيفة بمثابة الوثيقة التي تدفعها المدرسة إلى الطالب بعد امتحانه في نهاية السنة الدرا... سعيه واجتهاده فإما أن تكون الفوز أو الرسوب أو الاكمال.

وقد سئل ابن عباس عن كيفية إعطاء الناس كتبهم يوم القيامة فقال: المؤمن يعطى كتابه بي... أثبتت فيها حسناته وسيئاته يقرأ سيئاته في باطنها وحسناته في ظاهرها فيجد فيها عملت ... كذا وكذا. وقلت كذا وكذا في سنة كذا وكذا في شهر كذا وكذا في يوم كذا وكذا في ساعة ... كذا وكذا فإذا انتهى إلى أسفلها قيل له غفر الله لك فاقرأ ما في ظهرها فيقرأ حسناته فيسر... لونه عند ذلك.

ويعطى الكافر كتابه بشماله ويقرأ حسناته في باطنها وسيئاته في ظاهرها فإذ انتهى إلى آ... حسناتك قد ردّت عليك أقرأ ما في ظهرها فيرى فيها سيئاته قد حفظت عليه كل صغيرة و... ذلك ويسود وجهه. وتزرق عيناه ويقول عند ذلك يا ليتني لم أوت كتابيه. نثر اللآلي، ص٤

(2) سورة الانشقاق: آية ٨.

(3) سورة الغاشية: آية ٢٤ – ٢٥.

(4) سورة البقرة: آية ٢٨٤.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [١]. وإلى غير ذلك.

وأما السنة: فهناك أحاديث كثيرة بهذا الخصوص.

منها قوله ﷺ :(لا تزولُ قدما عبدٍ يومَ القيامةِ حتى يُسأل عن أربعٍ عن عمرهِ فيما أفناهُ، وعنْ جسدهِ فيما أبلاهُ وعنِ علمهِ فيما عملَ بهِ وعنِ مالهِ منْ أينَ أكتسبهُ وفيما أنفقَهُ) [٢].

ومنها ما أخرجه الشيخان: عن ابن عمر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنّ الله يدني المؤمنَ حتى يَضَعَ كَنَفَهُ عليهِ ويسترُهُ من الناسِ ويقرّرَهُ بذنوبهِ ويقولُ لهُ: أتعرفُ ذنب كذا؟ أتعرفُ ذنب كذا؟ فيقولُ، ربِّ أعرفُ. حتى إذا قرّرَهُ بذنوبه ورأى في نفسهِ أنهُ قد هلكَ قال إني قد سترتها عليكَ في الدنيا وأنا أغفرُها لك اليومَ ثمّ يُعطى كِتابَ حسناتهِ. وأما الكفّارُ والمنافقونَ فيقولُ الأشهادُ، هؤلاءِ الذينَ كذبوا على ربّهم إلا لعنةُ الله على الظالمين) [٣].

إلى غير ذلك من الأحاديث [٤].

المسألة الخامسة: الحوض

الذي يبدو من اختلاف الروايات في مكان الحوض هل هو في الموقف أو في الجنة؟ أن هناك حوضين.

أحدهما: في الموقف

والثاني: في الجنة

---

(١) سورة ص: آية ٢٦.

(٢) رواه الترمذي انظر مشكاة المصابيح، ٦٥٦/٢.

(٣) متفق عليه يلاحظ مشكاة المصابيح، ٦٢/٣.

(٤) من ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك) قلت: أوليس يقول الله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ فقال: (إنما ذلك العرض. ولكن من نوقش الحساب فقد هلك) متفق عليه، انظر المصدر السابق.

والدليل على وجوده قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [1]. وأصل الكوثر الخير الكثير وقد أطلق على الحوض الخاص برسول الله ﷺ.

وقوله ﷺ فيه: (حوضي مسيرةُ شَهرٍ، وَزواياهُ سواءٌ، وماؤُهُ أبيضُ من اللبنِ، وريحُهُ أطيبُ من المسكِ، وكيزانُهُ أكثرُ من نجومِ السَّماءِ، مَنْ شَرِبَ منهُ فلا يظمأُ أبدا) [2]. وتناول الشرب منه خاص بالمؤمنين دون غيرهم.

المسألة السادسة: الصراط

هو الجسر الممدود على ظهر جهنم أدق من الشعرة وأحدُّ من السيف يعبره أهل الجنة وتزلُّ به أقدام أهل النار.

قال تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[3].

وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أن أناسا قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: (هل تُضارُّون في القمر ليلةَ البدر ليس دونهُ سَحابٌ؟) إلى أن قال: (وَيَضربُ اللهُ جسْرَ جَهَنَّمَ فأكون أنا وأمتي أولَ مَنْ يَجيزُ. ودعاءُ الرُّسلِ يومئذٍ اللهمَّ سلِّمْ سلِّمْ. وبهِ كلاليبُ مثلُ شوكِ السَّعْدانِ. أمَا رأيتم شوكَ السَّعْدانِ؟[4]. قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فَإنها مثلُ شوكِ السَّعْدانِ غيْرَ أنها لا يَعلمُ قدْرَ عِظَمِها إلا اللهُ جلَّ جلالُهُ فتخطَفُ النَّاسَ بأعمالِهِمْ منهم المُوبقُ بعَمَلِهِ ومنهم المُخَردَلُ ثمَّ ينجو) [5].

وقد أنكره بعض المعتزلة؛ إذ قالوا إنه بهذه الصفة لا يمكن العبور عليه. وإن أمكن ففيه تعذيب للمؤمنين.

---

(1) سورة الكوثر: آية ١.

(2) رواه البخاري، انظر التاج، ٥/ ٢٨٠.

(3) سورة الصافات: آية ٢٣.

(4) نبت ذو شوك عظيم.

(5) صحيح مسلم ١/ ١١٣ ولكن اللفظ للبخاري، ومعنى المخردل أي المقطع أي تارة تعود وتارة ترفع حتى يصل في نهايتها.

وقد أولوا الآية بأن المراد فاهدوهم إلى الطريق الذي يوصل إلى النار.

ويجاب عن هذا:

بأن الله يجعل عبوره سهلاً على المؤمنين، إذ منهم من يعبره كالبرق الخاطف، ومنهم كالريح المرسلة، ومنهم كالجواد، ومنهم من تسرح رجلاه في النار وتتعلق به يداه، ومنهم من يراه كالوادي الواسع.

وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾[1]. أي النار، فورودها بالنسبة للمؤمنين مرورهم على الصراط فوقها، وأما ما أولوا به الآية فبعيد إذ أن النار هناك أمامهم فلا حاجة لهم إلى من يهديهم إلى طريقها.

المسألة السابعة: الجنة والنار

في هذه المسألة نقطتان:

إحداهما – هل تفنى الجنة والنار وأهلها أو يبقون؟

ثانيهما – هل هما مخلوقتان الآن أو تخلقان يوم القيامة؟

النقطة الأولى:

الجنة هي دار النعيم يدخلها المؤمنون ويخلدون فيها أبداً ليس فيها حر ولا برد ولا مرض ولا حاجة ولا موت. وهي لا تفنى ولا يفنى أهلها قال تعالى في حق المؤمنين: ﴿ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ۞ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾[3]. وغير ذلك من الآيات الدالة على بقاء الجنة وخلود أهلها.

---

(1) سورة مريم: آية ٧١.

(2) سورة البقرة: آية ٨٢.

(3) سورة الكهف: آية ١٠٧ – ١٠٨.

والنار هي دار العقاب يدخلها الكافرون ويخلدون فيها أبداً قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾ (٢).

ومن ذلك ما رواه الشيخان عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : (إذا صارَ أهلُ الجنةِ وأهل النار جيءَ بالموت حتّى يُجعَلَ بينَ الجنةِ والنار، ثمَّ يُذبَحُ، ثمَّ يُنادي مُنادٍ يا أهلَ الجنةِ لا موتَ، ويا أهل النار لا موتَ. فيزدادُ أهلُ الجنّةِ فرحاً إلى فرحهم ويزدادُ أهلُ النّارِ حُزناً إلى حزنهمْ) (٣). أما عصاة المؤمنين فإنهم يدخلون النار ويعذبون فيها على قدر معصيتهم ثم يخرجون منها إلى الجنة.

فقد روى الشيخان أنه ﷺ قال: (يَخرُجُ من النار من كانَ في قلبهِ مثقالُ ذرةٍ من الإيمان) (٤).

وقد أخرج الطبراني وابن مردويه بسند صحيح عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : (إنّ أناسا من أمتي يُعذّبونَ بذُنوبهم فيكونونَ في النار ما شاءَ الله أنْ يكونوا ثمَّ يعيّرهم أهلُ الشِّركِ فيقولون ما نرى ما كُنتمْ عنهُ من تصديقكُم نفعكُمْ فلا يبقى موحدٌ إلا أخرجَهُ اللهُ منَ النار) ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ (٥).

وقد أنكر جماعة كون الجنة والنار حسيتين وادعوا بأن المراد بالجنة الواردة بالأدلة ما فيه ارتياح تطوف فيه النفس والروح، والمراد بالنار ما فيه تعب وإزعاج تعانيه النفس والروح.

---

(١) سورة البينة: آية ٦

(٢) سورة الزخرف: آية ٧٧.

(٣) التاج، ٥/ ٤٢١.

(٤) المصدر نفسه، ١/٣٤.

(٥) يلاحظ بمعناه تفسير ابن كثير ٤/١٥٢ – ١٥٣.

ويجاب عن هذا:

بأنه مخالف لظاهر النصوص الشرعية. وأنه مناف للمعاد الجسماني. وقد ثبت فيما مضى إعادة الجسم والروح معاً، ثم إنه قد ورد في ألفاظ الآيات ما يدل على أن الجنة والنار محسوستان من ذلك قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ۝ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾[1]. وقوله أيضاً: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۝ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ۝ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ۝ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ [2]. وقوله في حق أهل النار: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا ﴾ [3]. فنضجان الجلود لا يكون إلا بالنار الحسية.

وغير ذلك من الأدلة [4].

وقد أنكرت الجهمية [5]. استمرار الجنة والنار وبقاءهما:

قالوا: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار واستمتع أهل الجنة بقدر أعمالهم وأهل النار أذاقهم الله العذاب بقدر أعمالهم وكفرهم أفنى الله الجنة والنار وأهليهما.

واحتجوا لذلك بما يأتي:

١- بقوله تعالى: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾ ولا يكون آخراً إلا إذ فني أهل الجنة وأهل النار ليبقى آخراً.

---

(١) سورة الغاشية: آية ٨ – ١٦.

(٢) سورة الواقعة: آية ٢٦ – ٣٤.

(٣) سورة النساء: آية ٦٥.

(٤) هم أصحاب جهم بن صفوان وهم من الجبرية.

(٥) الجهمية نسبة إلى جهم بن صفوان الراسبي وكنيته أبو محرز ويعرف بالترمذي والسمرقندي كان كاتباً للحارث بن سريج عظيم الأزد بخراسان والذي خرج على الدولة الأموية في أواخر أيامها فقتله سليم بن أحوز المازني سنة ١٢٨هـ بأمر من والي خراسان نصر بن سيار / الفرق بين الفرق، ص١٢٨.

٢- بقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۞ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [١]. فالاستثناء في الآيتين من الخلود وهذا يدل على أن بعض من يدخل الجنة لا يخلد إذ قال إلا ما شاء ربك.

٣- إن الإحراق بالنار ينفي الرطوبة والبنية وهما شرط الحياة، فبقاء الحياة مع الاحتراق خروج عن العقل.

ويجاب على ذلك:

بأن هذا الإدعاء مخالف لما تقدم من الآيات والأحاديث الدالة على بقاء الجنة والنار وأهلهما.

وعن الآية الأولى: بأن المراد بالآخر بالنسبة للبقاء في الدنيا.

وعن الآية الثانية: بأن الاستثناء يكون فيها من قوله سعدوا وشقوا لا من الخلود أي أن أهل الشقاوة مخلدون في النار إلا من شاء الله أن لا يخلده كعصاة المؤمنين وأن أهل السعادة هم في الجنة إلا من شاء الله تعذيبه منهم لفترة فأنه يعذب ويخرج[٢].

وعن الدليل الثالث: أنه ما دامت حياتهم بخلق الله فإنه قادر على أن يخلقهم بدون رطوبة وبدون بنية تفنيهما النار.

النقطة الثانية:

ذهب أهل الحق إلى أن الجنة والنار مخلوقتان وهما موجودتان الآن وذهب أكثر المعتزلة إلى أنهما يخلقان يوم القيامة.

---

(١) سورة هود: آية ١٠٦ – ١٠٨.

(٢) والتعبير بما في الآية التي هي لغير العاقل ولم يأت بمن التي هي للعاقل لملاحظة العدد لا الأشخاص، والعدد غير عاقل.

واستدل الأولون بما يأتي:

١- بقصة سيدنا آدم وحواء؛ حيث اسكنهما الله الجنة وأخرجهما منها. وهذا دليل على أن الجنة موجودة الآن.

٢- ظاهر الآيات الدالة على إعدادها وتهيئتها مثل قوله تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ قد أتى بالفعل بلفظ الماضي.

٣- ويمكن الاستدلال على وجودها بقصة حبيب النجار حينما قتله قومه إذ قال: ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ٭ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ٭ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾[1]. إذ قيل له ادخل الجنة بعد قتله وهذا دليل على وجودها.

٤- هناك حديث يدل على أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة وهو ما رواه عبد الله بن مسعود مرفوعاً أنه قد سئل عن هذه الآية: ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ قال: أما أنا قد سألنا عن ذلك فقال: أرواحُهُم في جوف طَير خُضرٍ لها قناديلٌ معلّقةٌ بالعرشِ تَسرحُ في الجنةِ حيثُ شاءتْ ثم تأوي إلى تلك القناديل... الحديث[2].

واستدل الآخرون بما يأتي:

١- أن الله وصف أكل الجنة بأنه دائم بقوله: ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وِظِلُّهَا﴾ فلو كانت موجودة للزم هلاك أكلها إذ يقول تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ وهلاكه يتنافى مع الدوام المذكور في الآية السابقة. إذن فهي ليست موجودة الآن.

---

(١) سورة يس: آية ٢٥ – ٢٧.

(٢) رواه مسلم :٣٨/٦، برقم ٤٩٩٣.

ويمكن أن يجاب عن هذا:

بأنه لا تنافي بين الآيتين لما يأتي:

أ- أن المراد بدوام الأكل عدم انقطاعه بالكلية بأن يذهب ويخلفه غيره. أما دوام أكل بعينه فلا يعقل وإلا لما سمي أكلاً وهذا لا ينافي شموله بالهلاك. إذ كل أكل يهلك ولو لحظة.

ب- أن هلاك الشيء لا يستلزم فناءه بل قد يطلق على الشيء إذا خرج عن حد الانتفاع به إنه هالك ولو كان موجوداً كدار خربة يقال لها هالكة ولا يقال فانية.

وقد يكون هلاك أكل أهل الجنة من هذا القبيل.

ج- يمكن أن يراد بالهلاك الإمكان الذاتي أي كل شيء قابل للهلاك ولو لم يهلك فعلاً. فهو بمنزلة العدم إلا الله تعالى.

واستدلوا أيضاً:

بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً﴾ (1).

وجه استدلالهم بها:

أنه تعالى قال: ﴿نَجْعَلُهَا﴾ وهو مستقبل فيكون المعنى نجعلها في الآخرة.

ويجاب عن ذلك:

بأن نجعل فعل مضارع يحتمل الحال والاستمرار والاستقبال وما دام هذا الاحتمال موجوداً فلا يجوز حمله على المستقبل فقط.

ويمكن أن يفسر بمعنى التمليك والتخصيص لا الخلق.

٣- وقد أجابوا عن الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ﴾ بأن المراد بها التعبير بالماضي عن المستقبل أي (تعد) وعبر به لتحقق الوقوع مثل (نفخ في الصور) أي ينفخ.

---

(1) سورة القصص: آية ٨٣.

ويرد على هذا بأن حمله على الماضي أولى من العدول به عن ظاهره ما دام أن قصة آدم تدل على ذلك.

أين مكان الجنة؟

الأكثرون على أن مكانها الآن فوق السماوات السبع وتحت العرش وذلك بإشارة قوله ﷺ: (في الجنةِ مائةُ درجةٍ ما بينَ كلّ درجتينِ كما بينَ السّماءِ والأرضِ والفردوسُ أعلاها درجة ومنها تفَجّرُ أنهارُ الجنّةِ الأربعةِ ومنْ فوقِها يكونُ العرشُ فإذا سألتمُ اللهَ فسلُوهُ الفردَوْس) [1].

وقيل في السماء الرابعة وقيل غير ذلك.

أما النار فتحت الأرضين السبع. والأولى القول بأن محلها بمكان لا يعلمه إلا الله[2].

---

(1) رواه الترمذي والبخاري، انظر التاج ٥/٤٠٤.

(2) لاحظ في جميع ذلك نثر اللآلي، ص٦٩ – ٧٧ و ٢٧٥ – ٢٧٧، شرح رمضان، ص ٣٢٣ – ٣٢٦.

ص: وَالْكَبِيرةُ لاَ تُخْرِجُ المُؤْمن من الإيْمان. ولا تُدْخِلُهُ فِي الكُفْرِ.

بحث الكبيرة

الخلاف مع الخوارج ومع المعتزلة

ش: المفردات

الكبيرة[1] : يراد بها عند الإطلاق الكفر إذ لا ذنب أكبر منه.

الكبيرة: بالجملة المراد بها المعصية دون الكفر.

لا تخرج المؤمن: أي لا تجعله متخلياً عن الإيمان ولا يوصف بالكفر.

الشرح الإجمالي:

اختلف المسلمون في مرتكب الكبيرة غير أهل الكفر هل هو مؤمن، أو كافر، أو منزلة بين المنزلتين؟

فذهب أهل الحق:

إلى أنه مؤمن غير خارج بعملها عن الإيمان ولا داخل في الكفر، إلا أن يكون قد عملها مستحلاً لها أو مستخفاً في مشروعية النهي عنها، أو ترك الواجب مستخفاً في مشروعية الأمر به، فأنه مرتد وكافر.

واستدلوا على مذهبهم بما يأتي:

١- قالوا: إن حقيقة الإيمان هو التصديق القلبي فإذا عمل المؤمن المعصية وقلبه لا يزال مصدقاً فإنه يبقى متصفاً به[2].

---

(١) اختلف في الكبيرة فقيل كل ما كان في فعله مفسدة، وقيل كل ما توعد عليه الشارع، وقيل إن كل معصية كبيرة بالنسبة للأقل منها ضرراً وصغيرة بالنسبة للأكثر منها ضرراً، ومن الكبائر الكفر وهو أعظمها، وقتل النفس بغير حق، وقذف المحصنة، والزنا، والفرار يوم الزحف، والسحر، وأكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين، والصغيرة في الحرم، والسرقة، وشرب الخمر، وأكل الربا.

(٢) فإن قيل على هذا يلزم أن من تلفظ بالكفر أو عمل عملاً يكفره كأن سجد لصنم أو ألقى المصحف في القاذورات أو نحو ذلك لا يلزم تكفيره إلا أن يبدو لنا إنكاره القلبي ورجوعه عن الاقرار.

٢- بإطلاق لفظ الإيمان على من عمل الكبائر والذنوب منها قوله تعالى: ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [1]. والقصاص لا يكتب إلا على قاتل النفس المحرمة عمداً.

ومنها قوله تعالى:﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ تُوبُواْ إِلَى الله تَوْبَةً نَصُوحاً ﴾[2]. والتوبة لا تكون إلا عن معصية.

ومنها قوله تعالى:﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ ﴾ [3]. والاقتتال بين المسلمين من الكبائر ومع ذلك سماهم بالمؤمنين.

ومنها قوله ﷺ: (ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دَخَل الجنةَ فقالَ أبوُ ذرّ وإنْ زنى وإنْ سرقَ؟ قال رسولُ الله ﷺ وإنْ زنَىَ وَإنْ سرقَ ثمَّ قالَ وإنْ زنى وَإن سرقَ؟ قالَ: وَإنْ زَنَىَ وإنْ سَرَقَ علىَ رَغْمِ أنْفِ أبي ذرّ) [4].

٣- ومن ذلك إجماع الأمة من عصر النبي ﷺ إلى يومنا هذا على الصلاة على من مات من أهل القبلة ولو لم يتب فلو كان كافراً لما جازت الصلاة عليه والاستغفار له [5].

قلنا: إن عمله أو تلفظه هذا إمارة من إمارات الانكار ولهذا يحكم بكفره.

[1] سورة البقرة: آية ١٧٨.

[2] سورة التحريم: آية ٨.

[3] سورة الحجرات: آية ٩.

[4] البخاري ١٧٤/٩ ومسلم واللفظ له ٦٩/١.

[5] أخرج الطبراني في الكبير بمعناه وهو قوله ﷺ : (صلوا على من قال لا إله إلا الله وصلوا وراء من قال لا إله إلا الله) ٣٤٢/١٢.

وذهبت الخوارج[1] إلى أنه كافر إذ لا واسطة بين الكفر والإيمان، وأن مرتكب الكبيرة عليه الكفر في ظواهر النصوص وأن الفاسق أريد به الكافر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (من لم يعمل بحكم الله.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [3]. فقد الكفر فسقاً في هذه الآية.

وقد جعله أيضاً مقابلاً للإيمان بقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ يَسْتَوُونَ﴾ [4].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[5]. إذ جعل تارك الحج كافراً ومن ذلك قوله ﷺ: (الصلاة متعمداً فقد كفر) [6].

واحتجوا بأن العذاب هو من خصائص الكافرين فإن عُذِّب مرتكب فإنما لكفره بارتكابها لقوله تعالى: ﴿ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾[7]. و

---

(1) اسم لفرقة سياسية دينية خرجت عن الناس أو عن الحق أو عن طاعة سيدنا علي كرم الله يدعون أن سبب التسمية بذلك مأخوذ من الخروج في سبيل الله ويسمون بالحرورية نسبة (إ بظاهر الكوفة اجتمعوا فيها بعد خروجهم من جيش علي في معركة صفين.
ويسمون (المُحكمة) لأنهم لم يرتضوا بالتحكيم وقالوا لا حكم إلا الله ويسمعون (بالشراة) جمع يقولون شرينا أنفسنا لدين الله ويسمون (بالمارقة) لأنهم مرقوا عن جماعة المسلمين.

(2) سورة المائدة: آية ٤٧.

(3) سورة النور: آية ٥٥.

(4) سورة السجدة: آية ١٨.

(5) سورة آل عمران: آية ٩٧.

(6) رواه البخاري والترمذي وأحمد، انظر السراج المنير ٣٤٧/٣.

(7) سورة طه: آية ٤٨.

يَصْلَاهَا إِلاَّ الأَشْقَى ، الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [1]. ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ [2]. وإلى غير ذلك من النصوص الدالة على كفر مرتكب الكبيرة.

ويجاب عن ذلك:

بأن الكفر في الآية الأولى يكون إذا استحل الحكم بغير ما أنزل الله وهذا لا خلاف في كفره وكذا يحمل حديث ترك الصلاة وآية الحج[3]، وأن المراد بالفسق في الثانية وفي الثالثة الكفر لأنه من أعظم الفسق.

وعن الخلود في آية القتل بأن المراد به المكث الطويل لا البقاء إلى الأبد. ولذا لم يقل أبداً كما قال في عذاب الكافرين.

إذن فلا بد من العدول عن ظواهر هذه النصوص لتتفق مع الإجماع ومع النصوص التي تدل على أن مرتكب الكبيرة مؤمن.

وذهبت المعتزلة:

إلى أنه يكون فاسقاً لا مؤمناً ولا كافراً. بل منزلة بين المنزلتين.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١- قالوا اتفق الكل على تسمية مرتكب الكبيرة فاسقاً، واختلفوا في هل أنه مؤمن وهو مذهب أهل السنة أو كافر وهو مذهب الخوارج. فأخذنا بالمتفق عليه وتركنا المختلف فيه وقلنا هو فاسق وليس بمؤمن ولا كافر.

ويجاب عن هذا:

بأن الأمة قد أجمعت على وجود نوعين كافر ومؤمن فإحداث نوع ثالث فيه خروج عن هذا الإجماع.

---

(١) سورة الليل: آية ١٥ – ١٦.

(٢) سورة النساء: آية ٩٣.

(٣) أو أنه من باب الترهيب والتخويف.

٢- قالوا: إنه ليس بمؤمن إذ قد جعل الله الفسق مقابلاً للإيمان بقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً ﴾ وأن النبي ﷺ قد نفي الإيمان عن مرتكب الكبيرة فقال: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ). وقوله ﷺ : (لا إيمان لمنْ لا أمانةَ لهُ).

وليس هو بكافر؛ لأن الأمة كانوا يصلّون عليه ويدفنونه مع المسلمين ولا يقتلونه ويجرون عليه أحكام المرتد فهو إذن ما بين الكفر والإيمان.

ويجاب عن الآية:

بأن المراد بالفسق هنا الكفر لأنه أعظم الفسق؛ لذا جعل مقابل الإيمان. وعن الحديث الأول بأن المراد نفي الإيمان عنه حال وقوعه في الزنى إذ لو اتصف بالإيمان وأيقن بأن الله سيغضب عليه ويعاقبه لما ارتكب هذا المنكر.

وعن الحديث الثاني بأنه قد انتفى عنه الإيمان الكامل أي لا إيمان كاملاً أو من باب الترهيب والتغليظ بدليل حديث أبي ذر السابق إذ قد نص على أن الزاني والسارق يدخلان الجنة.

ص: وَاللهُ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَجُوزُ العِقَابُ عَلَى الصَّغِيرَةِ. والعَفْوُ عَنِ الكَبِيرةِ إِذا لَمْ تكنْ عن استِحلالٍ. والاستِحْلالُ كُفْرٌ.

العفو عن المذنبين

ش: المفردات

الشرك: هو أن يجعل مع الله إلهاً آخر.

والمراد هنا الكفر بأنواعه الآتية وهي:

١- الكافر – من لا إيمان له.

٢- المنافق – من اظهر الإيمان واضمر الكفر.

٣- المرتد – من كفر بعد إيمانه.

٤- المشرك – من يقول بإلهين فأكثر.

٥- الكتابي – هو من دان بدين غير الإسلام.

٦- الدهري – هو من قال بقدم الدهر واسند الحوادث إليه.

٧- الزنديق – من اعترف بالنبوة وقال بقدم الدهر [1]. واسند الحوادث إليه.

٨- الملحد – هو من أنكر وجود الله.

الاستحلال – هو اعتقاد حل المحرم وإباحة الفرض.

الشرح الإجمالي:

أجمع المسلمون على أن جريمة الكفر إذا مات الإنسان عليها لا تغفر له لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ الآية وعللوا ذلك بما يأتي:

١- أن الكفر نهاية في الجناية لا تحتمل الإباحة ورفع الحرمة أصلاً فلا تحتمل العفو عن الكرامة.

---

[1] يلاحظ شرح رمضان، ص٢٤٤.

عنه.

٢- أن الكافر يعتقد أن كفره حق فلا يطلب العفو

٣- أن الكافر ينوي البقاء على كفره ولو بقي أبداً. فلا بد أن يلقى جزاء

إذا الجزاء من جنس العمل.

أما ما دون الكفر من الذنوب[1]. فقد اختلف المسلمون في العف

مذهبين:

الأول: مذهب أهل الحق

قالوا: يجوز أن يغفر الله لمن يشاء ما عمله من الذنوب الصغائر

لم يتب فاعلها.

واستدلوا بقوله تعالى:﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ وكل ذنب دون الكفر

احتمال المغفرة والعفو، وقوله تعالى:﴿إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾[2]. و

﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ [3].

---

(١) الذنوب على ثلاثة أوجه:

١- ذنب فيما بين العبد وبين الله تعالى. كالزنى، واللواطة، والخمر فهذا داخل في رجاء

٢- وذنب فيما بين العبد وبين الأعمال كان يترك الصلاة والصيام والزكاة والحج. فهذا وقضاء ما بذمته منها.

٣- وذنب بين العبد وبين عباد الله كالغصب والسرقة والغيبة فلا بد لصحة التوبة من هذه الحقوق وقد سئل الإمام علي رضي الله عنه عن التوبة فقال:

هي اسم يقع على ست معان:

١- على الماضي من الذنوب – الندامة.

٢- ولتضييع الفرائض – الإعادة ورد المظالم.

٣- وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية.

٤- وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما اذقتها حلاوة المعصية.

٥- والبكاء بدل كل ضحك ضحكته.

شرح رمضان، ص٣٤٥ – ٣٤٦.

(٢) الزمر: آية ٥٣.

(٣) سورة غافر: آية ٣.

والثاني: مذهب المعتزلة

قالوا: إن الله يغفر الصغائر أو الكبائر المقرونة بالتوبة. ولا يغفر الكبائر بدون توبة العبد.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١- بالآيات والأحاديث الواردة في عذاب العصاة

مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ [١].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [٢] وغيرهما من النصوص.

ويجاب عن هذا:

بأن هذه ونحوها تدل على وقوع العذاب لا وجوب وقوعه. ومع ذلك فيمكن تخصيص عمومها بمن عفى الله عنه واقتصارها على من لم يرد الله العفو عنه.

٢- واستدلوا أيضاً بأن في هذا فسح مجال لأهل الموبقات؛ إذ القول بهذا إقرار محض له على الاستمرار في الذنب. وهذا أمر يتنافى مع آيات الزجر.

ويجاب عن هذا:

بأن جواز العفو لا يستلزم وقوعه لا محالة إذ أن الغالب وقوع التعذيب وأن العفو محض لحتمال فضل الله وكرمه فلا يؤدي ذلك إلى التمادي والاستمرار على المعصية.

وما دام العفو عن المعصية محض فضل الله تعالى فيجوز أن يعذب على الصغيرة ويعفو عن الكبيرة إذ يقول الله تعالى: ﴿لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾[٣]. وإحصاء الصغيرة ليس إلا للسؤال عليها.

---

(١) سورة النساء: آية ١٤.

(٢) سورة الانفطار: آية ١٤.

(٣) سورة الكهف: آية ٤٩.

وقد ذهب بعض المعتزلة:

إلى أنه إذا اجتنب الكبيرة لم يجز تعذيبه على الصغيرة، واسند

تعالى:

﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [1]. والسيئات هنا يراد به

لأنها جعلت مقابل الكبائر.

ويجاب عن هذا:

بأن المراد بالكبائر هنا الكفر بأنواعه [2]. إذ الكافر إذا أسلم غفر ذنوبه؛ لأن الإسلام يجب ما قبله. وهذا إذا لم يكن مرتكبها مستحلاً لفعلها.

أما المستحل لفعل المعاصي أو ترك الفرائض فإن ثبتت الفرضية أ بالدليل القطعي [3]. وأنكر ذلك فهو كافر وأن بدليل ظني فهو فاسق.

---

(١) سورة النساء: آية ٣١.

(٢) وقد جاء بلفظ الجمع لأن الكفر أنواع أو لأنه إراد أفراد الكفر الموجودة في أفراد الكافرين.

(٣) هو ما ورد بنص القرآن أو بالسنة المتواترة أو المشهورة المستفيضة.

ص: والشَفَعةُ ثابِتةُ للرُسُل والأخْيَارِ فِي حَقٍّ أهْلِ الكَبَائِر.

الشفاعة

ش: المفردات

الشفاعة: هي التوسط بين اثنين.

الأخيار: هم الأنبياء والعلماء والصالحون.

الشرح الإجمالي:

أي أنه قد ثبت بالأخبار المستفيضة أن الله سيأذن لأهل الخير من الأنبياء والصالحين في التوسط لأهل الكبائرْ من المسلمين لإنقاذهم من العقاب يوم القيامة.

وفي هذا اختلف العلماء إلى مذهبين:

أولاً: مذهب أهل الحق

قالوا بأن الشفاعة ثابتة يوم القيامة.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١- بقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [(١)]. واستغفار النبي ﷺ للمؤمنين شفاعة لهم.

٢- بقوله تعالى: **﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾** [(٢)].

٣- وقوله تعالى: **﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾**[(٣)]. وهي تدل على وجود الشفاعة لغير الكافرين وإلا لما كان لنفيها عنهم معنى في مقام ذمهم وتقبيح حالهم.

٤- وقوله ﷺ **(شَفَاعَتِي لأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي)** [(٤)].

---

(١) سورة محمد: آية ١٩.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٥٥.

(٣) سورة المدثر: آية ٤٨.

(٤) التاج، ٥/ ٣٨٣.

ثانياً: مذهب المعتزلة والخوارج

قالوا لا توجد شفاعة في العفو عن المعاصي لأن الكبائر لا تفيد فيها الشف بل لا بد من توبة فاعلها، والصغائر يجب على الله العفو عنها إن اجتنبت الكبائر موجب للشفاعة، وأما عند الخوارج فإنه كافر كما تقدم.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١- بقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ (١).

٢- وبقوله تعالى: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ (٢).

ويجاب عن الآية الأولى:

أنها نزلت في حق اليهود وهم كفار؛ إذ قالوا نحن أبناء إبراهيم وأحباؤه نعذب لأجله. وعن الثانية بأن المراد بالظالمين الكافرون؛ لأن الظلم إذا أطلق أريد الكفر؛ لأنه الكامل عند الإطلاق.

وقد أولوا الآيات التي استدل بها أهل الحق بأن المراد بها الشفاعة لزي الثواب.

ونقول: هذا مخالف للنصوص الدالة على الشفاعة، إذ أنها دالة على العفو المعصية لا لزيادة الثواب.

---

(١) سورة البقرة: آية ٤٨.

(٢) سورة غافر: آية ١٨.

ص: وَأَهلَ الكَبَائرِ مِنَ المُؤمِنينَ لاَ يخَلدونَ فِي النَّارِ.

ش:

تقدم أن عقيدة أهل السنة والجماعة أن مرتكب الكبيرة هو مؤمن، وعلى هذا الأساس فإنه إن ادخل النار ليعذب على قدر ذنوبه فلا بد من أن يخرج إلى الجنة.

والدليل على ذلك:

ما جاء من النصوص الدالة على تخليد المؤمن في الجنة أو دخوله الجنة أو مجازات أهل الخير بالخير.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ [1].

ولا شك أن الإيمان من جملة عمل الخير فلا بد من أن يرى ثوابه ولا يمكن ذلك مع تخليده في النار.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ الله الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [2]. ومن عمل الكبيرة فهو من جملة المؤمنين فلا بد من أن يدخل الجنة بموجب وعده تعالى.

ثم إن تخليد المؤمن في النار زيادة في جزائه إذ الخلود أعظم عقاب وحينئذ لم يبق فرق بين الكافر والمؤمن والعاصي في العذاب، وهذا لا يعقل.

---

(1) الخير يطلق على معان منها:

1- على المال كقوله تعالى: ﴿ إِن تَرَكَ خَيْراً ﴾- أي مالاً.
2- على الإيمان كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْراً﴾ – أي إيماناً.
3- على الأفضل كقوله تعالى: ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ – أي أفضل.
4- على العافية كقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ – أي بعافية.
5- على الأجر كقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾- أي أجر.

شرح رمضان، ص ٢٥٣.

(2) سورة التوبة: آية ٧٢.

أما المعتزلة والخوارج:

فإنهم يقولون: إن من يدخل في النار إما كافر أو صاحب كبيرة مات على غير توبة وكلاهما من أهل الخلود في النار.

وأما صاحب الكبيرة فلما تقدم من أدلتهم أنه غير مؤمن وقد تقدم ردنا عليهم فيما سبق.

الفصل الرابع

الإيمـــــــــــان

ويتضمن:

١- تفسير الإيمان.

٢- هل يزيد وينقص؟

٣- هل الإسلام والإيمان واحد؟

٤- خاتمة الإنسان في الدنيا.

ص: والإيمَانُ: هُوَ التَصديقُ بِمَا جَاء بِهِ النَّبِيّ ﷺ مِنْ عِنْدَ الله تَعَالَى. والإقْرَارُ بِهِ أمَّا الأعْمَالُ فَهِيَ تَتَزَايَدُ فِي نَفْسِها، والإيمَانُ لاَ يزِيدُ ولاَ ينقُصُ، والإسلامُ واحِدٌ، وإذا وجدَ مِنْ العَبْدِ التَصديقُ والإقرارُ صَحَّ لهَ أنْ يَقُولَ أنَا حقًا، ولا ينبغي أنْ يَقُولَ أنا مُؤمنٌ إنْ شَاء الله تعالى.

الإيمان والإسلام

ش: المفردات

الإيمان: في اللغة التصديق والإذعان.

الإسلام: في اللغة الانقياد والخضوع.

الشرح الإجمالي:

في هذا الموضوع ثلاثة أبحاث هي:

١- هل يكفي إذعان القلب بدون الإقرار باللسان؟

٢- هل الأعمال لها أثر في زيادة الإيمان ونقصانه؟

٣- هل الإسلام هو نفس الإيمان أو غيره.

المبحث الأول

ما هو الإيمان

١- ذهب جمهور المحققين إلى أنه هو التصديق بالجنان [1].

أما الإقرار باللسان فهو شرط لإجراء الأحكام في الدنيا إذ هو دالّ على إيمانه فقط.

ويترتب على هذا: أن من آمن بقلبه ولم يقر بلسانه فإنه مؤمن عند الله تعالى ويعامل معاملة الكافر في أحكام الدنيا، ومن أقر بلسانه ولم يؤمن بقلبه فهو كافر عند الله وتجري عليه أحكام المسلم في الدنيا – وهو المنافق.

وإلى هذا ذهب أبو منصور الماتريدي والإمام أبو حنيفة.

٢- ذهب بعض العلماء إلى أنه التصديق بالقلب. والإقرار باللسان وهو رأي أكثر المحققين واختاره فخر الإسلام البزدوي والإمام السرخسي وبه قال الاشعري – وهو الحق.

٣- وذهب الآخرون إلى أنه تصديق في الجنان وإقرار باللسان والعمل بالأركان وهؤلاء اختلفوا:

فالمعتزلة والخوارج قالوا الأعمال ركن أساسي في الإيمان؛ لأن عندهم من ترك ركناً من أركان الإسلام أو عمل كبيرة فهو كافر أو ليس بمؤمن.

أما جمهور المتكلمين والمحدثين والفقهاء ونقل عن الشافعي أيضاً: فإنهم اعتبروا الأعمال ركناً للإيمان الكامل لا لأصل الإيمان فعلى هذا أن من ترك العمل فإيمانه ناقص ومن عمل فإيمانه كامل.

---

(١) انظر شرح النسفية للتفتازاني، ص٢٠٤.

أي تصديق النبي ﷺ بالقلب بكل ما اخبر عنه من عند الله به كالملائكة والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر وما إلى ذلك.

الأدلــة:

استدل أصحاب الرأي الأول بما يأتي:

١- بقوله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ [1]. وهــذا يــدل علــى أن الإيمــان موضعه القلب.

٢- بقوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ [2]. فلو كان الإقرار ركناً للإيمــان لأصبح المكره المنكر بلسانه كافراً ولا قائل به.

٣- بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [3].

٤- بقوله علية الصلاة والسلام: (يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّت قَلبي على دينِكَ) [4].

وأن النبي ﷺ قد أنكر على أسامة حينما قتل من قال لا إله إلا الله وظنَ أنــه قالها خوفاً فقال له ﷺ : (هلا شققتَ عن قلبه؟) [5].

واستدل أصحاب الرأي الثاني:

بأن النبي ﷺ وأصحابه كانوا لا يقبلون إسلام أحد ما لم يقر بلــسانه وينطــق بالشهادة ولو علموا أنه مؤمن بها في قلبه.

ويمكن أن يجاب عن هذا

بأنهم كانوا يشترطون الإقرار باللسان لغرض إجراء أحكــام الــدنيا فقــط لا لصحة التصديق فيما بينه وبين الله تعالى.

واستدل أصحاب الرأي الثالث بما يأتي:

---

(١) سورة المجادلة: آية ٢٢.

(٢) سورة النحل: آية ١٠٦.

(٣) سورة الحجرات: آية ١٤.

(٤) رواه الترمذي وقال حديث حسن انظر رياض الصالحين، ص٥٢٧.

(٥) انظر صحيح مسلم، ١ / ٦٧.

أما المعتزلة والخوارج فقد تقدم عنهم أنهم تمسكوا بالنصوص الدالة على تخليد من يعمل بالمعصية في النار أو على كفره وقد تقدم ردهم.

وأما جمهور المتكلفين والمحدثين فقد استدلوا على ذلك بأن الأعمال لها أثر في زيادة الإيمان ونقصانه وليس ذلك إلا لكونها ركناً تكميلياً له وكما سنذكر من الأدلة الدالة على زيادة الإيمان.

المبحث الثاني

هل الإيمان يزيد وينقص؟

من خلال ما ذكرنا من التعاريف تبين أن في المسألة رأيين:-

الرأي الأول: أن الإيمان يزيد وينقص وهو رأي من اعتبر الأعمال ركن

الكامل.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ [2].

وقوله تعالى: (حاكياً قول سيدنا إبراهيم) ﴿ وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ا

القلب هو زيادة في الإيمان والاعتقاد.

واستدلوا أيضاً: بأن هناك فرقاً بين إيمان النبي ﷺ وإيمان آحاد ا

وبقوله ﷺ (لو وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بَكرٍ رضي الله عَنْهُ مَعَ إِيمَانِ ال

إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ) [4].

الرأي الثاني:

هو أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص – وهو قول من لم يجعل الأ

ضمن الإيمان، إذ قالوا: إن التصديق القلبي إذا بلغ حد الجزم والإذعان ا

زيادة ولا نقصان.

---

(١) سورة التوبة: آية ١٢٤.

(٢) سورة الانفال: آية ٢.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٦٠.

(٤) رواه إسحاق بن راهويه والبيهقي في الشعب بسند صحيح عن عمر / انظر كتاب تمييز فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث لأبن الديبع، ص١٣٤.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١- أن الله تعالى قد أطلق الإيمان على من عمل المعاصي في كثير من الآيات وهذا دليل على أن الأعمال لا أثر لها في الإيمان.

٢- أن الله عطف العمل على الإيمان والعطف دليل المغايرة وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ [١]. وعلى هذا فالأعمال الصالحة لا تدخل في الإيمان فلا تؤثر عليه زيادة أو نقصاً.

٣- جعل الإيمان شرطاً لقبوله العمل في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [٢]. دليل على أن العمل غير الإيمان إذ المشروط لا يدخل في الشرط.

وقد أجابوا عما تقدم من الأدلة الدالة على زيادة الإيمان بأن المراد زيادة ثمرته وإشراق نور قلب المتصف به فإنها تزداد في الطاعة وتنقص بالمعصية.

ويمكن أن يجاب عن هذه الأدلة من قبل من يقول: بأن الإيمان يزيد وينقص: أننا إذ نقول بأن الأعمال تزيد في الإيمان فإنا لا نعني أن الأعمال هي جزء أساسي من الإيمان وبزوالها يزول بل إنه جزء تكميلي فلا تقوم هذه الأدلة حجة علينا بل على من ينفي الإيمان عمن قصر فيها.

والحق أن الإيمان يقوى بقدر ما ينكشف للمسلم من آيات ربه العظمى وما يطلع عليه من عجائب خلقه وتدبير كونه وإحداث بعض الأمور التي لا يدرك وقوعها الإنسان.

وأنه يضعف بقدر ما ابتعد المسلم عن ذلك قال عليه الصلاة والسلام: (الإيمان يخلق كما يخلق الثوب فجددوه فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم) [٣].

---

(١) سورة الكهف: آية ١٠٧.

(٢) سورة النساء: آية ١٢٤.

(٣) رواه الطبراني انظر السراج المنير/ ١ / ٤٠١.

المبحث الثالث

هل الإسلام والإيمان شيء واحد؟

اختلف العلماء في ذلك إلى رأيين:—

الرأي الأول:

أن الإسلام والإيمان واحد إذ الإسلام الخضوع والانقياد بقبو والإذعان لها والإيمان لا يراد به سوى ذلك. فهما وإن اختلفا من حيث اله متحدان من حيث الماصدق.

واستدلوا على ذلك:

بقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا الْمُسْلِمِينَ ﴾ وبأنه لا يقبل من أحد أن يكون مؤمناً وهو ليس بمسلم أو أن يـ وليس بمؤمن.

الرأي الثاني:

هو أن الإيمان والإسلام متغايران.

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـكِن قُو يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ فقد نفى عنهم الإيمان وأثبت لهم الإسلام وعلـ متغايران.

واستدلوا أيضاً بحديث جبريل حينما سأل النبي ﷺ عن الإيمان بالله وملائكته...الخ ثم سأله عن الإسلام فقال أن تشهد أن لا إله إلا ا رسول الله وتقيم الصلاة ...الخ. فلو لم يكونا مختلفين لما سأل عن كـ على الانفراد.

أما الرواية التي جاءت بأنه حينما سأله عن الإيمان قال: شهاد الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ...الخ فإنما هو لبيان آثار الإيمان لا لـ

ويمكن أن يجاب عن الآية:

بأن الإسلام الثابت للإعراب هو الإسلام اللغوي وهو الانقياد الظاهري والإيمان المنفي عنهم هو الإيمان الحقيقي الذي يساوي الإسلام بمعنى الانقياد الباطني.

ولا يخفى ما في هذا الجواب من التأويل البعيد، والذي أراه أن الإسلام والإيمان ليسا مترادفين بل هما متغايران من حيث المعنى، وبينهما العموم والخصوص الوجهي من حيث الماصدق.

إذ يصدقان على مثل أبي بكر الصديق ﷺ . وينفرد الإسلام عن الإيمان في مثل أبي بن سلول، وينفرد الإيمان عن الإسلام في مثل أبي طالب. وبعد أن يحصل التصديق والإقرار من الشخص حكم عليه بالإيمان والإسلام.

لذا ينبغي أن يقول: أنا مؤمن حقاً، ولا يعلق ذلك على مشيئة الله بأن يقول: أنا مؤمن أن شاء الله، لأنه لو قصد التعليق، فهو كفر؛ إذ لا يمكن الاطلاع على مشيئة الله فيصبح تعليقاً للإيمان على شيء مجهول. وإذا أراد أن يقول ذلك تبركا فليس بكفر، والأولى تركه.

ص: والسَعيدُ قَدْ يشقى والشقيُ قَدْ يسْعَدُ، والتَغْيِيرُ يكُونُ عَلَىَ الشقاوَةِ والسَ
الإسعاد و الإشقاء، وَهُمَا مِنْ صِفَاتِ الله تَعَالَىُ، ولا تَغيير عَلَى الله تَعَـالى و ا
صِفَاتِه.

خاتمة الإنسان

ش: المفردات

السعيد: هو من لازَمَ الإيمان والطاعة.

والشقي: هو منْ لازَمَ الكفر أو المعصية.

الإسعاد والأشقاء: صفتا تكوين لله تعالى.

الشقاوة والسعادة: صفتان للإنسان السعيد أو الشقي.

الشرح الإجمالي:

هذا الموضوع في الحقيقة من أبحاث القضاء والقدر. وقد تقدم الكـلا
ذلك في بحث أفعال العباد وفي بحث تعلق الهداية والإضلال بمشيئة الله تعالى.

ولربما يبدو للقارئ وجود تناف بين هذا الموضوع وبين ما ذكر سابق
نوضح أن أمر القضاء والقدر هنا يعود إلى نفس ما ذكرناه في البحثين آنفي ال

وقد جاء هذا البحث استنباطاً من حديث الرسول ﷺ حيث يقـول فيـ
أحدكُمُ يجمعُ خلقةُ في بطنِ أمهِ أربعينَ يوماً نطفة، ثمُ يكونُ علقةً مثل ذلكِ، ثمّ
مضغةُ مثلُ ذلك، ثم يرسلَ الملكُ فينفخُ فيهِ الروحَ ويؤمرُ بأربع كلماتٍ بكتب
وَأجلهِ وَعمله وشقي أو سعيدٍ، فو الذيَ لا إله غيره إنَّ احدكمُ ليعملُ بعملِ أهل
حتَى ما يكونُ بينهُ وبينها إلا ذراعٌ فيسبقُ عليه الكَتابُ فيعملُ بعملَ أهل النّار

وإن أحدكمُ ليعملُ بعمل أهل النّار حتى ما يكونُ بينهُ وبينها إلا ذراع فيسبقُ عليه الكتابُ فيعمل بعملَ أهل الجنَة فيدخلها [١].

وفي الحقيقة أن المراد بذلك أن الإنسان يعمل أعمال الخير والسعادة ظاهرا ونفسه وباطنه ووجهته خلاف ظاهره فهو يميل إلى الشر وإن كان ظاهره الحسنى ومن هذا شأنه لا بد أن يظهر ما في سريرته على ظاهره فينعكس أمره.

وقد يرى الإنسان يعمل أعمال الشر والسوء وسريرته تكره ذلك وتميل إلى الخير والعمل الصالح ويتمنى أن يوفق للسيطرة على نزعات نفسه فلا بد أن ينعكس شأنه ويوفق للتوبة والعمل الصالح فينعكس أمره، ومصداق هذا قوله ﷺ في رواية يرويها مسلم: (إنّ الرّجلَ لَيعملُ عَمَلَ أهلِ الجنةِ فيمَا يبدوُ للناسِ وَهُوَ مِنْ أهلَ النّار وإنّ الرجلَ لَيعملُ عَمَلَ أهل النار فِيمَا يبدوُ للناسِ وَهو مِنْ أهلِ الجنةِ) [٢].

فقوله ﷺ ((فيما يبدو للناس)) دليل على أنه يعمل خلاف ما في سريرته، ثم إن سنة الله في الإسعاد والأشقاء جرت أن يخلق الله الإسعاد والأشقاء مطابقاً لتوجه الإنسان وقصده في مباشرة أسباب الإسعاد والأشقاء، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ [٣]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾[٤].

فمن اتجه إلى أسباب الخير يسر الله له طريق الخير ومن اتجه إلى أسباب الشر يسر الله له طريق الشر.

---

(١) مسلم، ٨ / ٤٤.

(٢) المرجع نفسه، ٨ / ٤٩.

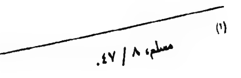
(٣) سورة الليل: آية ٥ – ١٠.

(٤) سورة النساء: آية ١١٥.

ويؤيد هذا قوله ﷺ : (ما منكمْ مِنْ نفسٍ إلا وقدْ علم منزلها مِنْ

قالوا يا رسولَ الله فلِمَ نَعْملُ أفلاَ نتكلُ؟ قال: لا اعملُوا فكل ميسّرٌ لمَا

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى



(1) مسلم، ٨ / ٤٧.

الفصل الخامس

النبــــوات والملائكـــــة

ويتضمن:-

١- تعريف النبي والرسول.

٢- الحكمة من إرسال الرسل.

٣- هل يكون غير بشر وهل يكون امرأة.

٤- مهمة الرسل.

٥- معجزات الرسل وكرامات الأولياء.

٦- عددهم ومن هو أولهم وأخرهم.

٧- ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حقهم.

٨- بيان أفضلهم.

٩- وجود الملائكة.

١٠- إنزال الكتب على الأنبياء.

١١- معجزة الإسراء والمعراج.

ص: وفِي إرسَالِ الرُسُلِ حِكْمَةٌ، فقَدْ أرسَلَ الله تعالى رُسلاً من البَشَرِ إلى البَشَرِ مُبشِّرِينَ ومُنذرينَ مبينين للنَّاسِ مَا يَحْتَاجُونَ إليْهِ مِنْ أمُورِ الدنيَا والدِّينِ وأيّدَهمْ بالمعجزَاتِ النَاقضات لِلعادَةِ.

وأولُ الأنبيَاء آدمُ وأخرهم مُحمدٌ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وقَدْ ورَدَ بيَانُ عَدَدِهمْ فِيْ بَعْضِ الأَحَادِيثِ، وَالأَولَى أَنْ لا يُقتَصرَ عَلى العَدَدِ فِي التسْمِيَةِ فقَدْ قَالَ تعالى: ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ ولا يُؤمَنُ فِي ذكْرِ العَدَدِ أنْ يدخُلَ فِيهِمْ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، أوْ يَخْرُجَ مِنْهمْ مَنْ هُو فِيْهِم،

وكلُّهمْ كَانُوْا مُبَلِّغيْنَ عَنْ اللهِ تَعَالى، صَادِقيْنَ نَاصِحِيْنَ،

وأفضَلُ الأنبِياء مُحَمَّدٌ ﷺ.

النبوات

ش: المفردات

الرسل: جمع مفرده رسول من الرسالة وهي سفارة بين الله وخلقه وقد ذكرنا تعريف الرسول والنبي في بحث الخبر الصادق.

حكمة: أي مصلحة وفائدة.

البشر: مأخوذ من البشارة والسرور سمي الإنسان به لأنه إذا سر ظهر ذلك على بشرته، أو لأنه مكشوف البشرة دون سائر الحيوانات.

مبشرين: أهل الطاعة بالثواب والجنة.

ومنذرين: أهل المعصية بالعقاب والنار.

من أمور الدنيا: كالمبايعات، والمناكحات، والعقوبات، وسائر المعاملات الدنيوية.

أمور الدين: هي العبادات بإتباع الأوامر واجتناب المناهي والتسليم للقضاء والقدر.

المعجزة: الأمر الخارق للعادة.

الشرح الإجمالي:

تمهيد:

إن الله تعالى قد خلق الإنسان ومنحه التكريم على سائر المخلوقات وميزه بالعقل ليقدر ذلك وليعلم أنه الأصل في هذه المخلوقات. وخلق دارين الدنيا والآخرة. وجعل الأولى دار إعداد وتهيئة وعمل فجعل لها نهاية، وجعل الثانية دار جزاء لما أعد في الأولى فجعلها بدون نهاية؛ إذ هي المكان المعد لهذا البشر.

ولقاء ما منح الله العقل للإنسان جعله محلاً للتكليف والاختبار في هذه الحياة ولا بد لهذا المكلف من أن يعرف المكلف به لتنظيم حياته الأولى ولتنفيذ ما جعل وسيلة لنجاحه في الآخرة وهذه الوسيلة على نوعين:

نوع يمكن للعقل أن يستقل به كالإيمان بوجود الخالق وكونه واحداً قادراً عليماً. وكالعلم بنفع الصدق وضر الكذب ووجود يوم آخر لجزاء المحسن على إحسانه والمسيء بإساءته.

ونوع لا يستقل بمعرفته كأوقات الصلاة، وعدد الركعات، ووجود الجنة والنار، وتنظيم بعض المعاملات الدنيوية.

لأجل ذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يرسل ما بين فترة وأخرى رسلاً يبينون للناس ذلك ويؤيدون العقل فيما أدركه من النوع السابق من خير ونفع.

وعلى هذا الأساس فإن الماتن رحمه الله قد ضمن نصه ثمانية بحوث من أمور النبوات هي:

١- لماذا أرسل الرسل؟

٢- هل يمكن أن يكون الرسول من غير نوع البشر؟ وهل يكون غير رجل؟

٣- ما هي مهمة هؤلاء الرسل التي أرسلوا من أجلها؟

٤- ما هي العلامة التي يستدل بها على صحة إرسال الرسول؟

٥- من هو أول الأنبياء ومن هو آخرهم؟

٦- هل للأنبياء و المرسلين عدد معين؟
٧- ما هو الواجب عقلاً في حقهم؟
٨- من هو أفضل الأنبياء؟

المبحث الأول

الحكمة من إرسال الرسل

بينا أن الحكمة في إرسالهم هي تبليغ الناس مما لا مجال للعقل في الاستقلال بمعرفته حتى لا تقام الحجة على الله تعالى إذا أراد أن يحاسب الناس يوم القيامـــة؛ إذ لا يكلف الإنسان بما لا معرفة له به ويؤاخذ على تركه.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (1).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾(2).

وقال تعالى: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ (3).

---

(1) سورة الإسراء: آية ١٥.

(2) سورة القصص: آية ٥٩.

(3) سورة النساء: آية ١٦٥.

المبحث الثاني

هل يكون النبي من غير البشر وهل يكون غير رجل؟

لا يمكن أن يكون الرسول إلا بشراً وذلك لأنه لو كان من الملائكة أو الجن لما أمكن للبشر رؤيته والالتقاء به إلا أن يتشكل بهيئة البشر؛ إذ لا طاقة على رؤية الجن أو الملك إلا عن طريق خرق العادة، بينما يمكن للملك والجن ر البشر. وهذه هي الحكمة في إرساله من البشر.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [١].

وقال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّ رَسُولاً ﴾ [٢].

وقال تعالى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [٣].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [٤].

كما لا يكون النبي امرأة وذلك لضعف عقلها ودينها وبنيتها، ولأن مبنى حالها ملازمة المنزل. وكل ذلك أمور تتنافى مع الرسالة التي مبنى حالها على العقل وقوة الدين والبنية والاختلاط بالناس.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ [٥].

---

(١) سورة الأنعام: آية ٨ – ٩.

(٢) سورة الإسراء: آية ٩٥.

(٣) سورة إبراهيم: آية ١١.

(٤) سورة الكهف: آية ١١٠.

(٥) سورة النحل: آية ٤٣.

المبحث الثالث

بيان المهمة التي جاء من أجلها الرسل

هي كما قال تعالى: ﴿ مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أي مبشرين من أطاع أوامر الله بالجنة ومنذرين من عصاه بالنار أو الهلاك.

ومنظمين لهم حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والصحية والأخلاقية والعسكرية أما الأمور الدنيوية التي تعود إلى العادات والأعراف ولا ضرر فيها فإن الرسالة لا دخل لها بها.

وذلك كما وقع لرسول الله ﷺ حينما مر برجل يؤبر (أي يلقح النحل) فقال لو تركتموه فتركوه فصار شيصاً وبعد معرفته ﷺ بفساده قال: (أَنْتُمْ أعلَمُ بأمورِ دُنْيَاكُمْ)، رواه مسلم .

وكما وقع له في غزوة بدر حينما نزل بها فقال له الحباب يا رسول الله أهذا منزل أنزله الله ليس لنا أن نتقدم أو نتأخر أو الرأي والمكيدة؟ فقال بل الرأي والمكيدة فبين له أن النزول على الماء أفضل فعدل عن الرأي السابق ونزل على الماء كما أراد الحباب.

المبحث الرابع

البرهان على صحة رسالة الرسول

الرسول مبعوث الله تعالى ولا يسعنا أن نصدق إنساناً إذا ادعى أنه مرسل قبل الله إلا أن يقع على يديه ما يدل على صدقه شريطة أن يكون ما يوقعه لا يم حصوله عادةً وهو ما يسمى (بالمعجزة)

وهي أمر خارق للعادة [1] يظهر على يد من أدعى النبوة عندما يتحدى ، وقعت المعجزات على يد المرسلين قبل رسولنا محمد ﷺ، من ذلك ما وقـع لـ موسى عليه الصلاة والسلام من قلب العصى ثعباناً وانفجار الماء من الحجر، وا البحر وغيرها من الآيات، وما وقع لسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام مـن إبـ الأكمه [2]. والأبرص، وإحياء الموتى، وما وقع له أيضاً من نطقه في المهد.

وكما وقع لسيدنا داود من تليين الحديد بدون نار، وما وقع لسيدنا سليما تسخير الجن والرياح حين كانت تنقل البساط إلى أي مكان يريد بمثابة الطائرة في عصرنا هذا إذ كان يسير في اليوم مسافة شهرين، وكل ذلك ذكره القرآن الك لا مجال لإنكاره.

وأما رسولنا محمد ﷺ فقد وقعت له المعجزات الكثيرة منها ما نطـق القرآن الكريم كحادثة الإسراء والمعراج، وحادثة شق القمر، وحادثة رميه كفـا حصى على أعين المشركين في غزوة بدر.

---

(١) والعادة تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة فقد يكون الشيء خارقاً للعادة في زمان دون أخر أو في دون أخر فالمراد بكونه خارقاً للعادة في ذلك الزمان والمكان.

(٢) الأكمه الذي ولد أعمى فإن معالجته غير متوقعة البرئ، أما من يعمى بعد الولادة فمن الجائز ابراء من العمى.

ومنها ما وردت به السنة النبوية مما قد بلغ حد التواتر كنبع الماء من تحت أصـــابعه الشريفة، وسماع كلام الحصى وتسبيحه وكلام زند الشاة المسمومة، وكحنين الجـذع. وما إلى ذلك مما لا يسعنا سردها في هذا المقام، وفي مقدمة معجزاتـــه ﷺ القــرآن الكريم إذ أنه اشتمل على جانبين من الإعجاز.

أحدهما عام: يعترف به جميع الناس.

وثانيهما خاص: يقيمه فصحاء العرب وبلغاؤهم.

أما الأول:

فوجوه إعجازه أمور عديدة:

منها استمراره وبقاؤه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [١]. وفي تشريعاته الشاملة الدقيقة الصالحة لكل زمان ومكان بخلاف معجزات سائر الأنبياء.

ومنها تحدثه عن أخبار من سبق مع أمية الرسول ﷺ وعدم تعلمه واتـــصاله بمن يعرفها. ومنها الإخبار عن أمور مستقبلية وقد وقع أكثرها.

وأما الثاني:

فهو ما انطوى عليه القرآن من بديع النظم الذي أدهش البلغاء والفصحاء منذ ظهوره وإلى أن تقوم الساعة حيث لم يكن منسجماً مع النثر بأساليبه وطريقه ولا مع الشعر في بحوره وأعاريضه، بلاغة سامية وأسلوب غريب.

وأكبر دليل على عجز البلغاء عن الإتيان بسورة منه. أنهم لو تمكنـــوا مـــن مقارعته باللسان لما اضطروا إلى مقارعته بالسلاح والسنان.

---

[١] سورة الحجر: آية ٩.

المبحث الخامس

من هو أول الأنبياء ومن هو آخرهم؟

مما لا شك فيه أن أول نبي ظهر على وجه هذه البسيطة هو سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام.

إذ هو أبو البشر وقد وردت آيات عديدة في سورة البقرة والأعراف وغير تدل على تكليفه وذريته بالأمر والنهي وليس النبوة والرسالة إلا ذلك.

وأما آخرهم فهو سيدنا محمد ﷺ فهو خاتم النبيين وآخر المرسلين، ومن أدعى النبوة أو الرسالة بعده أو اعتقد أنه سيبعث نبي غيره فهو كافر.

أما نزول عيسى فإنه سينزل بشريعة محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ (١).

وقال ﷺ (مثلي ومثلُ الأنبياءِ مِنْ قَبلي كَمثلِ رَجلٍ بنى بيتاً فأحسَنهُ فأجْمَلَهُ إلا موضِعَ لبنةٍ منْ زَاويتِه فَجَعَلِ النَّاسُ يَطوفُونَ بِهِ ويَعجَبُونَ لَهُ ويَقولونَ هلاَ وُضِعت هذِهِ اللبِنةُ؟ فَأنَا اللبنةُ وأنا خاتمُ النَّبيينَ) (٢). متفق عليه.

فإن قيل: إن هذه النصوص تدل على كونه خاتم الأنبياء وليس خاتم للمرسلين فالجواب إنه إذا كان خاتم الأنبياء لزم أن يكون خاتم المرسلين إذ كل رسول لا بد أن يكون نبياً.

---

(١) سورة الحزاب: آية ٤٠.

(٢) انظر مشكاة المصابيح ٣ / ١٢٤.

المبحث السادس

هل ورد عدد في الأنبياء والمرسلين؟

حدد بعض العلماء عدد الأنبياء بمائة وأربعة وعشرين ألف نبي منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً.

والأولى أن لا يقتصر على ذكر عدد منهم والحديث الذي ورد في العدد يتنافى مع صريح الآية وهي قوله تعالى: ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ (١).

وقال: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢).

وقد ذكر القرآن الكريم أسماء خمسة وعشرين منهم (٣).

---

(١) سورة النساء: آية ١٦٤.

(٢) سورة فاطر: آية ٢٤.

(٣) وهو آدم، إدريس، نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، شعيب، أيوب، ذو الكفل، موسى، هارون، سليمان، داود، إلياس، اليسع، يونس، زكريا، يحيى، عيسى، محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، وأولوا العزم منهم خمسة (وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد.

المبحث السابع
ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حقهم

يجب في حق الرسل عقلاً ما يأتي:

أولاً: الصدق

فهم معصومون عن الكذب إذ لو لم يصدقوا للزم الكذب في كلامه تعالى خصوصاً فيما يتعلق بالشرائع والأحكام فقد اجمعت الأمة على امتناع كذبهم عمداً أما سهواً فكذلك ما عدا الإمام الباقلاني.

ثانياً: الأمانة

إذ لو خانوا بفعل محرم أو مكروه لانقلب المحرم أو المكروه واجباً، أو مندوباً وهما مما أمر الله بهما والله لا يأمر بفعل المحرم والمكروه.

ثالثاً: العصمة من وقوع الذنب

اجمع العلماء على امتناع وقوع الكفر منهم قبل البعثة وبعدها وكذا اجمعوا على عدم تعمد وقوع الكبيرة من غير الكفر منهم بعد البعثة أما الصغيرة فجوز وقوعها منهم الجمهور إلا ما يدل على خسة في مقامهم الكريم كسرقة شيء أقل من النصاب.

وقد خالف الجبائي واتباعه بذلك حيث منعوا وقوع الصغيرة منهم، هذا كله بعد الوحي، أما قبله فالجمهور على عدم امتناعها منهم إذ لا دليل على المنع.

والمعتزلة منعوا وقوعها لأنها تستلزم نفرة من الناس عنهم فتفوت مصلحة إرسالهم.

والحق منع ما فيه خسة أو يوجب نفرة الناس عنهم كالزنى، والكذب، والخيانة.

وعلى هذا الأساس فإن جميع ما ورد عن الأنبياء فيما ظاهره معنى المعصية والذنب فإنه يصرف عن ظاهره ويؤول.

أو أنه من باب المفضول ذنباً بالنسبة للأفضل. ومن هذا القبيل قول الإمام الجنيد: (حسنات الأبرار سيئات المقربين)[1]. أو أنه وقع قبل البعثة على رأي من يجوز ذلك.

رابعاً: النباهة والفطنة وكمال العقل

إذ هي من مستلزمات أداء الرسالة التي كلف بها ولو كان الرسول ناقصاً في عقله مع تكليفه بالرسالة لكان ذلك متنافياً مع مبدأ الرسالة إذ هي أعفت ناقص العقل من التكاليف فكيف يكون الرسول مكلفاً بأداء الرسالة؟

ويستحيل في حقهم أضداد ما تقدم من الصفات الأربع لأنها نقائص في حقهم ومكانتهم والهدف من إرسالهم.

ويجوز في حقهم كل ما هو من العوارض البشرية كالأكل والشرب والنكاح، والبيع والشراء، والمرض وما إلى ذلك.

---

[1] فمثلاً قد ورد عن سيدنا آدم قوله تعالى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ فيراد هنا بالعصيان مطلق المخالفة؛ إذ نهي لآدم وزوجه أن يأكل من الشجرة ليس للتحريم بل لمصلحتهما، أو أن ذلك قبل بعثه رسولاً، أو أن الله أراد أن يكون الأمر كذلك ليتعلم أبناؤه طريقة التوبة والرجوع إلى الله بعد المعصية كما رجع أبوهم وتاب واستغفر ليفرق بينه وبين إبليس الذي أمره بالسجود لآدم فعصى وأصر على عصيانه ليكون من باب المقارنة بين آدم وإبليس ولنعتبر بهما ولنختار أفضلهما قدوة لنا.

وقد ورد أيضاً في حق محمد ﷺ ما يدل على الذنب مثل قوله تعالى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ فهذا يحمل على تركه الأولى والأفضل إذ أن النبي إذا ترك الأولى كان بمثابة الذنب وليس بذنب.

ولما قتل موسى للقبطي فله محامل منها أنه قبل البعثة، ومنها أنه كان من الأعداء المحاربين، ومنها أنه لم يكن قتله عمداً إذ غاية ما هنالك أنه وكزه بيده فمات ولما ما وقع من أخوة يوسف فالجمهور على أنهم ليسوا أنبياء وأما ما يقال عن سيدنا داود بأنه خطب زوجة وزيره وأمره أن يذهب إلى القتال ليقتل ثم يتزوجها وكان له تسع وتسعون زوجة قبلها فإنه من أكاذيب اليهود، وما ورد من دخول الخصمين عليه وادعائهما بأن لأحدهما تسعا وتسعين نعجة وللأخر نعجة فإنهما قد اصطنعا هذا التخاصم إذ أنهما أتيا قاصدين اغتياله كسائر أنبياء بني إسرائيل ودخلا عليه في غير أوقات الحكم ولذلك لم يدخلا من الباب خشية من حراسه بل تسورا المحراب ولما أحس بهما اصطنعا هذا العذر تخلصا من العقاب فاستغفاره وسجوده لأنه ظن بهما انهما قتله فتظاهرا بخلاف ذلك وليس من ذنب.

المبحث الثامن

من هو أفضلهم؟

أفضلهم هو سيدنا محمد ﷺ بالإجماع لقوله تعـــالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْـرَ أُمَّـةٍ أُخْرِجَـ لِلنَّاسِ ﴾ وإذا كانت هذه الأمة خير أمة فرسولها يكون خير الرسل من باب أولى ولو أفضليته لما صارت أفضل الأمم، وقد ورد بذلك قولــه ﷺ (أَنَــا سَــيِّدُ أَولاَدِ آدَمَ و فَخْرَ) [1]. والمراد بولد آدم الجنس البشري فيشمل آدم أيضاً، وأما ما ورد من قوله ؛ ((لا تفضلوني على ابن متى)) فهو من باب التواضع وليعلم أمته عدم التفرقــة بـ الأنبياء في الإيمان بهم فقط.

قالوا إن النبي أمر به وابن متى هو أدخل في بطن الحوت [illegible] المكان للتفضيل

والله تعالى هو الأعلم

---

[1] رواه الترمذي: انظر مشكاة المصابيح ٣ / ١٢٧.

ص: والمَلائِكَةُ عِبَاد الله تَعَالى عامِلون بأَمْرِهِ لا يُوصَفُونَ بذُكُورةٍ ولا أنوثَةٍ.

من المغيبات الملائكة

ش: المفردات

الملائكة: جمع مفرده ملك.

الملك: مأخوذ من الالوكة وهي الرسالة لأنهم وسائط بين الله وبين الناس وهم رسل الله إليهم أو كالرسل[1].

الملك: عرفه أكثر المتكلمين بأنه جسم لطيف قادر على التشكيل بأشكال مختلفة. وعرفه الحكماء بأنه جوهر مجرد مخالف للنفوس الناطقة في الحقيقة[2].

الشرح الإجمالي:

يجب الإيمان بأن لله ملائكةً هم أكثر خلق الله تعالى وهم لا يتناسلون، لذلك لا يجوز وصفهم بالذكورة والأنوثة كما وصفهم مشركو قريش، ولا يجوز اعتبارهم بنات الله – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا بل هم عباده ولا تجتمع الولادة والعبودية قطعاً قال تعالى: ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [3]. أي يعجزون.

وقال أيضاً في النار: ﴿ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [4].

---

(١) شرح رمضان، ص٢٨٥.

(٢) شرح رمضان، ص٢٨٥.

(٣) سورة الأنبياء: آية ٢٧ و ١٩.

(٤) سورة التحريم: آية ٦.

ولربما يعترض معترض ويقول إبليس عصى ربه وهو من الملائكة.

والملائكة على نوعين:

نوع واجبهم الاستغراق في عبادة الله وتقديسه وليسوا مكلفين بخدمة البشر ولم يؤمروا بالسجود لآدم وهم العليون أو العالون أو المقربون.

ونوع واجبهم خدمة الإنسان وما تتطلبه حالته، فمنهم موكل بالوحي، ومنهم يقبض الأرواح، ومنهم من يسوق السحاب، ومنهم من يصنع الثمار، ومنهم من هو موكل بالشمس ومنهم بالقمر، ومنهم حفظة للإنسان، ومنهم كتبة، ومنهم حفظة الجنة ومنهم حفظة النار. ولا مجال لإنكارهم وجودهم إذ إنكارهم كفر باتفاق المسلمين.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾[1].

والاستدلال على وجودهم من وجهين:

الوجه الأول: الاستدلال العقلي

غاية ما يقوله منكر وجود الملائكة أننا لا ندركهم بالحواس الخمسة لأنه لا يؤمن إلا بالمحسوسات والماديات.

والجواب: عن هذا أنه لا يلزم توقف الإيمان بوجود الشيء على إحساسه إذ كل محسوس موجود وليس كل موجود محسوساً.

فجاذبية الأرض موجودة نؤمن بها ولا نحسها والطاقة الكهربائية نؤمن بوجودها في الأسلاك ولا نحسها وبعض الجراثيم يؤمن الطب بوجودها ولا يدرك

فالجواب إن إبليس لم يكن ملكاً ولكنه كان من الجن كما أخبر الله تعالى إلا أنه كان معهم وكان رئيسهم لذلك استثناه منهم في السجود، فالاستثناء في قوله تعالى: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ • إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ استثناء منقطع.

وأما هاروت وماروت فقد أنزلهما ليعلمان الناس السحر وذلك ليفرق بين السحر وبين المعجزة ومع ذلك فإنهما لا يعلمان أحداً إلا بعد نصحه وبيانهما له أضرار السحر، بل إن تعلم السحر ليس كفراً بل الكفر العمل به مع اعتقاد الحل.

(١) سورة النساء: آية ١٢٦.

المجهر والعقل نؤمن بوجوده ولا نحسه. بل غاية الأمر أننا نرى أثر الجانبية وأثــر الطاقة في المصباح وغيره من الآلات الكهربائية، وأثر المرض وآثار العقل، ثــم إن وجودهم من الأمور الممكنة التي جوزها العقل ولا يعدها من المستحيلات.

الوجه الثاني: الاستدلال النقلي

من الكتاب قوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾[1].

ويقول الرسول ﷺ في الإيمان" (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقضاء خيره وشره) [2].

وقد وردت آيات وأحاديث تنطق بالملائكة سواء في بيان وجودهم أو ذكر أشكالهم، أو ذكر أعمالهم.

---

(1) سورة البقرة: أية ٢٨٥.

(2) رواه البخاري ومسلم في حديث جبريل البخاري ١ / ٢٠ ومسلم ١ / ٣٠.

ص: ولله كتب أنزلها على أنبيائه بيّن فيها أمرَهُ ونَهْيَهُ ووعْدَهُ ووعيدَهُ.

الإيمان بالكتب

ش: المفردات

الكتب: جمع مفرده كتاب بمعنى مكتوب فيه.

الوعد: يكون حقيقة في الخير.

الوعيد: يكون حقيقة في الشر.

وقد يعبر بأحدهما مكان الآخر مجازاً مع وجود القرينة فتقول

بالسجن وأوعدني بألف دينار.

الشرح الإجمالي:

مما يجب أن نؤمن به والذي هو ركن من أركان الإيمان هو الإيم

تعالى أنزل أربع كتب فيها كلامه. أمره ونهيه ووعده ووعيده والأخبار ع

وعن أمور تقع في المستقبل.

كما أنه أنزل مائة صحيفة

أما الكتب الأربعة فهي:

١- التوراة: أنزلت على سيدنا موسى عليه السلام وقد وردت عدة آيات

منها قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ﴾[1].

وقوله: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ

٢- الزبور: أنزل على سيدنا داود عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّا

(١) سورة المائدة: آية ٤٣.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٥٧.

(٣) سورة النساء: آية ١٦٣.

٣- الإنجيل: أنزل على سيدنا عيسى عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ (٢).

٤- القرآن الكريم: الذي هو أفضلها لأن أسلوبه إعجازي وقراءته أفضل وأنفع ولكونه نسخ ما قبله من الكتب وهو الذي أنزل على سيدنا محمد ﷺ وهو أفضل الأنبياء.

أما الصحف فهي مائة:

١٠ أنزلت على آدم عليه السلام.

٥٠ أنزلت على شيت عليه السلام.

٣٠ أنزلت على إبراهيم عليه السلام.

١٠ على موسى عليه السلام.

كما ورد في حديث يرويه أبو ذر ﷺ (٣).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ۞ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (٤).

---

(١) سورة الأنبياء: آية ١٠٥.

(٢) سورة لمائدة: آية ٤٦.

(٣) يلاحظ شرح رمضان، ص ٢٨٨.

(٤) سورة الأعلى: آية ١٨ – ١٩.

ص: والمِعْرَاجُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ في اليَقْظَةِ بِشَخْصِهِ إلى السَمَوَاتِ ثُمَّ إلى مَا شَاء الله مِنَ العُلَى حَقٌ.

معجزة الإسراء والمعراج

ش: المفردات

المعراج: هي آلة العروج كالسلم والدرج، والمراد به هنا ما صعد به ﷺ من بيت المقدس حيث الصخرة المعروفة إلى السماوات، ولا يعرف كيفيته أو ماهيته

اليقظة: ضد النوم.

بشخصه: بجسمه.

والإسراء: هو السير ليلاً يقال سرى وأسرى أي سار ليلاً.

الشرح الإجمالي:

معجزة الإسراء ثابتة في نص القرآن الكريم لا مجال لإنكاره ومنكرها كـاف إذ قد أنكر نصاً صريحاً من القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾[1].

أما المعراج فقد ورد بالحديث المشهور الذي يرويه البخاري ومسلم وحيـ إنه لم يرد نص صريح في القرآن أو السنة المتواترة فإن منكره لا يحكم عليه بالكـ بل بالابتداع.

وأما الاستدلال على المعراج بقوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فليس بسليم إذ يمكن أن يراد به جبريل عليه السلام دنى من الرسول ﷺ كما أنـ يحتمل أن الرسول دنا من الله دنو رتبة ورفعة لا مكان.

---

(1) سورة الإسراء: آية ١.

ولا مجال لذي عقل سليم أن ينكر الإسراء والمعراج لاستغرابه أن يرحل هذه الرحلة المحتوية على كثير من الأفعال والأقوال والتنقلات مع وجود البعد الشاسع بين الأرض والسماء وبين السماوات والمدة قصيرة جداً.

إذ قد نطق القرآن بأن عرش بلقيس قد نقله أصف بن برخيا من اليمن إلى فلسطين برمشة العين.

كما أن ضوء الشمس يمتد بعد بروزها على الأرض بكل ثانية مائة وستة وثمانين ألف ميل، وأن قطرها مساحته تزيد على حجم الأرض بما ينوف على مائة وستين مرة ويتكامل شروقه وغروبه بثلاث دقائق.

وعلى الرغم من كونها معجزة فإن العلم الحديث جاء مؤيداً لمثل هذه الحادثة.

إذ قد صعد رواد الفضاء إلى سطح القمر بواسطة السفن الفضائية كما أن الأقمار الصناعية تدور حول الأرض بسرعة فائقة ودقيقة جداً.

هل عرج يقظة وبجسمه أو رؤيا أو بروحه.

لم يحصل خلاف بين العلماء في ثبوت الإسراء والمعراج على اختلاف في قوة الدليل بينهما.

إلا أنهم اختلفوا في أنه هل هو يقظة أو رؤيا أو بروحه فقط. فجمهور المسلمين على أنه يقظة وبجسمه وروحه.

وأقوى دليل على ذلك أنه لو كان رؤيا أو بروحه لما أدى إلى استغراب مشركي قريش وتكذيبهم له لأن الرؤيا وعروج الروح أمر مقبول لديهم يمكن أن يقع من أي إنسان فلولا أنه كان بروحه وجسمه لما كذبوه ولما طلبوا منه أن يصف بيت المقدس ولما سألوه عن القافلة القادمة من الشام.

وقد زعم بعضهم أنه رؤيا ومنهم من قال بروحه.

واستدلوا على ذلك

١- بما روى عن معاوية ﷺ أنه سئل عن المعراج فقال كانت رؤيا صالحة.

٢- وبما روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما فقد جسد محمد المعراج.

٣- قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [1].

ويجاب عن ذلك بما يأتي:

أما حديث معاوية فعلى فرض صحته لم يرفعه فهو موقوف و اجتهاداً منه وهو لا يقاوم الأدلة الدالة على أنه يقظة.

وأما ما ورد عن عائشة فإنه ضعيف إذ أن المعراج كان قبل الهجر سنوات في مكة وهي لم تكن يومئذ زوجته وكان عمرها آنذاك ثلاث ، يمكنها ضبط الحادثة لترويها، كما يحتمل أن يراد أن جسمه لم يفارق روحه مع روحه.

وأما الرؤيا في الآية فيمكن أن يراد بها الرؤيا بالعين، كما سبق ذلك في آخر بحث رؤية الله تعالى.

---

(١) سورة الإسراء: آية ٦٠.

ص: وكَرامَاتُ الأولياءِ حَق

فيظهرُ الكرَامَةَ عَلى طَريق نَقْضِ العَادةِ للوليِّ: مِنْ قطْعِ المَسَافة البعيدة في المُدة القليلة وظهورِ الطعَامِ والشّرابِ واللباسِ عِند الحَاجَة والمشيِ عَلى المَاء والطيران في الهوَاء وكَلاَم الجمادِ والعَجماء وغير ذَلكَ مَن الأشْيَاء.

ويكونُ ذَلكَ مُعجزَةً للرسُول الذي ظَهَرتْ هذهِ الكَرَامة لواحدٍ مِنْ أمتهِ لأنه يظهَرُ بهَا أنَهُ وليٌّ، ولَنْ يكُونَ وليًّا إلاّ أن يكونَ مُحقاً فِي ديانتِهِ، وديانتُه الإقرارُ والتّصْديقُ برِسَالة رَسُولهِ.

كرامات الأولياء

ش: المفردات

الكرامات: جمع كرامة بمعنى التكريم أو الإكرام وهي وقوع أمر خارق للعادة من صالح وليس معه دعوى الرسالة.

الأولياء: جمع ولي وهو العارف بالله تعالى، المواظب على الطاعات المجتنب للمناهي والمعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات.

نقض العادة: أي خارق لقانون السببية في الكون.

الجماد: الذي لا حياة له.

العجماء: الحي الذي لا ينطبق ويشمل جميع الحيوانات.

الشرح الإجمالي:

إن لله عباداً اعتصموا بدينه واخلصوا له وأنابوا إليه توجهوا إلى الخير واعرضوا عن الشر فاحبهم الله وأعلى مكانتهم ولبى طلباتهم وأكرمهم الحسنى في الدنيا والآخرة فأمدهم بعون منه وأجرى على أيديهم خوارق العادات مبرهنين للناس أحقية دينهم وصدق أقوالهم وصحة عبادتهم فأيد الله بهم دينه وغرس الإيمان في قلوب الناس ببركة أخلاقهم ونور اهتدائهم.

وأعلى مقام الكرامة هي الاستقامة على العمل الصالح؛ إذ عادة النفس تس
لصاحبها الانحراف والعزوف عن الخير، فالسيطرة على نزواتها وأحكام زمامها
الاستمرار على العمل الصالح أعلى كرامة من الله إلى عبده.

خوارق العادات تنقسم إلى أربعة أقسام:

١- **معجزة:** أمر خارق للعادة تقع ممن يدعي النبوة قبل ختم الرسالة وتقع هذه الأنبياء فقط وقد أسلفنا الكلام عليها.

٢- **كرامة:** أمر خارق للعادة يظهر على يد رجل صالح بدون دعوى النبوة و تكون للأولياء.

٣- **استدراج:** أمر خارق للعادة يظهر على يد من لا يؤمن ولا يعمل صالحاً تكون إهانة كما وقع لمسيلمة الكذاب إذ أتي إليه بأعور لأجل أن تبصر عينه فعل رسول الله ﷺ فلما مد يده إلى عينيه عورت الأخرى فصار أعمى.

وأتى به إلى بئر مالحة ليجعلها عذبة فبصق بها فغار ماؤها، وكإمدا الكافرين بالمال والصحة والنعيم في الدنيا، قال تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

٤- **معونة:** إذا ظهر أمر غير مألوف عادة على يد عوام المسلمين.

والفرق بينها وبين السحر:

أن السحر أمور وهمية لا حقيقة لها بل هي قوانين وممارسة أعمال للرائي حقيقة شيء وهو ليس كذلك، والكرامة أمر حقيقي لا وهمي خارق للعادة

وكرامات الأولياء:

لم يخالف فيها ولم ينكرها إلا المعتزلة ومن نحى نحوهم وذلك اختلاطها بالمعجزة وعندئذ لا يتميز النبي من غيره.

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٨٢.

والجواب:

على ذلك أن من تظهر الكرامة على يديه لم يدع النبوة ولو ادعاها بعد ختم الرسالة لحكمنا بكفره فضلاً عن ولايته.

ثم – كما بين الماتن – أن كرامة الولي معجزة لنبيه؛ إذ يفهم الناس بعد وقوعها منه أن دين هذا النبي حق ولولا ذلك لما امده بهذه الكرامة، ولا شك أنها تقوي إيمان الرائي أو السامع بذلك الدين الذي يدين به هذا الشخص.

ويستدل على ثبوتها

أولاً: بالكتاب

١- اكرم الله سيدتنا مريم بإعطائها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَمَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [١].

٢- وكما وقع لها أيضاً حين جاءها المخاض أن جرى لها بالماء وادي سريا وتساقط الرطب من الجذع ولم تكن النخلة مثمرة آنذاك.

وكما في قصة أصحاب الكهف إذ عاشوا السنين الطويلة نائمين وبدون طعام وشراب ولم تأكل أجسادهم الأرض.

٣- طلب سيدنا سليمان إحضار عرش ملكة اليمن بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس فأتاه به أحد وزرائه الصالحين آصف بن برخيا قبل ارتداد طرف سيدنا سليمان ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾[٢].

---

(١) سورة آل عمران: آية ٣٧.

(٢) سورة النمل: آية ٤٠.

ثانيا: بالسنة

روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ ذكر لأصحابه قصة فقال بينما رجل راكب بقرة إذ التفت إليه فقالت لم أخلق لهذا وإنما خلقت للحراثة. فقال النبي ﷺ : آمنت أنا وأبو بكر وعمر وأخذ الذئب شاة فتبعها الراعي فقال الذئب من لها يوم السبع يـوم لا راعي لها غيري قال آمنت به أنا وأبو بكر وعمر[1].

وقصة الصخرة التي نزلت على باب الغار الذي دخله ثلاثة أشخاص وتحركها بدون محرك.

ثالثاً: من المأثور

١- سيدنا عمر يخطب يوم الجمعة على منبر المدينة وجيش المسلمين بقيادة سارية ﷺ يقاتل في نهاوند وأراد العدو الاستيلاء على الجبل ليسيطر على المسلمين فكشف الله ذلك لسيدنا عمر فرآه من على المنبر فقال في أثناء خطبته يا سارية الجبَلَ الجبَلَ[2]. فسمع سارية صوت الخليفة فاستولى على الجبل قبل وصول العدو إليه.

فهاتان كرامتان

واحدة لسيدنا عمر وهي الرؤية من مكان بعيد.

والثانية لسيدنا سارية وهي السماع من مكان بعيد[3].

٢- نيل مصر له عادة يتعطل عن الجريان مرة في السنة إلا أن تلقى به جارية من أجمل الجواري .

---

(١) البخاري ٣ / ١٢٩.

(٢) منصوب على الاغراء أي الزمْ الجبل يلاحظ صحة الاثر في كشف الخفاء للعجلوني ٢ / ٣٨٠.

(٣) لم يبق مجال للذين لا يصدقون بهذا بعد أن أظهر العلم آلة الفاكس واللاسلكي وآلة الرائـي (التلفزيونـات) وأثبت أن الاصوات والصور لا تفنى من القضاء بل تبقى إلا أنها تحتاج إلى ما ترى به أو تسمع. كمـا لا يبقى ريب لمن ينكر تسجيل الملكين رقيب وعتيد أعمال وأقوال الإنسان بعد أن ظهرت الأشرطة الصوتية.

وحدث ذلك في عهد سيدنا عمر حيث كان الوالي سيدنا عمرو بن العاص فأخبر عمر بذلك فكتب إليه عمر كتاباً

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى نيل مصر من عبد الله عمر بن الخطاب أما بعد

" أيها النيل إن كنت تجري بنفسك فلا حاجة بنا إليك وإن كنت تجري بأمر الله فأجر على اسم الله ".

وأمر أن يلقيها في النيل فجرى من ذلك اليوم ولم يتوقف قط[١].

٣- لما طلب الروم من سيدنا خالد شرب السم تحدياً منهم لصحة دينه تناوله وقال بسم الله لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم. وشربه ولم يضره.

٤- كان بين يدي سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهما قصعة فسبحت وسمعا تسبيحها.

ومن الكرامات:

إطلاع بعض الصالحين على بعض الأسرار والمغيبات ولعل من ينكر يحتج على ذلك بقوله تعالى: ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لله ﴾[٢]. ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ﴾[٣].

فالجواب عن هذا من وجهين:

الوجه الأول: أن الألف واللام في الغيب للاستغراق والسلب إذا تقدم على العموم أفاد سلب العموم أي لا يعلم كل الغيب إلا هو، ومفهومه أن البعض يمكن أن يعلمه غير

---

(١) انظر الطبقات للسبكي ٢ / ٣٢٦.

(٢) سورة يونس: آية ١٩.

(٣) سورة الجن: آية ٢٦.

الله. ثم الآية الثانية قد استثنى منها فقال: ﴿ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ﴾ وهذا يدل على جواز إطلاع الله بعض عباده على ما غاب عن الحواس.

الوجه الثاني: أنه يسمى غيباً ما دام غير معلوم للشخص وهو من اختصاص الله تعالى إذ هو يعلم الغيب بذاته وبدون رفع الموانع، أما بعد رفع الحواجز والموانع فلا يسمى غيباً[1]. ولا نعني بالكرامة إلا رفع الحاجز والمانع لتفعل الحاسة فعلها فالأمور التي خلف الجدار غيب عني فإذا رفع الجدار خرجت عن كونها غيباً ومع ذلك فقدرة الله تعالى أعظم مما نراه محالاً عادة، والأمثلة على وجود الكرامة كثيرة جداً لا يسعها مقامنا هذا.

---

(1) إلا من باب المجاز المرسل باعتبار ما كان.

الفصل السادس

الخلافـــــة والإمامـــــة

ويتضمن:

١- فضل الخلفاء الراشدين ومن هو الأحق بالخلافة.

٢- لا بد للمسلمين من وجود إمام ظاهر.

٣- شروط الإمام.

٤- واجبات الإمام.

ص: وَأَفْضَلُ البَشَرِ بَعْدَ نَبِيِّنَا: أَبُو بَكرٍ الصديقُ، ثمَّ عُمَرُ الفَـارُوقُ، ثـمَّ عُثْمَـانُ ذُو النورَين، ثمَّ عَلي المُرتَضَى رضي الله عَنْهمْ.

وخلافَتُهم عَلَى هذا الترتيب، والخلافَةُ ثَلاثُونَ سَنَة، ثمَّ بَعدها مُلْكٌ وأمَارَةٌ.

التفضيل بين الخلفاء الراشدين

ش: المفردات

بعد نبينا: الأولى أن يقول بعد الأنبياء؛ لأن أبا بكر ليس أفضل من الأنبياء[1].

الصديق: المبالغ في الصدق.

الفاروق: الذي فرق بين الحق والباطل.

ذو النورين: لقب به عثمان رضي الله عنه. لأنه تزوج بنتي رسول الله ﷺ ؛ أو لأنـه كان يختم القرآن مرتين في اليوم والليلة؛ أو لأن الجنة تبرق له برقتين.

المرتضى: الذي ارتضاه رسول الله ﷺ في أمر الدنيا والدين.

الخلافة: النيابة عن رسول الله ﷺ في إقامة الدين والدولة.

الشرح الإجمالي:

في هذا الموضوع مبحثان:

أحدهما: أي الخلفاء الأربعة أفضل؟

ثانيهما: أيهم أحق بالخلافة؟

لذلك سنتكلم عن كل مبحث على انفراد.

---

(١) وإن أراد في الزمن يكون أبو بكر أفضل من عيسى وليس كذلك.

أولاً: من هو أفضلهم؟

مما لا شك فيه أن مقياس التفاضل عند الله تعالى لا يكون مبنيّاً على شرف الآباء والأحساب إذ يقول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1].

فالتقوى هي الأساس في تقدم مكانة الإنسان وتأخرها، وعلى هذا فقد أجمع المسلمون – ما عدا من لا يعتد بخلافه – على أن أبا بكر الصديق هو أفضل الصحابة كافة ثم يليه بالفضل عمر بن الخطاب، ثم يليه عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب ثم بقية الصحابة[2]. ونحن سنتكلم عن بعض مناقب كل واحد منهم على الانفراد ذاكرين أدلة تفضيله على من بعده.

أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ

اسمه عبد الله، أو عتيق سمي به لعتاقة وجهه – أي حسنه، وقيل هو لقب له وليس اسماً.

كنيته – أبو بكر.

لقبه – الصديق.

اسم أبيه – عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن ربيعة، بن تيم.

كنية أبيه – أبو قحافة.

توفي – ليلة الثلاثاء ٢٢ جمادى الآخرة / ١٣هـ.

عمره – ٦٣ سنة.

دفن – إلى جانب رسول الله ﷺ .

إسلامه – كان أول الرجال البالغين دخولاً في الإسلام.

---

(١) سورة الحجرات: آية ١٣.

(٢) يقال إنه يليهم في المرتبة بقية العشرة المبشرين بالجنة ثم أهل بدر، ثم أهل أحد، ثم أهل بيعة الرضوان. نثر اللآلي، ص٦٦٨.

مدة توليه الخلافة – سنتان وثلاثة أشهر وعشرون يوماً[١].

الاستدلال على أفضليته

١- ثناء الله عليه في القرآن الكريم، إذ كان الثاني مع رسول الله ﷺ إذ يقـول: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ الله إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا ﴾[٢]. وهل هناك شرف أعلى وأفضل ممن كان أحد اثنين أحدهما رسول الله ﷺ

٢- وقال تعالى في حقه: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ۝ الَّذِى يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ۝ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ [٣].

٣- أن امرأة أتت النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه فقالت: أرايت إن جئت ولم أجدك – كأنها تقول الموت – قال ﷺ: إن لم تجديني فأتي أبا بكر [٤].

٤- ويقول ﷺ: ((إنَّ أمَنَّ النَّاس عليَّ في صحبتِه ومالهِ أبو بكر لو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر ولكن أُخُوَّة الإسلام، لا يَبقَيَنَّ في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر) [٥].

٥- روى عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال لأبي بكر ﷺ : (أنت صاحبي في الغار وأنت معي على الحوض) [٦]. رواه الترمذي.

---

(١) انظر هذا في نثر اللآلي، ص١٤٩ – ١٥٧.

(٢) سورة التوبة: آية ٤٠.

(٣) سورة الليل: آية ١٧ – ٢١.

(٤) البخاري، ٥ / ٧٣.

(٥) البخاري، ٥ / ٧٣.

(٦) مشكاة المصابيح، ٣ / ٢٢٢.

٦- عن محمد بن الحنفية – وهو ابن الإمام علي رضي الله عنهما – أنه قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ ؟ قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: عمر، وخشيت أن يقول عثمان، قلت ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين) [١].

٧- تضحيته أمام رسول الله ﷺ وانفاق جميع أمواله في سبيل الدعوة الإسلامية.

٨- إعتاق عدد من الأرقاء المسلمين وإنقاذهم من التعذيب[٢].

٩- وقوله ﷺ : (لو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكنه أخي وصاحبي وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلا) يعني نفسه [٣]. وفي هذا كفاية لمن لديه إنصاف أن يعرف أفضلية الصديق ﷺ.

الفاروق عمر بن الخطاب أمير المؤمنين [٤].

أسمه – عمر.

لقبه – الفاروق.

كنيته – أبو حفص.

لسم أبيه – الخطاب بن نفيل بن عبد العزى، بن رباح بن عبد الله، بن قرط، بن رزاح، بن عدي، بن كعب، وهو الجد السابع لرسول الله ﷺ.

توفي – يوم الأربعاء ٢٥ ذي الحجة سنة ٢٣ قتيلا.

عمره – ٦٣ سنة.

---

(١) البخاري ٤ / ١٩٢؛ ومسلم ٧ / ١٠٩.

(٢) وهم بلال بن رباح وعامر بن فهيرة والنهدية وبنتها، وام عميس، وزنيرة، ولمة بني المؤمل اشتراهم الصديق واعتقهم ابتغاء لوجه الله تعالى.

(٣) يلاحظ حديث لو كنت متخذاً خليلاً في مسلم ٧ / ٦٠٨.

(٤) لقب بذلك لأنهم أول الأمر كانوا يخاطبونه بخليفة خليفة رسول الله ثم عدلوا إلى أمير المؤمنين لأنها أخصر وهكذا استمرت في الخلفاء الباقين.

وكان قد قتله أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة [1].

دفن – إلى جانب رسول الله ﷺ وأبي بكر.

إسلامه – في السنة السادسة من البعثة.

مدة خلافته – عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام.

الخليفة عمر ﷺ يأتي بالدرجة الثانية في الفضل بعد أبي بكر الصديق ﷺ.

ويستدل على فضله بما يأتي:

١- بحديث محمد بن الحنفية السابق.

٢- ما رواه أبو جحيفة السوائي قال: سمعت علياً ﷺ يقول: ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد نبيها؟ أبو بكر، ثم قال: ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد أبي بكر؟ عمر [2].

٣- لأن الله أعز به الإسلام والمسلمين، إذ يقول رسول الله ﷺ (اللهم أعز الدين بعمر بن الخطاب) [3]. ويقول أيضاً: (ما زلنا أعزَّةً منذُ أسلَمَ عُمَر) [4].

٤- قوله ﷺ : (لو كان بعدي نبي لكان عمر) [5].

٥- أظهر المسلمون دعوتهم من السر بها بعد إسلامه.

٦- لأنه صهر المصطفى ﷺ إذ زوجه بنته حفصة رضي الله عنها.

---

(١) حيث كمن له في الغلس بزاوية من زوايا المسجد بعد أن أعد له خنجراً مسموماً مشحوذاً فلما خرج ﷺ ليوقظ الناس للصلاة وكان يأمر بتسوية الصفوف قبل الصلاة فدنا منه فضربه بذلك الخنجر ثلاث أو ست ضربات في كتفه وفي خاصرته.

(٢) مسند الإمام أحمد، ١ / ١٠٦.

(٣) رواه الترمذي، ٢ / ٢٩٢.

(٤) البخاري، ٤ / ٢٤٢.

(٥) انظر مسند الإمام أحمد، ٤ / ١٥٤؛ وتحفة الاحوذي، ١٠ / ١٧٣.

عثمان بن عفان العدوي

اسمه – عثمان.

لقبه – ذو النورين وقد ذكرنا سبب تلقيبه بذلك.

اسم أبيه – عفان بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وهو الجد الثالث لرسول الله ﷺ.

توفي – قتيلاً في داره يوم الجمعة صبيحة عيد الأضحى سنة ٣٥.

دفن – في البقيع وقبره ظاهر معروف.

مدة خلافته – إحدى عشر سنة، وإحد عشر شهراً وثمانية عشر يوماً.

إسلامه – قبل دخول الرسول ﷺ دارُ الأرقم.

اتفق علماء السنة على أن عثمان بن عفان يأتي بالدرجة الثالثة في التفضيل بعد الأنبياء، ولكنهم اختلفوا في أفضليته على سيدنا علي بن أبي طالب.

فذهب جمهورهم إلى أنه أفضل من علي ؓ وبعضهم فضل علياً عليه، منهم أهل الكوفة وسفيان الثوري، وقد صح رجوعه في آخر عمره، ونقل أيضاً عن الإمام مالك إلا أن غير واحد من العلماء قال برجوعه عن ذلك، ونقل عنه أيضاً التوقف في التفضيل وهو ما ذهب إليه إمام الحرمين [(١)].

وقد نقل عن بعض أئمة السلف أنه قال: من قدم علياً في الأفضلية على عثمان فقد ازدرى بالمهاجرين والأنصار لأنهم قدموه باختيارهم واتفاقهم [(٢)].

ومما يستدل به على أفضلية عثمان هو:

١- ما أخرجه الترمذي عن طلحة وابن ماجة عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: (لكل نبي رفيق في الجنة ورفيقي فيها عثمان) رواه الترمذي [(٣)].

---

(١) يلاحظ نثر اللآلي، ص١٦٣.

(٢) يلاحظ نثر اللآلي، ص١٦٥.

(٣) انظر تحفة الاحوذي، ١٠ / ١٨٨.

٢- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم [١].

٣- ومن ذلك تجهيزه جيش العسرة في غزوة تبوك فقد جهز المسلمين بمائة بعير وقيل بألف بعير باقتابها واحلاسها وبألف دينار حتى قال النبي ﷺ (ماضَرَّ عثمان ما عمل بعد هذه – مرتين – وقال اللهم ارضَ عن عثمان فإني عنه راضٍ) [٢].

٤- توسعته للمسجد النبوي مرتين.

٥- ومنها مبايعة الرسول ﷺ في بيعة الرضوان تحت الشجرة في صلح الحديبية حيث بايعه المسلمون على قتال من يصدهم عن البيت الحرام وكان عثمان قد أرسل إلى أهل مكة ليفاوضهم فضرب الرسول ﷺ يده اليمنى على شماله وقال هذه بيعة عثمان لثقته الجسيمة به أنه في مقدمة المبايعين [٣].

٦- هجرته إلى الحبشة مع زوجته رقية مرتين والثالثة إلى المدينة المنورة.

٧- تزوجه من بنتي النبي ﷺ رقية وأم كلثوم وقال بعد وفاة الثانية (لَو كانتْ عندي ثَالِثَة لَزَوَّجتَكَهَا) [٤]. ولم يعرف أن أحداً تزوج بنتي رسول غيره.

---

(١) البخاري ٥ / ١٨.

(٢) انظر مشكاة المصابيح، ٣ / ٢٣٦.

(٣) انظر مشكاة المصابيح، ٣ / ٢٣٦.

(٤) ولربما يقولون أنهما قد زوجهما من قبله لابني أبي لهب وهما لم يفضلا بذلك فزواجه منهما لا يدل على فضله فنقول إن زواجهما من ابني أبي لهب كان مجرد عقد لا دخول معه وكان قبل البعثة ولما بقيا مصرين على الكفر فارقهما منهما.

علي بن أبي طالب

اسمه – علي.

أبوه – عبد مناف بن عبد المطلب جد رسول الله ﷺ.

كنيته – أبا الحسن.

ألقابه – لقب بالكرار وبحيدر وبأبي تراب.

كنية أبيه – أبو طالب لأن طالباً أكبر أولاده.

توفي – شهيداً ليلة الجمعة ٢١ رمضان المبارك سنة ٤٠ هـ.

قاتله – عبد الرحمن بن ملحم قتله ليلاً عندما خرج لصلاة الصبح.

عمره – ٦٣ سنة.

مدة خلافته – أربع سنين وعشرة أشهر.

إسلامه – كان أول الصبيان إسلاماً.

أفضليته الإمام علي تأتي بالدرجة الرابعة بعد الأنبياء وهذا ما اتفق عليه السلف ولا بد من أن نحسن الظن بهم إذ أنهم لو لم يعرفوا ذلك لما اتفقوا عليه.

ولم يخالف في ذلك إلا الشيعة حيث اعتقدوا أن علياً أفضل من الثلاثة لأنه ابن عم الرسول ﷺ وتمسكوا ببعض الأحاديث التي وردت في فضله.

واستدلوا بها على أفضليته على جميع الصحابة بأدلة سنذكرها ونناقشها في بحث إمامتهم. فهو أفضل بعد الثلاثة من سائر الصحابة الآخرين.

ومما يستدل على أفضليته على بقية الصحابة ما يأتي:-

١- أنه زوجه رسول الله ﷺ بنته فاطمة الزهراء.

٢- ومنها أنه ابن عمه وممن شهد له بكثرة العلم.

٣- ومنها أنه فدى رسول الله ﷺ ليلة الهجرة ونام مكانه في الفراش حتى الصبح.

٤- ومنها أنه أبو الحسنين وهما ريحانتا رسول الله ﷺ وسيدا شباب أهل الجنة.

٥- قوله ﷺ في حقه: (مَنْ كنتُ مولاهُ فعليٌ مولاهُ اللهمَّ والِ مَنْ والاهُ وعادِ مَنْ عاداهُ) [١]. رواه أحمد.

٦- وقوله ﷺ (أنتَ مني بِمنزلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسى إلاَّ أنهُ لا نبيَّ مِنْ بَعْدي) [٢].

٧- وقوله أيضاً: في الحديث الصحيح (من سبَّ علياً فقد سبني).

٨- نشأته في بيت المصطفى ﷺ ومواَخاته له.

ثانياً: بيان من هو أحق بالخلافة

ما دام أن أفضليتهم جرت على هذا الترتيب فأن خلافتهم كانت أيضاً على هذا الترتيب.

فأولى الناس بالخلافة هو أبو بكر الصديق ﷺ وهو ما أجمع عليه المسلمون ما عدا بعض الفرق [٣]. إذ أنهم يعتقدون أن الأولى بالخلافة هو سيدنا علي ﷺ. ولكل أدلة نذكرها

أولاً: أدلة القائلين بأولوية أبي بكر

١- ما تقدم من الامتيازات الفضلى التي وصفه ﷺ بها.

٢- تقديم الرسول ﷺ له ليصلي بالناس في مرض موته وفي هذا إشارة إلى أنه أحق الناس بإمامة الدين فإمامة الدنيا من باب أولى.

---

(١) ينظر مشكاة المصابيح، ٣ / ٢٤٦.

(٢) مسلم، ٧ ، ١٢٠.

(٣) الامامية هم الذين يؤمنون بخلافة الاثني عشر اماماً وهم علي بن أبي طالب، ثم ابنه الحسن، ثم أخوه الحسين، ثم ابنه زين العابدين، ثم ابنه الباقر، ثم ابنه جعفر الصادق ثم ابنه موسى الكاظم، ثم ابنه علي الرضى ثم ابنه محمد التقي، ثم ابنه علي النقي ثم ابنه الحسن العسكري ثم ابنه محمد القائم المنتظر المهدي أما الزيدية المنسوبون إلى زيد بن علي بن زين العابدين فإنهم يؤمنون بأفضلية علي على الثلاثة إلا أنهم يقرون ويعترفون بإمامتهم باعتبار أنه يجوز امامة المفضول مع وجود الأفضل.

٣- ما روت عائشة رضي الله عنها – كما في صحيح مسلم – أن النبي ﷺ قال لها في مرضه (أدعي أبا بكر وأخاك حتى أكتبَ كتاباً فإني أخَافُ أن يَتمنى مُتَمَنٍّ وَيقولُ قَائلٌ أنا أولى ويأبى الله والمُؤمنُونَ إلاَ أبا بَكرٍ) [١].

٤- إجماع الصحابة المهاجرين والأنصار على مبايعته على الخلافة ومنهم علي كرم الله وجهه على رؤوس الاشهاد بعد توقف كان منه ظاناً أنه الأولى بهذا الأمر لقرابته من رسول الله ﷺ ثم اتضح له الحق ولولا ذلك لما اتفقوا على بيعته ولنازعه علي كما نازع معاوية.

٥- من نص كتاب سيدنا علي إلى سيدنا معاوية رضي الله عنهما حيث قال: (إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار.

فإن اجمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضا، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى) [٢].

وعندما ثقل المرض بأبي بكر دعا لفيفاً من الصحابة[٣]. يشاورهم في أمر الخلافة والعهد بها لعمر فأيدوه بذلك ثم أمر عثمان أن يكتب ما يأتي:

(بسم الله الرحمن الرحيم – هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، في الحال التي يؤمن فيها الكافر، ويتقى فيها الفاجر، ويصدق فيها الكاذب، أني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فإن يعدل

---

(١) مسلم، ٧ / ١١٠.

(٢) انظر نهج البلاغة، طبع بيروت، ص٤٤٦.

(٣) منهم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد وأسيد بن حضير وعدد من المهاجرين والأنصار.

فذاك ظني به ورجائي فيه، وإن يجر ويبدل فلا علم لي بالغيب، والخيرَ أردت ولكل أمريء ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) [١]..

ومع هذا فإن الصحيفة قد أقرت من جميع الصحابة وحتى من سيدنا علي حيث قال لما عرضت عليه - وافقت على من فيها ولو كان عمر [٢]، ثم إنه لو لم يكن الخليفة حقاً وأنه مغتصب لها من الإمام علي وأنه مخالف للنص لما جاز لعلي أن يزوجه بنته أم كلثوم من زوجته فاطمة. إذ هو خصم من ناحية ومخالف لنص من نصوص رسول الله ﷺ من ناحية أخرى.

وقول الشيعة أنه تزوجها منه قسراً يتنافى مع شجاعة علي وغيرته وثلب له لا يليق مع مكانته وقدرته.

ثم لما طعن ترك الخلافة شورى بين ستة [٣]. هم عثمان، وعلي وعبد الرحمن بن عوف وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم ثم فوض الخمسة الأمر إلى عبد الرحمن بن عوف ورضوا بما يحكم به ويختاره فأختار سيدنا عثمان وجرت له البيعة فانقاد له الجميع فأصبح إجماعاً.

وهناك حديث آخر يشير إلى خلافته

وهو ما أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لعثمان (يا عُثْمَانُ إنَّ الله مُقمّصكَ قَميصاً فَإنْ أرَادكَ المنَافِقونَ عَلَى خَلعِهِ فلاَ تَخلعْهُ حَتى تلْقَاني) [٤].

---

(١) يلاحظ نثر اللآلي، ص١٥٨.

(٢) يلاحظ التفتازاني، ص٢٣١.

(٣) ترك الأمر شورى بين هؤلاء الستة يقوم مقام لنتخاب الجمهور إذ أنهم يمثلون جمع المسلمين آنذاك فهو بمثابة مجلس الأمة أو مجلس النواب.

(٤) انظر مشكاة المصابيح، ٣ / ٢٣٨.

ولا شك أن المراد بالقميص هنا الخلافة بدليل توصيته بعدم خلعه إن طلب ذلك المنافقون.

ثم بعد أن استشهد ترك الأمر مهملاً فاجتمع كبراء الصحابة من المهاجرين والأنصار فالتمسوا من سيدنا علي قبولها لأنه أحق بها دون غيره وقد أقسموا عليه فبايع له الحاضرون منهم.

أدلة القائلين بأحقية الإمام علي بالخلافة

١- ذهبت الامامية إلى القول بأن من أصول الدين الإيمان بالنص والتعيين أي لا بد من الاعتقاد بأن النبي ﷺ قد نص على إمامة علي وقد عينه للخلافة بعده.

واستدلوا على ذلك:

أ- أن الرسول ﷺ لما عاد من حجة الوداع في ١٨ / ذي الحجة وصل إلى مكان يقال له (غديرخم) فقال عنده في علي: (مَنْ كنتُ مَولاَهُ فَعَلي مَولاَهُ، اللّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالاهُ وعَادِ مَنْ عَادَاهُ) [١].

ويجاب عن هذا:

بأنه على فرض صحة وروده فليس فيه ما يصرح أو يشير إلى أنه أولى بالخلافة من غيره، فلفظ المولى لا يجئ بمعنى الأولى هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه قال((من كنت مولاه فعلي مولاه)) أي في حياته ﷺ وبعد وفاته فلو كان فيه دلالة على الخلافة للزم توليه الأمر مع النبي في حياته لأنه مشارك له في الولاية.

---

(١) انظر مشكاة المصابيح، ٣ / ٢٣٨.

وعلى فرض دلالة ذلك على الأولوية فلا يلزم حملها على أولوية التصرف بل على الأولوية في المحبة والنصرة والتعظيم وهذا لا نخالف فيه، ولو أراد النبي بذلك التصرف والخلافة لقال اللهم وال من كان في تصرفه وعاد من لم يكن كذلك[1].

وليس في الحديث إلا ما يشير إلى جلالة قدره وعظيم منزلته وما الذي يمنعه ﷺ إن أراد بذلك الخلافة – أن يصرح في ذلك المجتمع بخلافته بنص واضح وصريح لا يقبل التأويل؟

ب- قوله ﷺ (أنتَ مِنّي بِمنزلَةِ هَارُون مِنْ مُوسَى إلاَّ أنه لاَ نَبِيَّ بَعْدِي)

وجه استدلالهم بذلك: أن موسى كان يستخلف هارون وما دام أن علياً بمنزلة هارون فإنه الخليفة بعده.

والجواب على هذا بعد تسليم صحته:

أن موسى كان يستخلف هارون في حياته لا بعد موته فلو كان ذلك يلزم مثله في علي ليكون خليفة الرسول بعد موته لأنه يستخلفه في حياته استخلاف موسى لهارون للزم أحقية عبد الله بن أم مكتوم بالخلافة لأنه كان ﷺ يستخلفه مكانه في بعض الغزوات، ثم إن ذلك لا يدل على الاستخلاف من بعده، كهارون لموسى إذ أن هارون قد توفي قبل موسى فبطل وجه الشبه الذي يقصدونه.

ج- قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [2].

قالوا: إن سائلاً جاء يسأل صدقة وعلي راكع فتصدق عليه في ركوعه فنزلت في حقه هذه الآية.

---

(1) يلاحظ نثر اللآلي، ص١٧١.

(2) سورة المائدة: آية ٥٥.

وقالوا: المراد بالولاية ولاية التصرف وهي محصورة بالله ورسوله والـذين آمنوا ويراد بهم علي لأنه هو الموصوف بالتصدق حالة الركوع.

ويجاب عن هذا من وجوه:

الوجـه الأول: أن الآية نزلت في المهاجرين والأنصار جميعاً بدلالة صـيغة الجمع وهي (الذين) وهي الحقيقة في ذلك وأن كانت قد تحمل على المفرد مجـازاً إذ لا يوجد ما يقتضي صرفها عن ظاهرها.

وأما تفسير ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ فإنه لا يراد به حالة الركوع الحسي لأن ذلـك قـد يؤدي إلى بطلان الصلاة بل يراد به الخشوع أي وهم خاشعون.

الوجه الثاني: لا يلزم في لفظ الولي أن يراد به ولاية الحكم بل قد يراد بـه الناصر والمعين، والزوج والرئيس والآية بعده لا تساعد على حمل الولي هنا علـى ولاية التصرف إذ لا يمكن حمل كلمة الأولياء في الثانية [1]. على التصرف لأنه لـم يخطر على بال أحد منهم أن يجعل الخليفة واحداً من اليهود أو النصارى.

الوجه الثالث: أن الحصر في (إنما) يأتي خبراً لمن هو متردد وشـاك فـي الأمر وقت إلقاء الخبر وعندما نزلت الآية لم يكن هناك أي خلاف أو تردد في أمـر الخلافة إذ هو عصر النبوة آنذاك والإمامة نيابة عنها فلا داعي للإتيان بـ(إنمـا) إن كان المعنى يراد به ما قصدتم؛ إذ لا داعي للحصر ما دام ذهن المخاطب خالياً مـن ذلك فلا يراد بذلك إلا النصر والمودة.

٢- وقد يستدلون على كونه أحق بالخلافة بأنه ابن عم الرسول ﷺ وهو أقرب أولئـك الثلاثة فهو أحق بها وراثة.

---

(1) الآية التي بعدها هي: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ﴾.

فيجاب عن ذلك من وجهين:

أولاً: أن الإسلام لا يؤيد كون الإمامة وراثة بل المسلمون هم الذين يبايعون من أرادوا استخلافه من قريش.

ثانياً: لو كان الأمر مبنياً على الوراثة لكان العباس أولى بها لأنه عم الرسول ﷺ فهو أقرب من علي وأكبر سناً.

٣- ولربما يستدلون بأنه أحق لأنه تزوج بنت الرسول ﷺ فاطمة فهو صهره.

ويجاب على هذا أن كان الأمر مبنياً على المصاهرة فإن عثمان أحق منه ومن أبي بكر بذلك لأنه تزوج بنتي الرسول ﷺ.

وبعد هذا:

فإنّا نقول: أن هذا خلاف لا يخدم مصلحة المسلمين، ولا يقدم المسلمين كون هذا أولى من هذا بل هو خلاف يؤخرهم عن الأهداف السامية التي جاء بها الإسلام وعلى فرض أن علياً أولى من أبي بكر والثلاثة فإنّا نقول: إن اختيار الثلاثة للإمامة لو كان غير موافق للواقع كما زعمتم أليسوا أنهم قد قدموا خدمة للمسلمين وقاموا بالخلافة على أتم وجه وأحسنه وليس المراد من الخلافة إلا ذلك فإثارة هذه الأمور بعد أن مضى على ما يزيد على بضعة عشر قرناً ما هو إلا إثارة أحقاد وأضغان لا تخدم الأمة بشيء ولا تقدمها إلى الإمام.

ومع ذلك فإن الإمام علياً قد بايعهم كما قلنا وقاتل معهم وصلى الجمع والأعياد والجماعة خلفهم وتزوج من سبيهم أم محمد بن الحنيفة فلو كانوا غير شرعين لما جاز له ذلك.

وقد يقال: إنه قد عمل ذلك تقية، فنقول حاشا أبا الحسنين أن يسكت عن الحق؛ إذ ليس ذلك من شأنه وكيف يقر الباطل من لم يطأطأ رأسه يوماً لباطل ولم يقر خليفة منهم على اجتهاد مخالف للشريعة؛ فاتهامه بذلك طعن في شخصيته الكريمة؟!

ولو كانت عادته التقية فلماذا لم يستعملها مع معاوية ﷺ، ولعلهم يقولــون إن الرسول ﷺ قد عهد إليه أن لا يوقع فتنة ولا يسل سيفاً، فإنا نقول: هذا مما لا يتفق مع سياسة الدولة إذ أن هذا الأمر يؤدي إلى فوضى في الدولة الإسلامية.

ثم إن كانت كذلك فلماذا لم يتمسك به حينما قاتل في واقعة الجمــل وصــفين

وبعد أن ذكرنا ترتيب أولوية الخلافة بالنسبة للخلفاء الأربعة تبين لنا أن مدة الخلافــة ثلاثون سنة[1].

إذ يقول النبي ﷺ (الخِلاَفَةَ بَعْدِي ثَلاَثُونَ سنةً ثُمَّ تَصِير مُلْكاً عـضوضا)[2]. رواه أحمد والترمذي وأبو داود.

وإذا جمعت مدة الخلافة الأربعة كما ذكرنا سابقاً بلغت هذه المدة والله أعلم.

---

(١) أي الخلافة الكاملة التي لا يشوبها شيء من المخالفة وإلا فقد أطلق على الأمويين والعباسيين لفظ الخلافة.

(٢) ملكاً بكسر الميم وسكون اللام وقيل بفتح الميم وكسر اللام والعضوض بمعنى عاضا أي يظلم بعضهم بعضا وعبر به لأن من ظلم إنساناً فكأنه عضه / انظر الحديث في مشكاة المصابيح، ٣ / ٧.

ص: والمُسلمونَ لاَ بُدَّ لَهُمْ منْ إمام يقُومُ بتنْفيذ أحكامهم، وإقامة حُدودهمْ، وسَد ثُغورهمْ، وتَجْهيز جُيُوشِهِمْ، وأخذ صدقاتهمْ، وقهر المتغلّبة والمتلصصة وقطّاع الطريق، وإقامة الجُمعِ والأعيَادِ، وقطْعِ المُنَازعَات بينَ العباد، وتزويج الصغار والصغائر الذين لا أولياء لَهُمْ، وقسْمَةِ الغَنائِمِ. ثُمَّ ينبَغي أنْ يَكونَ الإمامُ ظاهرا لا مُختَفِياً ولاَ مُنتظراً.

ويكُونُ مِنْ قُريشٍ، ولا يَجوزُ مِنْ غَيرهمْ ولاَ يختصُّ ببني هاشم وَأولادِ عَليّ ﷺ، ولا يشْتَرطُ أنْ يكُونَ مَعْصوماً وَلاَ أنْ يكُونَ أفضلَ أهلِ زَمَانه، ويشْترَطُ أنْ يكونَ مِنْ أهلَ الولاَيةِ الكاملةِ، وسائساً قادراً على تنفيذ الأحكام وحِفْظِ حُدُود الإسلاَم وإنْصافِ المظلُومِ مِنْ الظَّالمِ ولا يَنْعزِلُ بالفِسقِ والجَوْرِ.

الإمامة أو الرياسة العامة

ش: المفردات

الإمام: هو الخليفة لجميع البلاد الإسلامية.

الثغور: الموضع الذي يخشى منه تسلل الأعداء إلى بلاد المسلمين.

المتغلبة: الذين يستولون على أملاك الناس قهراً.

قطاع الطريق: الذين يقطعون طريق الناس ليأخذوا ما لديهم من المال.

المختفي: الذي يستر نفسه ويعزلها عن أنظار الناس خوفاً منهم.

المنتظر: يعني تكون الناس بدون إمام وينتظرون ظهوره.

المعصوم: العصمة أن لا يخلق الله تعالى الذنب في العبد مع بقاء قدرته واختياره عليه.

الولاية الكاملة: هي كونه مسلماً حراً ذكراً عاقلاً.

سائساً: هي حسن التصرف في الأمور والجدارة بحلها.

الجَوْر: الظلم على العباد.

الشرح الإجمالي:

لا بد للمسلمين من إمام عام ليحفظ لهم مصالحهم ويزجرهم عن مضارهم وليحفظ قوانين الشرع ويرعى البلاد والعباد، وليقيم الحدود على المعتدين ويعقد الجمع والأعياد، وينصب القضاة ليقطعوا المنازعة بين الناس، وليكون وليّ من لا ولي له.

ولا يكون الإمام مختفياً عن أنظار الناس وينتظر ظهوره ليصلح ما فسد ويلم شعث ما تفرق، إذ ذلك مناف لمشروعية وجوده.

وقد زعمت الإماميةُ: أن الإمامة قد انتهت إلى محمد القائم المنتظر الملقب بالمهدي وأنه قد اختفى خوفاً من قتْل أعدائه فلا إمام معترف به بعده وأنه سيظهر ويملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً وظلماً، وعلى هذا الأساس لا يقيمون الجمع والجماعة لأنها لا تصح إلا خلف الإمام المعصوم ولم يظهر إلى حد الآن [1].

فيجاب عن هذا:

أن هذا كلام باطل لأن اختفاء الإمام يعني عدم وجود إمام وهو أمر يعطل كثيراً من أمور الدنيا والدين وتمر الأجيال والقرون والناس بدون إمام يقيم لهم العبادة وحدود الدين وذلك مناف للرسالة الإسلامية.

وأيضاً فإن الإمام أحوج ما يكون الناس إليه عند ظهور الظلم وفساد الزمان واختلاف الآراء فاختفاؤه في ظروف هكذا تهرب من الواجب الملقى عليه وهو أمر مناف لحكمة الإمامة.

---

(1) ربما يحتج بأن بعض الأحاديث نطقت بالمهدي يظهر قبل الدجال فالجواب على هذا أنه سيولد في ذلك العصر لا أنه مختف وسيظهر وشأن ظهوره كشأن بروز بعض المصلحين من أبناء هذه الأمة.

ومما يشترط في الإمام:

أن يكون قريشياً وذلك لما رواه الإمام علي ﷺ عندما اختلف الأنصار والمهاجرون في الإمام (عن رسول الله ﷺ أنه قال: الأئمة من قريش)[1]. وهو وإن كان خبرَ واحدٍ إلا أنه لما لم يجد معارضة من قبل الصحابة ولم ينكر عليه أحد صار في حكم المجمع عليه؛ ولما روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: (لا يزال هذا الأمر[2]. في قريش ما بقي من الناس اثنان)[3]. بيد أنه لا يلزم أن يكون الإمام من بني هاشم ولا من أولاد علي خاصة؛ لأن الخلفاء الثلاثة ليسوا من بني هاشم بل هم قريشيون.

وهل يشترط فيه أن يكون معصوما؟

العصمة ليست شرطاً في الخليفة أو الإمام؛ لأن الأمة أجمعت على خلافة أبي بكر وعمر وعثمان مع عدم القطع بعصمتهم، والإمامية القائلون بذلك لا دليل لهم إلا قوله تعالى: ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾[4]. إذ قالوا: الإمامة عهد الأمة لا ينالها الظالم ولا تناله وغير المعصوم ظالم.

والجواب: إننا لا نسلم أن غير المعصوم ظالم، لأن الظالم من ارتكب معصية مسقطة للعدالة مع عدم التوبة والإصلاح[5].

وهل يشترط فيه أن يكون أفضل أهل زمانه؟

الواقع أن أمر الإمامة مناط بالكفاءة والمقدرة والقابلية والسياسية ولا يشترط أن يكون أفضل أهل عصره علماً وصلاحاً.

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي وصححاه وقال ابن حجر رحمه الله حديث حسن انظر فيض القدير، ٣ / ١٨٩.

(٢) المراد بالأمر الخلافة.

(٣) البخاري، ٤ / ١٥٥، طبعة المكتبة الإسلامية استانبول؛ ومسلم ٣ / ١٤٥٢ نشر وتوزيع رئاسة البحوث والافتاء في السعودية.

(٤) سورة البقرة: آية ١٢٤.

(٥) انظر التفتازاني، ص٢٣٨.

بدليل أن عمر ﷺ قد ترك الخلافة بين الستة من الصحابة الكرام ولا شك أن منهم من هو أفضل من بعض.

ما هي الشروط التي يجب حصولها في الإمام؟

يجب أن تتوافر فيه الشروط الآتية وبعكسها يحصل الخلل في نظام الدولة:

١- أن تكون له ولاية كاملة ويعني بها توافر ما يأتي:-

أ- **الإسلام**: فلا يكون إمام المسلمين كافراً لأنها ولاية ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا.

ب- **الحرية**: لا يكون الإمام مملوكاً لأنه عبد مشغول بخدمة مالكه إضافة إلى النظرة إليه من قبل الناس.

ج- **العقل**: فلا يكون المجنون أو من في عقله خلل إماماً.

د- **البلوغ**: فالصبي يحتاج إلى من يتولاه فضلاً عن توليه لغيره.

هـ- **الذكورية**: فالمرأة لا تكون إماماً على المسلمين لضعف عاطفتها ولنقصان دينها وعقلها.

٢- أن يحسن سياسة الدولة الداخلية والخارجية ويكون ذا شوكة تمكنه من التصرف في الدولة.

٣- أن تكون له الكفاءة العلمية والقدرة والشجاعة لتنفيذ الأحكام وإقامة الحدود والعقوبات وصد المعتدي والحفاظ على البلاد وحقوقها[١].

هل ينعزل بالفسق والجور؟

اشترط في الإمام ما تقدم من الشروط وليس منها كونه عادلاً وصالحاً ومعصوماً، وإذا كان تنصيبه لا يحتاج إلى هذا الشرط فطروّ الفسق والجور له أثناء تولية الإمامة لا يعزله من ذلك، فقد سارت الأمة وراء الكثير من الأمراء الذين ظهر

---

(١) يلاحظ شرح المواقف ٣.

منهم ذلك، وقبلوا أوامرهم وأقاموا الجمع والأعياد بأذنهم ولم يخرجوا عليهم، وهذا رأي الحنفية والحنابلة والمالكية، والراجح من مذهب الشافعية.

هل يجوز تعدد الأئمة؟

لا يجوز مبايعة أكثر من إمام عام للمسلمين وإلا فإن ذلك يؤدي إلى شق عصى المسلمين وفرقتهم وهذا أمر يتنافى مع حكمة نصب الإمام.

إذا تغلب شخص واستولى على السلطة فهل يعتبر إماماً؟

نعم إذا تغلب إنسان على السلطة والإمامة بدون مبايعة المسلمين وهو مسلم اعتد به وصح كل شيء يترتب على أمره من أمور الدنيا والدين وكل ما يتوقف على وجوده وأذنه.

الخاتمة

في ذكر أمور فرعية يتميز بها أهل السنة والجماعة

ويتضمن:

١- جواز الصلاة خلف البر والفاجر وجواز الصلاة عليهما.

٢- احترام الصحابة وعدم سبهم.

٣- جواز المسح على الخفين.

٤- حل نبيذ الجرة.

٥- عدم سقوط التكاليف عن المسلم.

٦- حمل النصوص على ظواهرها وبيان المفردات.

٧- أمارات الساعة.

٨- المجتهد قد يخطئ وقد يصيب.

٩- التفضيل بين البشر والملائكة.

١٠- إنزال الكتب على الأنبياء.

ص: وتَجُوزُ الصَلاةُ خَلفَ كُلِّ بَرّ وفاجرٍ، ونُصلّي على كُلّ برٍّ وفاجرٍ، ونَكُفُّ عَنْ نكْرِ الصَحابةِ إلاّ بخَيْرٍ، ونَشْهَدُ بالجَنة للعشرةِ الذين بَشّرهم رسُولُ الله ﷺ بالجَنّة، ولا نَشْهَدُ بالجنّة أو النّار لأحَدٍ بعَيْنه، ونرى المَسْحَ على الخُفيْن فِي السفَر والحضر، ولا نُحَرّمُ نَبيذَ الجَرّةِ، ولا يَبْلغُ ولَيّ دَرَجَةَ الأنْبيَاء، ولا يصلُ العَبْدُ إلى حَيْثُ يَسْقُطُ عَنْهُ الأمرُ والنَهْيُ.

أمور فرعية يتميز بها أهل السنة والجماعة

ش: المفردات

بَرٌّ: اسم فاعل من بَرَّ أصله بارر أسكنت الراء الأولى وأدغمت في الثانية وحذف الألف لالتقائها مع الراء المدغمة.

البر: هو الصالح.

الفاجر: هو الفاسق.

النبيذ: هو أن ينبذ تمر أو زبيب في الماء فيجعل في إناء فيحدث فيه لذة وذلك بعد ذهاب ثلثيه بالطبخ أو بدون طبخ ويشرب قبل غليانه.

الجرة: إناء الخمر يتخذ من الخزف أي الطين المشوي.

الشرح الإجمالي:

هذه الأمور والتي بعدها من الأمور الفرعية التي محلها علم الفقه، وليست من باب العقيدة إلا أنه لما بَيّنَ عقيدة أهل السنة والجماعة مقارنة بعقائد غيرهم - رأى أن يذكر بعض المسائل الفقهية التي أصبحت من الخولص التي يتميز بها أهل السنة والجماعة لذا سنذكرها فيما يأتي:-

١- تجوز الصلاة خلف الفاجر كما تصح خلف الصالح: ما لم يكن مُستَحلاً لمحرم قطعي الدلالة والثبوت، أو علم من الدين ضرورة فعند ذلك يكون كافراً فاجراً فلا تصح خلفه الصلاة.

وكذا خلف المبتدع ما لم تؤد بدعته إلى كفر أو نقص في أركان الصلاة والوضوء وذلك استدلالاً بقوله ﷺ (صلُّوا خَلفَ كُلِّ بَرٍّ وفاجرٍ وَعَلَى كُلِّ برٍّ وفاجرٍ) [1]. ولأن العلماء صلوا خلف الفسقة.

وإذا ورد نهي بذلك يحمل على الكراهية لا على عدم الجواز.

كما أننا نصلي على كل ميت مات مسلماً فيما يبدو لنا ولو كان فاسقاً وذلك لعمل الأمة بذلك؛ حيث كانوا يصلون على تارك الصلاة وعلى الفسقة ولقوله ﷺ (لا تَدَعُوا الصلاة عَلَى مَنْ مَاتَ مِنْ أهلِ القِبْلَة).

٢- يجب الكف عن ذكر الصحابة إلا بما فيه خير وثناء

أما سبهم والطعن فيهم والتدخل في نسبة بعضهم إلى الصواب والبعض إلى الخطأ فحرام قطعاً ولربما يكون كفراً.

وذلك للأدلة الآتية:-

أ- قوله ﷺ (لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فلوْ أن أحَدَكمْ أنفقَ مِثْلَ أحدٍ ما بلَغَ مُـدَّ أَحـدِهِم ولا نصيفَهُ) [2].

ب- ولقوله ﷺ أيضاً: (أكْرِمُوا أَصْحابي فَإنَّهُمْ خيَارِكُمْ) [3]. رواه أحمد والحاكم.

ج- ولقوله ﷺ أيضاً: (اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي لاَ تَتَخذُوهُمْ غرضاً مِنْ بَعْدي فَمَنْ أَحَـبهُمْ فَبِحُبي أحَبَّهُمْ وَمَنْ أَبْغَضَهُم فَبِبغْضِـي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَاني، ومَنْ آذَانِـي فَقَد آذَى الله، وَمَنْ آذَى الله تعالىَ فَيُوشِكُ مِنْ أنْ يأَخُذَهُ الله تعالَى) [4].

---

(١) رواه الطبراني انظر السراج المنير ٢ / ٣٦٠.

(٢) رواه الأربعة انظر التاج، ٣ / ٣٠٦.

(٣) انظر مشكاة المصابيح، ٣ / ٢١٨.

(٤) رواه الترمذي انظر التاج، ٣٠ / ١٠٦.

أما اتهامهم بالارتداد فإنه مناف لكثير من الآيات والأحاديث التي دلت على رضى الله عنهم وتبشيرهم بالجنة، لأنها أخبار من صادق لا تحتمل النسخ أو التكذيب.

وإذا ورد من هذا القبيل ما هو منافٍ لنص الآيات الكريمة يكون كفراً كقذفة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

أما ما جرى بين معاوية وعلي رضي الله عنهما فما هو إلا مجرد اجتهاد في أمر لا يستدعي أن يكفرهم أحد عليه، وعلى فرض أن معاوية غير مصيب في ذلك فأقصى ما يحكم عليه بالبغي – وهو الخروج على الإمام – والبغي محرم وليس بكفر فلا يوجب اللعنة والطعن فيه.

أما يزيد

فلم يثبت قطعاً ما يدل على قتله الحسين أو أمره بقتله أو رضاه، وإذا ثبت ذلك فغاية ما ينسب إلى التفسيق لا الكفر وذلك لأنه كان يصلي وكان إماماً للمسلمين، وإن كان قتل الحسين كفراً فالأولى أن يحكم على قاتلي عثمان بالكفر لأنه أفضل من الحسين ومع ذلك لم يكفرهم أحد بما فيهم الإمام علي ﷺ .

وعلى فرض كفره فلا داعي لسبه؛ إذ سب إنسان بعينه لم تجوزه الشريعة بل يجوز سب الجنس فنقول لعن الله الكافر ولا تقل لعن الله فلاناً الكافر، ومع ذلك فاللعن إن لم يكن فيه أثم فهو خال من الثواب فذكر الله أنفع من سب الكافرين.

٣- لا يجوز أن نحكم على شخص بعينه أنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا على وجه العموم[١]. والتفاؤل.

إلا إذا ورد نص يدل على تبشيرهم بالجنة، أو أخبر بذلك النبي ﷺ فعند ذلك نشهد كما في العشرة المبشرة بالجنة.

---

(١) كأن يقال المؤمنون المسلمون في الجنة والكافرون في النار.

إذ يقول النبي ﷺ : (أَبُو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وعُثْمانُ فِي الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ، وَطَلْحةُ فِي الجَنَّةِ، والزُبَيْرُ فِي الجنَّةِ، وعبْدُ الرحْمن بنْ عَوْف فِي الجَنَّةِ، وسَعْدُ بنُ أَبي وقَّاصٍ فِي الجَنَّةِ، وَسَعْدُ بنُ زَيْد في الجَنَّةِ، وأبو عُبَيْدة بن الجَراحِ فِي الجَنَّةِ) [1]. رواه الترمذي.

وكما ورد أيضاً عنه ﷺ أنه قال لفاطمة رضي الله عنها: (ألاَ ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين) [2]. رواه الترمذي.

وكما ورد أيضاً عنه ﷺ (إن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة) [3].

وكما ورد أنه رأى عمرو بن الجموح أنه وطيء الجنة بعرجته إذ أنه قتل في معركة أحد فقال ﷺ : (والذي نفسي بيده لقد رأيته يطأ في الجنة بعرجته) [4].

٤- إنّ أهل السنة والجماعة يجوزن المسح على الخفين وذلك رخصة من الله تعالى وكرهه جماعة من العلماء منهم علي وعائشة وابن عباس وأبو أيوب والخوارج والإمامية، والمجوزون للمسح هم جمهور العلماء وقد نقل ابن المبارك وابن المنذر الإجماع على ذلك [5].

---

(١) انظر مشكاة المصابيح، ٣ / ٢٤٩.

(٢) انظر مشكاة المصابيح، ٣ / ٢٥٤.

(٣) مشكاة المصابيح، ٣/ ٢٦٠.

(٤) انظر السيرة الحلبية، ٢ / ٢٥٥.

(٥) كراهة المسح عند هؤلاء ليس ثابتاً بل الصحيح النقل عنهم بالجواز وعدم الكراهية المجموع ٤٧٨، ص٢٣٠.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

أ- أن النبي ﷺ خرج لحاجته فأتبعه المغيرة بادواة فيها ماء فصب عليه حين فرغ من حاجته فتوضأ ومسح على الخفين [1].

ب- سئل سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ عن المسح على الخفين فقال: (جعل رسول الله ﷺ ثلاثة أيامٍ ولياليهن للمسافر ويوماً وليلة للمقيم) [2].

ج- رُوِيَ عن الإمام علي أنه قال: (لو كان الدين بالرأي لكان مسح الخفين من أسفل) [3]. رواه أبو داود والدرامي.

د- ويقول الحسن البصري أدركت سبعين نفراً من الصحابة يرون المسح على الخفين [4].

وقد قال أبو حنيفة: ما قلت بالمسح حتى جاءني فيه دليل مثل ضوء الشمس وقال الكرخي: إني أخاف الكفر على من لا يرى المسح على الخفين[5].

هـ- عن المغيرة عن أبيه قال كنت مع النبي ﷺ في سفر فاهويت لأنزع خفيه فقال: (دعهما فإني ادخلتهما طاهرتين) فمسح عليهما[6].

واستدل مخالفو الجمهور:

بعموم قوله تعالى: ﴿ فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ﴾ .

وجه الاستدلال بها عند غير الإمامية هو أن غسل الرجلين جاء عاماً فلا مجال للمسح على الخف.

---

(١) البخاري، ١ / ٦٥.

(٢) مسلم، ١ / ١٥٦.

(٣) انظر مشكاة المصابيح، ١ / ١٦٣.

(٤) يرويه عنه ابن المنذر انظر فتح القدير ١ / ٩٩.

(٥) التفتازاني، ص٢٤٥.

(٦) البخاري، ١ / ٦٠.

أما الإمامية فإنهم يرون المسح على الرجلين لا على الخفين وأدعوا نسخ الأحاديث الواردة به.

ويجاب عن ذلك بما يأتي:

١- أما علي وعائشة فقد روي عن شريح بن هاني الحارثي قال: سألت عائشة عن المسح فقالت ائت علياً – فإنه أعلم بذلك مني فاسأله – فأتيت علياً فسألته فقال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن يمسح المقيم يوماً وليلة والمسافر ثلاثاً [١]. فلو كانت عائشة لا ترى المسح لانكرت عليه ولو كان علي لا يقول به لما أجابه.

٢- وأما أبو أيوب فكان لا ينكره بل يرى أفضلية الغسل ويأمر أصحابه ويقول: حبب الي الغسل.

٣- وأما عموم الآية فيمكن أن تخصصها السنة بغير لابس الخف.

٤- أما دعوى النسخ فمردود بما روى عن جرير بن عبد الله البجلي أنه بال ثم توضأ ومسح على خفيه فقيل له تفعل هذا؟ فقال: نعم رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه [٢].

وقد قال جرير: ما أسلمت إلا بعد نزول المائدة [٣]، وهذا يدل على أن فعل النبي ﷺ متأخر عن آية الوضوء في سورة المائدة ولا يمكن للمتقدم أن ينسخ المتأخر.

٥- ولا نحرم نبيذ الجرة:

مما اتفق عليه المسلمون أن كل شراب يسكر فهو حرام، أما النبيذ وهو ماء ينقع فيه التمر حتى يصير حلواً ويتأثر بالتمر فإن اشتد وغلى أو شرب للهو أو الطرب فحرام بالإجماع.

---

(١) مسلم على النووي، ٣ / ١٧٥.

(٢) مسلم على النووي، ٣ / ١٦٤.

(٣) الترمذي، ١٠ / ٩٦ وابو داود ١ / ٣٦.

ويقدر ذلك بمضي ثلاثة أيام عليه وإن لم يشتد فقد جوزه الحنابلة وأبو حنيفة وأبو يوسف ومالك وحرمه الإمام الشافعي ومحمد[1].

واستدل المبيحون:

بما رُوِيَ عن ابن عباس ﷺ أنه يقول: كان النبي ﷺ ينبذ له الزبيب فيشربه اليوم والغد إلى مساء الثالثة ثم يأمر به فيسقي الخدم أو يهراق[2]. وغير ذلك من الروايات الدالة على أنه ﷺ كان يشرب نقيع التمر[3].

أما المانعون:

فإنهم قاسوه على الخمر بجامع إطلاق اسم الخمر عليه مجازاً إذ الخمر حقيقة يطلق على ما اتخذ من العنب فقط؛ ولما أطلق على النبيذ خمر أخذ حكمه[4]، ولنهيه ﷺ عن الانتباذ في الجرة كما رُوي عن أبي سعيد (أَنَ رَسُولَ الله ﷺ نَهَى عَنِ الجِرَارِ يُنْتَبَذُ فيه[5]).

ويجاب:

أولاً: بالأحاديث السابقة.

ثانياً: بأن العلة من تحريم الخمر الحقيقي هو الاسكار فما دام غيره من الأشربة لا تسكر فلا تحرم وإن أطلق عليها الاسم مجازاً.

وأما حديث النهي عن الانتباذ فإنه محمول على ما إذا ترك حتى يسكر، ثم إنه معارض بفعل النبي ﷺ .

---

(١) انظر المغني لابن قدامة ٩ / ١٧٠؛ وفتح القدير ٨ / ١٦٠؛ والمدونة الكبرى ٤ / ٤١١.

(٢) مسلم ٦ / ١ و ١ / ١٠٢.

(٣) لاحظ البخاري، ٧ / ١٣٩.

(٤) يلاحظ حاشية البجيرمي على شرح الخطيب، ٤ / ١٥٦.

(٥) مسلم، ٦ / ٩٤.

٦- لا يبلغ العبد من غير الأنبياء مهما بلغ من التقوى والصلاح إلى درجة الأنبيـاء إذ النبي معصوم عن الذنب وعن سوء الخاتمة وغيره ليس كذلك.

ثم إن النبي مكرم بمشاهدة الملك بالوحي ويتصف بكل أوصاف الأولياء وهذا لا مخالف فيه إلا الكرامية فإنهم جوزوا كون الولي أفضل من النبي وهو كفر.

هل الولاية أفضل أو النبوة ؟

لا شك أن النبي يجمع بينهما ولكن أيهما الأفضل ؟

فذهب جماعة إلى أن النبوة أفضل من الولاية؛ لأنها علم وتكميـل للغيـر، وهنـاك أحاديث تدل على فضل العالم على العابد.

وذهب آخرون إلى العكس وقالوا: إنّ الولاية معرفة الله وتقرب إليه وصـفاء القلوب.

٧- ومهما بلغ الإنسان من الصلاح والكمال والتقوى لا يمكن أن تسقط عنه التكاليف الشرعية من أوامر ومناه.

وذلك لما ورد من عموم الخطابات الواردة في التكليف ولإجماع المجتهـدين على ذلك.

وقد ذهب بعض الإباحيين إلى أن العبد إذا بلغ غاية المحبة والـصفاء سـقط عنه الأمر والنهي ولا يدخل النار بارتكابه المنكرات.

وذهب البعض إلى إسقاط العبادات الظاهرة عنه وتكون عبادته التفكير فقـط وكل هذا كفر؛ إذ لو جاز ذلك لكان الأنبياء هم أول من تسقط عنهم التكاليف والأمـر على العكس إذ تكاليفهم قد تكون أكثر من الأمة وهم في غاية المحبة والصفاء.

قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [1].

أي استمر على العبادة إلى أنْ يأتيك الموت التي تظهر منه المغيبات يقيناً.

---

(١) الحِجر: ٩٩.

وأما ما ورد من قوله ﷺ : (إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب)[1]، فإن صح الحديث فرضاً فيمكن حمله بأنه لا يقع منه الذنب فلا يضرر به أو أنه يسارع إلى التوبة وعندئذ لا يضره إذ التوبة مكفرة له.

---

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس : ١٧٠١١ برقم ٢٤٣٢، والقشيري في الرسالة: ٤٤/١، وهو حديث ضعيف.

ص: والنُصُوصُ تُحْمَلُ علىَ ظَوَاهِرِهَا والعُدُولُ عَنْهَا إلى مَعَانٍ يدعيهَا أَهْلُ البَاطِنِ: الحادٌ وكُفْرٌ، وردُّ النُصُوصِ كُفْرٌ، واسْتِحْلاَلُ المَعْصيةِ كُفْرٌ، إذا ثَبَتَ كَوْنها مَعْصيةً بدليلٍ قَطْعِي، والاستهَانَةُ بها كُفْرٌ، والاسْتِهْزَاءُ علىَ الشَرِيعَةِ كُفْرٌ، واليَأْسُ كُفْرٌ، والأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ تَعَالَى كُفْرٌ، وتَصْدِيقُ الكاهِنِ بِما يُخْبِرُ بِهِ عَنِ الغَيْبِ كُفْرٌ.

أمور ارتكابها يؤدي إلى الكفر

ش: المفردات

النصوص: يراد بالنص هنا لفظ الآية أو الحديث. لا ما يقابل الظاهر والمفسر والمحكم.

الحاد: ميل وعدول عن العقيدة الإسلامية.

الاستهزاء: التهكم بها، ومن ذلك اعتقاد أنها غير صالحة لتنظيم الحياة أو تفضيل أنظمة أخرى عليها.

الاستهانة: التقليل من مكانتها أو النظر إليها نظرة احتقار.

استحلال المعصية: أي الاعتقاد بحلها وذلك إذا ثبت بدليل قطعي الثبوت والدلالة أو علم من الدين حكمه ضرورة.

اليأس: هو انقطاع الرجاء من رحمة الله أو فرجه.

الأمن: هو الاعتقاد بأن الله سوف لا يعذب أحداً ولا يحاسب أحداً.

الكاهن: الذي يخبر عن أفعال بأنها ستقع مستمداً ذلك من أخبار الجن له أو التكهن ويدعي بذلك أنه يعلم الغيب.

الشرح الإجمالي:

هذا الموضوع اشتمل على أمرين:

أحدهما: عدم جواز تفسير النصوص القرآنية والأحاديث النبوية بمعان تتنافى مع القواعد العامة للعقيدة أو للتعاليم الإسلامية مثل تفسير الصيام بأنه كتمان الأسرار.

أما إذا كان ظاهر النص يتنافى مع أمور اعتقادها يخل في العقيدة كتجسيد الإله فلا بد من تأويله عن ظاهره، فمثلاً الآيات التي تدل على الجسمية لله تعالى كالعين واليد والاستواء لا بد من حملها على غير ظواهرها؛ إذ ربنا منزه عن الجسمية فلا مانع من حمل العين على العناية واليد على القوة وهكذا وهذا تأويل مستساغ.

أما التأويل الممنوع فمثل ما فسر بعض المفسرين المعاصرين قوله تعالى ﴿طَيْراً أَبَابِيلَ﴾ (بأنه مرض الجدري).

بقي شيء آخر: وهو التفسير الإشاري الذي يفسر به السادة الصوفية والذي يحمل شيئاً من الدقائق اللطيفة مع الاعتراف بتفسير الآية الظاهر وعدم تعارضه معه فهو جائز ومقبول إذ يقول النبي ﷺ: (إن للقرآن ظاهرا وباطنا وحدا ومطلعا)[1] وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [2]. يفهم منه أن محبة الله إذا دخلت قلب عبد استولت عليه ولم تدع مدخلاً لغير الله فيه فيفسد القلب عن كل شيء سوى الله.

ومثل قوله عليه الصلاة والسلام (لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب)[3]. أي لا تدخل الملائكة القلب الذي فيه الغضب والشهوة والعجب والحسد والكبر والحقد.

ومثل تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾[4]. أي من نجعل قلبه عامراً بالإيمان واليقين أو إن نعمر مكانته عندنا نقللها عند الخلق ونجعل الناس تنظره نظرة استهوان.

---

(١) أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود.

(٢) سورة النمل: آية ٣٤ وهنا أولوا الملوك بالمحبة والقرية بالقلب وإفساد القرية بإفساد القلوب عما سوى الله.

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما، حيث قد أولوا البيت بالقلب والكلب بهذه الخصال الذميمة.

(٤) سورة يس: آية ٦٨.

ومثل: ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [1]. فيها إشارة إلى أن القلب النجس لا يدرك معاني القرآن ولطائفه الدقيقة ولا يمسها كما أن الجسم غير الطاهر لا يمس القرآن الظاهري المادي.

ثانيهما: أنه سرد جملة من الأمور التي يحكم على مرتكبها وفاعلها ومعتقدها بالكفر والردة ويضاف إليها أمور أخرى يمكن مراجعتها في أبواب الفقه المختصة بها، وذكر هنا من جملتها تصديق الكاهن بما يخبر عن الغيب.

لأجل ذلك ينبغي علينا أن نفرق بين تصديق الكاهن والولي المكاشف وبين المنجم.

أ- التكهن يقع من نفس فاسقة أو شريرة وبواسطة الجن أو بواسطة ممارسته فهما معيناً وقد يخطئ أو يكذب في أخباره وأحياناً يخبر عن مغيب نتيجة المجاهدة ومكابدة النفس والرياضة النفسية فيكشف له بعض الأسرار.

ب- الكشف من الولي يكون بواسطة الهام من الله تعالى لصفاء قلبه ونظافة سريرته وذلك لأن فراسة المؤمن تجعله ينظر بنور الله كما ذكرنا سابقاً عن حادثة سيدنا عمر وسارية) [2].

وكما وقع لسيدنا عثمان إذ دخل عليه ذات يوم رجل قد نظر إلى امرأة أجنبية قبل دخوله عليه فقال: (مالي أرى أحدكم يدخل والزنى بين عينيه فقال: أوحي بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال: لا إنما هي فراسة المؤمن) ومع هذا فقد ذكرنا في بحث الإلهام أنه ليس سبباً للعلم ولا مصدراً للتشريع إن وقع من غير الأنبياء.

ج- التنجيم إن كان إخباراً بالغيب فهو كفر: وإن كان على أساس احتساب سير النجوم والشمس والقمر وحركة الأفلاك والإطلاع على أنوار الجو بطريقة علمية

---

[1] سورة الواقعة: آية ٧٩.

[2] تقدمت في بحث كرامات الأولياء.

فنية، والإعلام عن وقوع حادث فلكي في ضوء هذا العلم فإنه جائز، مع الاعتقاد أن مسير الكون وخالق الأشياء والأسباب هو الله تعالى.

ص: والمَعْدُومُ لَيْسَ بِشَيء وفي دُعاء الأحياء للأموات وصدقَتِهم عَنْهُمْ نَفْعٌ لَهُـمْ والله تعالى يُجِيبُ الدَعَواتِ ويَقْضِي الحَاجَاتِ.

هذه جملة من الأمور التي تتميز بها عقيدة السنة

ش: المفردات

المعدوم: ضد الموجود.

الشيء: معناه الموجود.

الشرح الإجمالي:

١- المعدوم

هل يسمى شيئا ؟ وهل يكون مرئياً لله تعالى ؟

المعدوم على نوعين:

النوع الأول: مستحيل وجوده كشريك الباري فهذا مما أجمع الكل على أنه لا يسمى شيئاً مرئياً.

النوع الثاني: ما يمكن وجوده وعدمه كابن زيد الذي لم يولد، وهذا الخـلاف فيه فذهب أهل السنة والجماعة إلى عدم إطلاق لفظ الشيء عليه وأنه غير مرئي.

واستدل الجمهور بما يأتي:

١- أن المعدوم نفي محض وليس بشيء وإنما تطرأ عليه الشيئية إذا وجد.

٢- أن الشعر الأسود بياضه معدوم في الحال، فإن كان البياض مرئياً في الحال فـلا بد من أن يكون الله رائياً في هذا الشعر أو في شعر آخر في محل آخر أو لا في محل.

فإن رآه في هذا الشعر فيلزم أن يراه أسود أبيض في حال واحد وهو محال، وإن رآه في محل آخر يلزم أن يكون المنتصف بالبياض هذا المحل لا الأول، وإن رآه لا في محل فهو محال والمحال ليس مرئياً إجماعاً[1].

٣- قال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾[2].

وجه الاستدلال بها – أنه نفى الشيئية قبل خلقه.

٤- قال تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [3].

وجه الاستدلال بها – أن رؤية العمل ستكون بعد ظهور العمل لا قبله.

واستدل المعتزلة بما يأتي:

١- قالوا إن العالم مرئي لله تعالى قبل وجوده؛ لأن الرؤية صفة من صفات الله فينبغي أن تكون متعلقة بالعالم الموجود منه والمعدوم؛ لأنها إن لم تكن كذلك كانت قاصرة وناقصة والله تعالى يجب أن ينزه على النقائص.

ويجاب عن هذا:

بأنا لا نسلم أن القصور يتطرق هذه الصفة بعدم رؤيته تعالى المعدوم؛ لأن المفروض أن تعم صفاته ما لا يستحيل، فخروج المستحيل عنها ليس نقصاً.

٢- قال تعالى: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [4].

وجه الاستدلال بها – أن زلزلة الساعة معدوم الآن وقد أخبر عنه بالشيئية.

والجواب على هذا من وجهين:

أولهما – أن إطلاق الشيء عليها بناء على تحقيق وقوعها فكأنها موجودة.

---

(١) لاحظ نثر اللآلي، ص ٢٢٦.

(٢) سورة مريم: آية ٨.

(٣) سورة التوبة: آية ١٠٥.

(٤) سورة الحج: آية ١.

ثانيهما – أن إطلاق الشيئية عليها بعد وجودها أي بعد حصول الزلزال تكون شيئاً عظيماً لا الآن [1].

٢- هل الدعاء للأموات وإهداء الثواب والصدقة عنهم ينفعهم ؟

اختلف العلماء في ذلك على رأيين:

فذهب الجمهور إلى أن الميت ينفعه الدعاء وثواب الصدقة والعبادات الأخرى.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١- وقع في القرآن الكريم الدعاء للأموات المسلمين السابقين بقوله تعـالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾[2]. والذين سـبقوهم بالإيمان أموات وليسوا أحياء.

٢- كان النبي ﷺ إذا فرغ من الميت وقف عليه فقال: (استغفروا لأخيكم وسلوا لـه التثبيت فإنه الآن يسأل) رواه أبو داود[3].

٣- صلاة الجنازة ما هي إلا دعاء واستغفار للميت.

٤- وقوله ﷺ (ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يـشفعون له إلا شفعوا فيه) [4].

٥- عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً قال للنبي ﷺ (إن أمي افتلتت نفسها وأراهـا لو تكلمت تصدقت فهل لها من أجر إن تصدقت عنها قال: نعم) متفق عليه[5].

---

(١) والحقيقة أنه خلاف لا علاقة له بالعقيدة ولا يخدم الدين شيئاً، ولولا أني التزمت شرح المـتن ولا بـد أن انسجم مع مواضعه لما طرقت باب لمثل هذه الخلافات.

(٢) سورة الحشر: آية ١٠.

(٣) انظر رياض الصالحين، ص٣١١.

(٤) رواه مسلم انظر ٣ / ٥٣٨.

(٥) افتلتت نفسها – أي ماتت، رياض الصالحين، ص٣١٢.

٦- وقوله ﷺ (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ ينتفع به، أو ولد صالحٍ يدعو له) رواه مسلم[(١)].

٧- وقوله ﷺ : (دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل آمين ولك بمثله) [(٢)]. وهو عام في الميت وغيره إذ الميت غائب والدعاء له يكون بظهر الغيب من باب أولى.

٨- أنه ﷺ أتى بكبش فذبحه بيده وقال: (باسم الله والله أكبر هذا عني وعمن لم يضح من أمتي) رواه أبو داود والترمذي [(٣)].

٩- مشروعية الحج عن الميت كما ورد في الأحاديث الصحاح والأدلة في هذا المجال كثيرة لا مجال لإنكارها أو إنكار فائدة الدعاء والصدقة للميت.

وذهبت المعتزلة:

إلى أن الدعاء والصدقة لا تنفعان الميت:

واستدلوا بما يأتي:-

١- بقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [(٤)]. فالإنسان مرهون بكسبه لا بكسب غيره.

ويجاب عن هذا: بأن النفس مرهونة بما كسبت من السيئات فلا علاقة للآية بالثواب والحسنات التي تهدى للميت.

٢- أن الله قضى على الميت إمَّا بالعذاب وإمَّا بالمغفرة وقضاء الله لا يبدل فلا ينتفع منه الميت.

---

(١) انظر مشكاة المصابيح ١ / ٧١ ورياض الصالحين، ص٣٧٩.

(٢) مسلم، ٨ / ٨٦.

(٣) انظر مشكاة المصابيح، ٣ / ١١٠.

(٤) سورة المدثر: آية ٣٨.

ويجاب على هذا أن القضاء على نوعين:

مبرم: لا يمكن تغيره وهو أمر لا نعلمه ولم ينكشف لنا.

ومعلق: من باب السبب والمسبب أي أن الله قد يعلق رحمته على صـدقة معينـة أو دعاء معين وهذا ينتفع منه الميت.

٣- ربما يستدل على عدم انتفاع الميت بالحديث المتقدم وهو إذا مات ابن آدم انقطـع عمله ويقولون أن العمل لا ينفع الميت إذ قد انقطع عمله، فنقول: إن نص الحديث يدل على انقطاع عمل الميت نفسه إلا من ثلاث، وفعلاً أنه إذا مات لا يتمكن من العمل، ولم يدل الحديث على انقطاع عمل غيره عنه. إذ الضمير في عمله يعـود إلى الميت والحصر جاء على عمل الميت فقط.

٤- وأحياناً يستدلون بقوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾ [1]. فسعي غيره ليس له.

ويجاب على هذا بما يأتي:

١- أنها منسوخة لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فجعل الولد الطفل الصغير في ميزان أبيه.

وهذا على رأي من يجوز النسخ في الأخبار

٢- ومنها أنه مخصوصة بالكافر والمنافق؛ لأن المؤمن قد وردت أحاديث تدل علـى انتفاعه.

٣- ومنها أن الإنسان يراد به أبو جهل أو عتبة بن أبي معيط أو الوليد بن المغيـرة الميت على كفره.

---

(١) سورة النجم: آية ٣٩.

٤- أن الإنسان بسعيه في الخير وصحبته ومعاشرته اكتسب الأصحاب وأهدى لهم وتودد إليهم فصار ما يحصل من ثوابهم بعد موته من سعيهم كأنه سعى إليه بنفسه خصوصاً وأن علاقة الإيمان هي صلة قوية فهو المتسبب لإهداء عمل الغير إليه.

٥- يحتمل حمل اللام على معنى على مثل (وإن أسأتم فلها) ومثل لهم اللعنة أي فعليها وعليهم اللعنة[١].

٦- على أنّ سياق الآية هو قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [٢]. يدل على أن هذا شرع من قبلنا، وشرع من قبلنا شرع لنا على رأي الجمهور إلا إذا ورد ما ينافيه وفي هذه المسألة وردت أدلة تنافي هذا الحكم إذن فليس شرعاً لنا.

٧- وذهب البعض إلى القول بانتفاع الميت بالدعاء والصدقة دون غيرهما من ثواب العبادات الأخرى.

ويجاب: بأنه سبق أن وردت أدلة في الحج والأضحية عن الميت، وما دام ثواب الصدقة ثبت وصوله فثواب العبادات الأخرى يصل؛ إذ لا فرق بينهما، على أن إهداء الثواب هو دعاء للميت بإيصال الثواب إليه، والدعاء لهم يقولون باستفادة الميت منه فكما يستجيب الله طلب المغفرة للميت يستجيب الدعاء بإهداء الثواب الحاصل من العبادات الأخرى كثواب قراءة القرآن وثواب الصوم والصلاة والذكر ونحوها[٣].

ومع كل هذا فإنها مسألة خلافية لا يجوز أن يجعلها المسلمون سبباً لإحداث النزاع والاختلاف وحصول الجدل فيما بينهم ولا يلزم منها تكفير من ينكر وصول الثواب أو تكفير من يقول بوصوله.

---

(١) تلاحظ رسالة هداية المرتاب في جواز إهداء الثواب للشيخ محمد أمين ملا يوسف الموصلي.

(٢) سورة النجم: آيات ٣٦ – ٣٨.

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية، ص٥١٧.

٣- هل ينفع الدعاء بدفع الشر أو جلب الخير ؟

اختلف العلماء في نفع الدعاء للحي والميت

فذهب جمهور العلماء إلى أنه ينفع ويستجاب ويغير من أحوال الإنسان إن كان بخالص النية وتوجه القلب ومن لسان طاهر من الذنوب ومن جوف خال من الحرام.

واستدلوا على ذلك بكثير من الآيات والأحاديث الدالة على ذلك:

منها: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ [(١)]. ومنها قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[(٢)].

ومنها قوله ﷺ: (يستجاب للعبد ما لم يدع بأثمٍ أو قطيعة رحم وما لم يستعجل)[(٣)].

ومنها قوله ﷺ: (إن ربكم كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً) [(٤)]، وقد تقدم ما فيه كفاية من الأدلة الدالة على الانتفاع بالدعاء للميت.

ثم إن الدعاء: هو عبادة بحد ذاته فلا يخلو إذن الدعاء من أحد أمور، إما خير يعجل، أو شر يدفع، أو خير يؤجل، أو ثواب يصيب الإنسان لتضرعه وانكساره أمام الله.

وذهبت المعتزلة:

إلى أنه لا ينفع؛ لأن الله قد قضى على كل إنسان عاقبته، والدعاء لا يغير شيئاً من القضاء.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٦.

(٢) سورة غافر: آية ٦٠.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه الترمذي وأبو داود والبيهقي، وانظر مشكاة المصابيح، ١ / ٦٩٠.

والجواب ما قلنا سابقاً أن القضاء منه مبرم ومنه معلق. قال تعالى: ﴿ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾[1]. فالله يغير ما في اللوح المحفوظ ولكن لا يغير في أم الكتاب وهي علم الله الأزلي فقد يكون الأمر مكتوباً في اللوح ويغير بعد دعاء أو صدقة إذا كان معلقاً عليها.

---

[1] سورة الرعد: آية ٣٩.

ص: وما أَخْبَرَ بِهِ النَّبي ﷺ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ:

مِنْ خُرُوجِ الدَّجَالِ، ودَابَّةِ الأرْضِ، ويأجُوجَ ومَأجُوجَ، ونِزولِ عِيسَىَ عليه السلام، وطلوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا: حَقٌ.

آمارات قيام الساعة

ش: المفردات

اشراط الساعة: علامات قربها، والساعة؛ هي قيام القيامة وانتهاء هذه الدنيا.

والساعة وقتها لا يعلمه إلا الله ولم يخبر النبي ﷺ ولا القرآن عنها بل عن اشراطها.

الدجال: معناه لغة الكذاب، ويراد به هنا الرجل الذي أخبر عنه الرسول ﷺ بأنه يظهر في آخر الزمان ليضلل الناس.

دابة الأرض: دابة طويلة جداً لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب، لها أربع قوائم وريش وجناحان يستمر خروجها من الأرض ثلاثة أيام لطولها تخرج من اليمن [١].

يأجوج ومأجوج: رجلان من أولاد يافت [٢]. بن نوح كثر نسلهما وسمي الذرية بذلك لكثرتهم لأن بعضهم يموج في بعض.

الشرح الإجمالي:

هذه خمس علامات من علامات الساعة وهي أبرزها وإن كانت كثيرة إذ منها ولادة المصطفى ﷺ .

ومنها خروج دخان يملأ ما بين السماء والأرض يصير المؤمن كالمزكوم والكافر كالسكران، على أن بعضهم قال قد حصل حينما أنزل الله القحط على قريش حتى صار أحدهم يرى السماء كالدخان من الجوع.

---

(١) في الحقيقة أننا نؤمن بخروجها وأنها تكلم الناس كما ورد بذلك نص القرآن ولسنا مكلفين بوصفها ونوعها.

(٢) نوح له أربع ابناء أحدهما كافر غرق وهو كنعان والثاني يافت أبو ياجوج وماجوج والترك والثالث حام أبو السود من البشر والرابع سام أبو البيض والعرب والعجم والروم.

ومنها خروج نار تخرج من اليمن تسوق الناس إلى محشرهم وغير ذلك من الامارات.

ونحن نتكلم بإيجاز عن كل واحدة من الامارات الخمس التي ذكرها المصنف والتي بلغت درجة القطع واليقين.

أولاً: ظهور الدجال

الدجال يهودي الأصل يظهر من جهة الشرق فيدعي بين الناس الصلاح والاستقامة، ثم يدعي الألوهية ويتبعه كثير وأكثرهم اليهود، عينه اليمنى عوراء جاحظة وطافية بشكل منكر؛ ولهذا أطلق عليه المسيح لأن أحدى عينيه ممسوحة، لا يولد له يطوف في الأرض ولا يدخل مكة والمدينة، مكتوب على جبهته (كافر) يتبينها كل مسلم.

ومن جملة ما يكذب إدعاءَهُ الألوهية أنه لو كان كذلك لاحسن خلقته قبل أن يحسن خلقة غيره ولرفع من جبهته ما هو مكتوب عليها ولذلك يقول ﷺ: إنه أعور وإن الله ليس بأعور، يكون قتله على يد عيسى عليه السلام.

وقد وردت في الصحاح أحاديث كثيرة تدل على ظهوره نقتصر منها بالحديثين أدناه:

١- روى الشيخان وغيرهما عن حذيفة أن عقبة قال له: (حدثني ما سمعت من رسول الله ﷺ في الدجال فقال: إن الدجال يخرج وإن معه ماء وناراً فالذي يراه الناس ماء فنار تحرق، وأما الذي يراه الناس ناراً فماء بارد عذب فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً فإنه عذب طيب) [١].

٢- روى مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد وغيرهم حديثاً عن الدجال وإليك مختصراً من الحديث حيث يقول في وصفه: (إنه شاب قطط عينه طافئة

---

(١) البخاري ومسلم، ٨ / ١٩٦ واللفظ له.

كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ فواتح سورة الكهف، إنه خارج من خلة بين الشام والعراق (أي في طريق بينهما) فعاث يميناً وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا: قلنا يا رسول الله وما لبثه في الأرض ؟ قال: أربعون يوماً، يوم كسنة ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم قلنا يا رسول الله: فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال: لا، اقدروا له قدره قلنا يا رسول الله: وما إسراعه في الأرض ؟ قال: كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزأين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرورتين (أي بين ثوبين أو حلتين تضربان إلى الصفرة) واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفع تحدر منه مثل الجمان فيطلبه (أي يطلب الدجال) حتى يدركه بباب لد فيقتله)[1].

والله تعالى يمده بهذه الخوارق امتحاناً للناس ليتبين الثابت على العقيدة من المتزعزع.

ثانياً: دابة الأرض

نطق القرآن بها والأحاديث:

١- إذ يقول الله: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ﴾ [2].

---

(١) مسلم، ٨ /١٩٧.

(٢) سورة النمل: آية ٨٢.

٢- وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتها كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً.

٣- وروى مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن حذيفة بن أسيد الغفاري ﷺ قال: طلع علينا النبي ﷺ ونحن نتذاكر فقال: ما تذاكرون ؟ قالوا: نذكر الساعة قال: (إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من أرض اليمن تطرد الناس إلى محشرهم) [١].

ثالثاً: يأجوج ومأجوج

بينا سابقاً بأنهما اسما رجلين والآن يطلقان على أمة كبيرة من الناس سيخرجون على حين غفلة ويأتون من كل حدب، ويفسدون في الأرض ويدمرون المنتوجات ويمر أولهم ويشرب بحيرة طبرية فإذا مر أخرهم يقولون كان في هذه ماء وقد نطق الكتاب العزيز بوجودهم، وأخبرت السنة النبوية بهم فهم من الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها، وإنكار وجودهم رد لنص صريح من القرآن الكريم.

أما صفتهم ونوعيتهم فلم نكلف بمعرفتها والخوض في تشخيصها بل علينا الإيمان بما نطقت به النصوص فقط.

---

[١] مسلم، ٨ / ١٧٩.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [1].

فالآية تتحدث عن وجودهم وكيفية غزوهم العالم وأن خروجهم علامة على قرب القيامة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً﴾ [2].

ومن ذلك ما روى الشيخان وغيرهما عن زينب بنت جحش أن النبي ﷺ: (استيقظ من نومه، وهو يقول: لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد الراوي بيده عشرة قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال: نعم إذا كثر الخبث)[3]. ومثل حديث حذيفة بن أسيد السابق وغير ذلك من الأحاديث.

رابعاً: نزول عيسى عليه الصلاة والسلام

عيسى بن مريم هو رسول الله إلى بني إسرائيل، ولأنه جاء ببعض التشريعات التي تخالف التوراة حقد عليه اليهود فتآمروا على قتله وجاؤوا إلى الدار التي هو فيها فأدخلوا أحدهم ليقتله ووقف الباقون خارج الباب فلما دخل عليه رفعه الله بجسمه[4]. إلى السماء وألقى شبهه على وجه الرجل الداخل، ولما خرج صاحبهم مسكوه ظانين أنه عيسى فقتلوه رغم قوله لهم إني صاحبكم، ثم دخلوا إلى الدار ليفتشوا عن صاحبهم فلم يجدوه فقالوا: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان

---

(1) سورة الأنبياء: ٩٦ – ٩٧.

(2) سورة الكهف: ٩٤ – ٩٦.

(3) مسلم، ٨ / ١٦٥.

(4) بعد أن عراه من العوارض البشرية التي تحتاج إلى المأكل والمشرب.

صاحبنا فأين عيسى ؟ وعندما نظروا إلى جثمان القتيل شاهدوا وجهه وجه عيسى وجسمه جسم صاحبهم ولذلك يقول الله في تصوير هذا الحدث: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً * وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ [١].

وقد أنكر جماعة حياته ورفعه بجسمه [٢].

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [٣]. واعتبروا الوفاة بمعنى الموت وأولوا قوله تعالى: ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ [٤]. رفع روح ودرجة.

ويجاب على ذلك:

بأن الآية نطقت بالوفاة وكلمة (وَفّى) أعم من (مات) إذ الموت أحد جزئيات الوفاة؛ لأن معنى الوفاة لغة أخذ الشيء وقبضه تماماً، يقال: وفيت حقه أي أعطيته حقه كاملاً، وهنا قد وفاه بقاءه في الأرض ورفعه إليه، وإطلاق الوفاة على الموت كما يستعمله عامة الناس مجاز من باب إطلاق العام على الخاص وإلا لقال إني مميتك كما قال لسيدنا محمد ﷺ ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ [٥]. وحمله على الأعم وهو الحقيقة هنا أولى حتى لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ [٦]. وموته على رأي القائلين بذلك كان قتلاً.

وأما رفعه روحاً ودرجة:

---

(١) سورة النساء: ١٥٧ – ١٥٩.

(٢) لمثال الشيخ محمد عبده والشيخ شلتوت الذين حاولوا تأويل الخوارق والمعجزات بما يخالف ظاهر النصوص.

(٣) سورة آل عمران: آية ٥٥.

(٤) سورة النساء: آية ١٥٨.

(٥) سورة الزمر: آيو ٣٠.

(٦) سورة النساء: آية ١٥٧.

فإن كان المراد من الآية ذلك فلماذا قيد رفعه الدرجة بحال الصلب أو القتل ؟ ألم يكن مرفوع الدرجة قبل ذلك ؟ ثم إن رفع الروح ليس خاصاً بعيسى حتى يذكره الله هنا في معرض المدح بل يشاركه فيه غيره فأغلب الأرواح ترفع إليه تعالى مكانة، ثم إن عيسى ينزل بعد من السماء إلى الأرض، بالصفة التي ذكرناها سابقاً والتي نص عليها الحديث الذي سقناه دليلاً لظهور الدجال فيقتل الدجال، ويدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويرفع الجزية أي لم يقبل الجزية؛ إما الإسلام، وإما الحرب، ويمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون، والأصل بالنزول أن يحمل على ظاهره وهو نزول الجسم إذ الحقيقة هنا ليست مستحيلة.

وقد وصفه ﷺ بأنه مربوع القامة، إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصران وهذه صفات خاصة بالجسم.

وأبرز آية تدل على نزوله قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾[1]. أي إن نزول عيسى من أعلام الساعة إذ الضمير يعود إلى عيسى.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾[2]. فالضمير يعود في قوله (قبل موته) إلى عيسى.

يؤيد ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما بطرق مختلفة كثيرة عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده يوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب، ويفيض المال حتى لا يقبلهُ أحد، حتى تكون السجدةُ الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها) ثم يقول أبو هريرة:

---

(١) سورة الزخرف: آية ٦١.

(٢) سورة النساء: آية ١٥٩.

واقرؤوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾[١].

وهناك كثير من الأحاديث في الموضوع مما جعلته يكسب التواتر في المعنى وإن كانت أفرادها آحاداً.

خامساً: طلوع الشمس من مغربها

وهي حادثة صرحت بها السنة صراحة وأشارت إليها الآية القرآنية إشارة. أما السنة: فهي ما روي عن النبي ﷺ في الحديث الذي ذكرناه عن حذيفة بن أسيد في الاستدلال على دابة الأرض حيث قال: (أنها لا تقوم – أي الساعة – حتى تروا قبلها عشر آيات ومن ذلك حتى تطلع الشمس من مغربها) [٢].

أي أن الناس صباحاً بينما هم ينتظرون شروقها من المشرق وإذا بها تبرز من المغرب وذلك بإنعكاس دوران الأرض إلى جهة أخرى غير معتادة ويكون تمهيداً لخراب هذه الدنيا.

وأما الآية المشيرة إلى ذلك فهي قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾[٣]. فعند ذلك يسد باب التوبة عن الكفر وعن المعاصي.

فقد روى أبو سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ : (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيات ربِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمانُها) [٤]. قال طلوع الشمس من مغربها.

---

(١) يلاحظ تفسير ابن كثير، ٣ / ١٣٢.

(٢) البخاري، ٥ / ١٥٥ ومسلم رقم ٢٤٨.

(٣) سورة الأنعام: آية ١٥٨.

(٤) تفسير ابن كثير، ٣ / ١٣٢ ويلاحظ هناك الروايات الدالة على ذلك.

ص: والمُجتَهِدُ قَدْ يُخْطِئُ وقَدْ يُصيبُ

هل كل مجتهد مصيب

ش: المفردات

المجتهد: هو الذي توافرت به شروط الاجتهاد والتي نص عليها علماء أصول الفقـه وقد بذل قصارى جهده للتوصل إلى الحق، وإليك بإيجاز شروط المجتهد

١. أن يكون بالغاً.

٢. أن يكون عاقلاً.

٣. أن يكون فقيه النفس.

٤. أن يكون عارفاً بالدليل العقلي والتكليف به.

٥. أن يكون ملماً بمعرفة العلوم العربية واللغوية والأصول والبلاغة.

٦. أن يكون عالماً بآيات الأحكام وأحاديثها.

٧. أن يكون عالماً بالناسخ والمنسوخ ومواقع الإجماع وأسـباب النـزول وشـروط المتواتر والآحاد والضعيف والصحيح وحال الرواة[١].

الشرح الإجمالي:

اختلف علماء المسلمين في المسائل التي لم يظهر فيها دليل قاطع لحكمها هل كل مجتهد فيها مصيب أو المصيب واحد فقط ؟

إلى أربعة مذاهب:

١- ذهب عامة المعتزلة – إلى أنه لا حكم في المسألة قبل الاجتهاد بل الحكم ما أدى إليه رأي المجتهد.

٢- وذهب طائفة من المتكلمين والفقهاء – إلى أن للحكم معين ولا دليل عليه.

---

(١) لاحظ المحلى على جمع الجوامع، ٢ / ٣٨٣ – ٣٨٤.

٣- وذهب طائفة من المتكلمين – إلى أن الحكم معين وعليه دليل قطعي والمجتهد يطلبه.

٤- أن الحكم معين وعليه دليل ظني إن وجده المجتهد أصاب وإن فقده أخطأ.

فمن قال: إنه لا حكم بالمسألة قبل الاجتهاد – اعتبر أن كل مجتهد مصيب، ومن ذهب إلى وجود الحكم قبل الاجتهاد – اعتبر المصيب واحداً وغيره مخطئ وهذا الذي أخذ به المصنف.

واستدل عليه بما يأتي:

١- قوله تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾[١]. والضمير يعود إلى الفتوى[٢]. فلو كان كل مجتهد مصيباً لما كان لتخصيص سليمان بالذكر جهة فلكون الإصابة مع سليمان خصه بالذكر.

٢- وردت الأحاديث الدالة على وجود الخطأ والصواب في الاجتهاد مثل قوله: (إذا حكَمَ الحَاكمُ فأصَابَ فَلَهُ أجْرَانِ، وإن حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أخْطَأ فلَهُ أجْرٌ واحِدٌ) [٣].

٣- أن الاجتهاد غالباً ما يكون قياس مسألة مستجدة على أخرى فالثابت به كأنه ثابت بالنص الذي اعتمده الأصل والحق فيما يثبت بالنص واحد لا غير.

٤- إذا حكم المجتهد على فعل بالإباحة وآخر بالحرمة وقلنا إنهما أصابا معاً فقد لتصف الفعل الواحد بالحرمة والإباحة وهو جمع بين المتنافيين.

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٧٩.

(٢) الفتوى هي أن غنم قوم افسدت زرع آخرين فترافعا إلى سيدنا داود فحكم بإعطاء الغنم لأهل الحرث عوض ما افسد من الزرع وكان سليمان عمره أحدى عشرة سنة فقال غير هذا الحكم ارفق بالفريقين أرى أن تدفع الأغنام إلى أهل الأرض ينتفعون بالبانها وأولادها ويدفع الحرث إلى أرباب الغنم يقومون عليه إلى أن يعود إلى ما كان ثم يترادا.

(٣) مسلم، ٥ / ١٣١.

ويمكن أن يجاب:

عن الأول: بأن تفهيم سليمان كان وحياً والوحي مقدم على الاجتهاد فلا يقال له إنه أصاب لأنه غير مجتهد.

وعن الثالث: بأن الاجتهاد قد يكون خطؤه لنقص في طريقة القياس، وعدم الإصابة في حمل الفرع على الأصل فيكون النص قد حكم على الأصل بحكم واحد والفرع له حكم آخر لأنه مقاس على أصل آخر غير هذا.

وعن الرابع: أنه يلزم الجمع بين المتنافيين لو كان الحكم صادراً من واحد على شيء واحد.

أما هنا فالحكم واحد بالنسبة لكل مجتهد ولا يظهر اختلاف وجهة المجتهدين في الحكم على شيء واحد لأن شرط التناقض وحدة النسبة الحكمية وهنا تعددت.

ص: وَرُسُلُ البَشَرِ – أفْضَلُ مِنْ رُسُلِ المَلائِكَةِ
وَرُسُلُ المَلائِكَةِ – أفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ البَشَرِ
وعامَّة البَشَرِ – أفْضَلُ مِنْ عامَّةِ المَلائِكَةِ

التفضيل بين البشر والملائكة

ش: المفردات

رسل البشر – هم ٣١٣ رسولاً على رأي.

رسل الملائكة – هم جبرائيل، واسرافيل، وعزرائيل، وميكائيل.

عامة البشر – هم العدول والصالحون منهم.

عامة الملائكة – ما عدا الأربعة.

الشرح الإجمالي:

اتفق العلماء على أن رسل الملائكة أفضل من عامة البشر ومن عامة الملائكة واختلفوا فيما عدا ذلك – هل أن رسل البشر أفضل من رسل الملائكة ومن عامتهم، وعامة البشر أفضل من عامة الملائكة أو لا ؟

فذهب الجمهور إلى أن رسل البشر أفضل من رسل الملائكة وعامة البشر أفضل من عامة الملائكة.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١ – أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام على وجه التعظيم والتكريم بدليل قوله تعالى حاكياً قول إبليس: ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَـٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ [١]. وقال: ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾[٢].

---

(١) سورة الأسراء: آية ٦٢.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٢.

وجه الاستدلال:

إن السجود لا يكون إلا من الأدنى إلى الأعلى دون العكس وإذا كان آدم أفضل فالأنبياء كذلك إذ لا قائل بالفرق.

٢- قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَـؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [1]. وتعليمه دونهم دليل على أنه أفضل منهم.

٣- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[2]. والملائكة من جملة العالمين فإن إبراهيم أفضل من الملائكة ما عدا رسلهم فإن الإجماع قد خصهم.

٤- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [3].

٥- أن الإنسان يصل إلى الفضائل والكمالات العلمية والعملية مع وجود العوائق والشهوة والغضب فيصلها بكسب ومقاومة للعوائق بخلاف الملك، ومن يحصلها بكسب اشق من غيره فهو أفضل ممن تحصل له بدون ذلك [4].

وذهبت المعتزلة والفلاسفة وبعض الأشاعرة:

إلى أن الملائكة أفضل من عامة البشر ورسلهم.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١- أن الملائكة أرواح مجردة كاملة بالعقل مبرأة عن مبادئ الشرور والافات وعن ظلمات الهيولى والصورة قوية، على الأفعال العجيبة، عالمة بالكون وآياته، ومن كان كذلك أولى من غيره.

---

(١) سورة البقرة: آية ٣١.

(٢) سورة آل عمران: آية ٣٣.

(٣) سورة الأسراء: آية ٧٠.

(٤) تلاحظ هذه الأدلة في شرح التفتازاني، ص٢٥٧ – ٢٥٨.

ويجاب عن هذا:

١- أن هذا مبني على أصول الفلاسفة، أما نحن فنقول: إنها أجسام نورانية ولا يقدرون إلا على ما قدرهم الله عليه، ولا يعلمون إلا ما علمهم به ربهم، والإنسان كذلك إن قدره الله وعلمه.

٢- أن الأنبياء الذين هم أفضل البشر يتعلمون منهم والمعلم أفضل من المتعلم.

ويجاب عن ذلك: بأنهم واسطة لإيصال العلم والمعلم هو الله تعالى.

٣- غالباً ما يأتي ذكرهم في الكتاب والسنة قبل ذكر الأنبياء وهذا يدل على سبقهم شرفاً ورتبةً.

ويمكن أن يجاب: بأن تقدم ذكرهم نظراً لتقدمهم في الخلقة والوجود لا لشرفهم.

٤- يقول الله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لله وَلاَ الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [١]. ومثل هذا التعبير يدل على الترقي تقول لا يعرف هذا التلميذ ولا المعلم فهو إذن أعلى مرتبة من المسيح.

ويمكن أن يجاب: أن سبب نزول الآية اعتقاد النصارى أن عيسى ابن لله لأنه مجرد من الأبوة فيقول الله إنه لا يستنكف من العبودية كما لا تستنكف الملائكة أن يكونوا عباداً مع أنهم أولى منه بالتجرد وهم لا أم لهم ولا أب ويقدرون على أفعال أعظم من إحياء الموتى وإبراء الأكمه بالنسبة لعيسى[٢].

---

(١) سورة النساء: آية ١٧٢.

(٢) تلاحظ هذه المناقشة في المصدر السابق، ص٢٥٨ - ٢٥٩.

وهذا آخر ما تيسر لي توضيحه من شرح هذا المتن، وكان الفراغ منه عصر يوم الأربعاء المصادف ٤/ربيع الأول سنة ١٣٩٧هـ الموافق ١٩٧٧/٢/٢٣م في غرفة من إحدى غرف الطابق الخامس من فندق سفار في مدينة بانكي عاصمة جمهورية أفريقيا الوسطى؛ حيث نزلنا ضيوفاً على الحكومة الأفريقية، وكنا موفدين من قبل وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في الجمهورية العراقية لغرض الاستطلاع على أحوال المسلمين هناك وبيان متطلباتهم واحتياجاتهم وبخاصة بعد إعلان الإمبراطور (صلاح الدين بوكاسا) الإسلام هو وبعض المسؤولين، ولنرفع للحكومة العراقية احتياجاتهم المادية والمعنوية، وكنت أنا أحد المشايخ الذين أوفدوا لهذا الغرض ومعي كل من أصحاب الفضيلة الشيخ شاكر محمود البدري خطيب الإمام الأعظم في بغداد والشيخ ياسين منصور السعدي خطيب جامع الوزير في بغداد، وهذا اليوم الثاني عشر من سفرنا من بغداد.

وختاماً أرجو الله تعالى أن يوفقني وسائر المسلمين لخدمة الإسلام والإخلاص في النية لله تعالى في أعمالنا وأقوالنا وكتابتنا وقراءتنا وحلنا وترحالنا، وأن يجعل سعي هذا سعياً مشكوراً وعملاً متقبلاً مبروراً أنه سميع مجيب وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الدكتور

عبد الملك عبد الرحمن السعدي

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: التفاسير والسنة النبوية

١- أبو داود، مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٧٢ - ١٩٥٢.

٢- الأذكار للإمام النووي، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.

٣- البخاري، مطابع الشعب، ١٣٧٨هـ.

٤- ابن كثير، تفسير / الأندلس للطباعة والنشر / بيروت.

٥- التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول، منصور علي ناصف، الطبعة الثالثة، ١٣٨١هـ / ١٩٤١م، دار إحياء الكتب العربية.

٦- تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث، للإمام العلامة عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر بن الديبع الشيباني، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٢م.

٧- الجامع للأصول في أحاديث الرسول، الشيخ منصور علي ناصف، الطبعة الثالثة، ١٣٨٢ - ١٩٦٢.

٨- الدار قطني، دار المحاسن للطباعة، القاهرة.

٩- رياض الصالحين، الطبعة الخامسة، مطبعة الاستقامة بالقاهرة.

١٠- السراج المنير على الجامع الصغير، الطبعة الأولى، المطبعة الخيرية، ١٣٠٥هـ.

١١- سنن النسائي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

١٢- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، لعجلوني، الطبعة الثانية، ١٣٥١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٢- مسلم المتن وشرح النووي، المطبعة المصرية.

١٤- مشكاة المصابيح.

ثالثاً: التوحيد والتصوف

١٥- إحياء علوم الدين، الغزالي، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٩م.

١٦- الاقتصاد في الاعتقاد.

١٧- حاشية الباجوري، على الجوهرة، مطبعة الاستقامة بالقاهرة.

١٨- حاشية الباجوري، على السنوسية، مطبعة مصطفى محمد بمصر.

١٩- الحصون المحمدية، للشيخ حسين أفندي الجسر، مطبعة السعادة بمصر.

٢٠- شرح رمضان على شرح التفتازاني، مطبعة الحاج محرم أفندي، ١٢٩٣هـ.

٢١- شرح العقيدة الطحاوية، الطبعة السادسة ١٤٠٠، بيروت.

٢٢- شرح المواقف.

٢٣- شرح النسفية للتفتازاني (طبع حجري).

٢٤- القصور العوالي، للإمام الغزالي، الطباعة الفنية المتحدَة.

٢٥- نثر اللآلي بدء الأمالي، لعبد الحميد الألوسي، مطبعة الشابندر، بغداد، ١٣٣٠هـ.

٢٦- نهج البلاغة للإمام علي كرم الله وجهه، طبع بيروت.

رابعاً: كتب الفقه وأصوله

٢٧- جمع الجوامع في أصول الفقه، الإمام السبكي.

٢٨- حاشية البجيرمي، علي الخطيب الشربيني، مصطفى البابي الحلبي، ١٣٢٥هـ.

٢٩- فتح القدير، ابن الهام، الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر.

٣٠- المدونة الكبرى (فقه مالكي) المحمية ١٣١٦هـ.

٣١- المغني، ابن قدامة المقدسي، مكتب القاهرة.

خامساً: التراجم

٣٢- السيرة النبوية والتاريخ والسيرة، الإمام علي بن برهان الدين الحلبي، مطبعة مصطفى محمد.

٣٣- الإعلام، الزركلي، الطبعة الثانية.

٣٤- تاريخ الخلفاء، السيوطي.

٣٥- طبقات الحنابلة، لأبي يعلى، مطبعة السنة النبوية، مصر، ١٣٧١هـ.

٣٦- الطبقات الكبرى للشافعية، تحقيق عبد الفتاح الحلو والدكتور محمود الطناحي.

٣٧- وفيات الأعيان، ابن خلكان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

سادساً: كتب اللغة

٣٨- أقرب الموارد، الشرتوني.

٣٩- القاموس المحيط، للفيروز آبادي، الطبعة الثانية، البابي الحلبي (٣٧)، س١٩٥١

٤٠- المصباح، الطبعة السادسة بالمطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٣٨م.

المحتويات

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة